محمد قطب

في النفس والمجتمع

الناشر
مكتبة وهبة

إهـــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

محمد قطب

في النّفس والمجتمع

الطبعة الثانية

يونيه ١٩٦٢

الناشر

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - بعابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

« صدق الله العظيم »

مقدمة الطبعة الثانية

هذه المجموعة من الخواطر مكتوبة قبل سنوات . . .

وقد لاحظت عند مراجعتها لإعادة الطبع ، أن بعضها قد نما وتبلور ، وأخذ امتداده فى الكتب التى تلت هذا الكتاب : « قبسات من الرسول » و « معركة التقاليد » و « منهج التربية الإسلامية » و « هل نحن مسلمون ؟ » و « منهج الفن الإسلامى » . . وبعضها الآخر قد بقى على صورته التى كتب بها فى هذا الكتاب ، لأنه لم يأخذ فى نفسى امتدادا آخر ، ولم تضف تجاربى الشعورية والفكرية جديدا إليه .

وقد أبقيت هذه وتلك بترتيبها وألفاظها ، لأنها تمثل حلقة من حلقات التفكير والاتجاه . . !

محمد قطب

مقدمة الكتاب

لهذا الكتاب قصة . . .

فمنذ بضع سنوات كنت أكتب مؤلفى الأول عن نظرية الإسلام فى النفس الإنسانية فى مجالها الفردى والاجتماعى ، وسميته « الإنسان بين المادية والإسلام » . وأشهد أنى حتى اللحظة التى بدأت فيها الكتابة بالفعل لم أكن أتصور أن نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية هى بهذه الدقة والشمول فى كل اتجاه !

لقد كنت ـ بطبيعة الحال ـ قد كونت فكرة عامة بدأت الكتابة على أساسها ؛ هذه الفكرة مبنية على أن « التوازن » هو أساس نظرة الإسلام إلى الحياة وإلى الإنسان . وأن الإسلام هو النظام الذى يوازن بشكل دقيق ملحوظ بين مختلف القوى الإنسانية : يوازن بين الروح والجسد ، بين الأشواق العليا ونزعات الغريزة ، بين الخضوع لضرورات الحياة ، والتسامى إلى طلاقة الأفق الأعلى . . كما أن الإسلام يقع فى نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة . يقع بين الكبت الذى تفرضه بعض النظم والعقائد ، والانطلاق الحيوانى الذى توحى به بعض آراء علماء النفس من أمثال فرويد . ويقع بين الفردية المتطرفة التى تقوم فى العالم الرأسمالى ، والجماعية المتطرفة التى تقوم فى العالم الشيوعى . ويقع بين المادية المغرقة التى تحدد الحياة بما يقع فى محيط الحواس ، والروحانية المغرقة التى تهمل عالم المادة لتتعلق بسبحات الروح وأطياف الخيال .

تلك هى الفكرة العامة التى كنت قد كونتها من دراستى لنظرة الإسلام إلى الحياة والإنسان . ولكن فيضاً عجيباً من الخواطر المتلاحقة كان يرد فى خاطرى أثناء الكتابة ، كأنه ينظر لى لأول مرة ، وكأنما أكتشفه اكتشافاً فى أثناء الطريق ؛ هذه الخواطر سجلت بعضاً منها فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام »

لأنها تدخل بصفة مباشرة فى موضوع البحث ، ولأنها لازمة لتوضيح الفكرة الأساسية للكتاب . . ولكن بقية من هذه الخواطر كانت تملأ ذهنى فى وقتها فأبعدها عن خاطرى إبعادا ، حتى لا يتضخم الكتاب من جهة ، وحتى يمكن من جهة أخرى الإلمام بفكرة عامة عن سيكلوجية الإسلام ، دون أن تتوزع فى كثير من التفصيلات .

وظلت هذه الخواطر حبيسة لا أجد الفرصة لتسجيلها . . حتى سجلتها أخيراً فى هذا الكتاب .

إنه مجموعة من الخواطر يربطها كلها رباط واحد ، هو أنها عرض الفكرة الإسلامية فى الفرد والمجتمع ، يشمل نواحى مختلفة من النفس الإنسانية والنشاط الفردى والاجتماعى .

وقد يلحظ القارىء نوعاً من التسلسل فى موضوعات الكتاب ، أو يلحظ على الأقل نوعاً من الترابط بين مجموعات مختلفة من العنوانات التى جاء بعضها على إثر بعض .

وعلى أى حال فالرباط الأكبر هو أنها كلها مأخوذة من زاوية العقيدة، وأثرها فى الحياة البشرية .

وهى مادة تصلح بذوراً لتكوين نظرية إسلامية نفسية ، لا أزعم أننى وصلت فيها إلى شىء قاطع ، ولكن حسبي منها أن أفتح بها الباب للباحثين يستخلصون منها ومن غيرها نظرية تفصيلية تشمل كل ميدان النفس ، وتصلح أن توضع فى ميدان البحث العالمى فى مقابل النظريات الغربية ، تتلافى ما فيها من انحرافات وعيوب ، وتساهم فى إنشاء عالم أفضل ، يقوم على هدى واضح واتجاه سليم [1]

نرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير ، إنه سميع مجيب الدعاء ؟

---

(١) بين يدى الآن بحث أرجو أن أقدمه للقراء قريبا باسم « دراسات فى النفس الإنسانية » .

العقيدة

عقيدة . أو لا عقيدة ؟!

سؤال حائر فى أفكار الشباب وفى ضمائرهم . .

ماقيمة العقيدة ؟ مادورها فى الحياة ؟ هل يمكن أن يكون لها اليوم دور فى عصر الآلة والإنتاج الكبير ؟

وما غرض العقيدة ؟ أوليس هدفها إقامة الحياة البشرية على أسس صالحة ؟ لقد تولى ذلك عنها العلم فى العصر الحديث، فأقام نظما اقتصادية واجتماعية من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس على أسس الاشتراكية والتعاون ، بحيث تجعلها جزءا من النظام العام ، تشرف عليه الدولة ، وتضع له التشريعات والقوانين .

فماذا بقى إذن من مهام العقيدة لم تقم به « الدولة » الحديثة ؟ لقد كان للعقيدة دور هام تؤديه يوم كانت الدولة فى طفولتها ، وعلاقات الناس شخصية أكثر منها جماعية ونظامية . أما اليوم فقد صيغت العواطف نظما والنوايا الطيبة أعمالا منظورة . وتحول العدل الاجتماعى من دعوة ووعظ ، إلى نظريات علمية وتطبيقات عملية . فما شأن العقيدة فى العالم الحديث ؟

ثم إن العقيدة وما حولها من روحانيات وطقوس كانت مفهومة قبل أن يفسر العلم ظواهر الحياة تفسيراً «واقعيا» ، فكان الجهل بما وراء هذه الظواهر هو الذى يدفع الناس إلى افتراض قوة خفية تسيّر الكون . وإذ كانوا لا يرونها ، وهم فى الوقت ذاته يخشونها ، فقد أقاموا العبادات لاسترضائها واستمطار رحمتها واليوم ذهب ذلك كله . فقد « قهر » الإنسان الطبيعة ، وانتزع أسرار الكون واحدا إثر واحد . فجّر الذرة واستخلص منها طاقة هائلة يمكن أن تدمر وجه الأرض . واكتشف أعماق البحار المجهولة وأغوار السماء . وفتش فى كل مكان

حتى عرف القوة الخفية أو كاد ! فما معنى التشبث بما كان أيام الضعف والجهالة ؟
اليوم يعبد الناس إلهم الجديد الذى وصلهم إلى الأسرار . وهو العلم . أو يعبد الإنسان نفسه ، فهو القوة الفعالة على ظهر الأرض ! (١)

كذلك يتحدث الشباب عن العقيدة . . مخاصما حينا ، ومستمعا حينا إلى غواية الشياطين ينفثون فى فكره ، ويجرونه من خيوط الرغبة الهائجة والشهوة المجنونة.

والشباب دفعة الحياة الجارفة وطاقتها المذخورة . ولكنه كذلك ذخيرة خطرة حين ينحرف عن طريقه ويضل عن الهدف المنشود .

والضلال الأكبر الذى يشمل هذا الجيل من البشرية هو استغلاق روحه عن العقيدة ، وانطماس بصيرته أن تستمتع بنورها الشفيف .

« ويحسبون أنهم مهتدون » . . .

كذلك كان الناس فى الجاهلية . كانوا يتبعون باطلهم المضحك مخلصين حينا ، ومستمعين حينا إلى غواية الشياطين . . . « ويحسبون أنهم مهتدون » !

والجاهلية الجديدة أشد عُتُـوًّا لأنها أشد قوة! إنها تملك من وسائل التحطيم مالم يخطر من قبل على ذهن بشر . لذلك فهى أشد اعتزازاً بباطلها المضحك ، وأشد ضلالا به من السابقين .

كانت الجاهلية الأولى تعبد أصناماً لجة الصنع أو لجة العقيدة . لذلك انهارت فى يسر . وإن كان هذا اليسر النسبى قد استغرق بضعة قرون من الكفاح، وبضعة آلاف من أرواح البشر استشهدوا فى الطريق .

والجاهلية الثانية تعبد أصناماً لاسبيل إلى كفاحها فى يسر أو تحطيمها فى هوادة ، لأنها لا تقوم على باطل مطلق كأوثان الفراعنة والبدو ، والإغريق والفرس ، بل تقوم على ركيزة هائلة من « الحق » هى ركيزة العلم .

ولكنه حق يراد به باطل .

---

(١) أنظر الفصل التالى : « العلم والعقيدة » .

العلم حقيقة محايدة ، لا تؤدى بذاتها إلى الخير أو الشر ، ولا تؤدى بذاتها إلى الهدى أو الضلال . ولكن القلب الذى يستخدم هذه الحقيقة هو الخيّر أو الشرير ، هو الذى يتجه بها إلى طريق الهدى أو طريق الضلال .

ومن الناس من « أضله الله على علم » . وهو أخطر ممن ضل على جهالة . لأنه يملك ومن وسائل المعرفة ما يقدر به على الشر .

وهذا الجيل من البشرية ربما كان أبعد أجيالها فى الضلال ، لأنه أشدها ضلالا « على علم » وأقدرها على استخدام العلم فى طريق الشر .

وما هذه الحروب المدمرة التى تهدد العالم بالفناء ؟ اثنتان فى ربع قرن والثالثة على الأبواب ؟

يقولون لك إنه « الصراع » . . صراع الحياة ، أو صراع البقاء .

نعم . ولكنه فى الواقع هو الضلال الذى يؤدى إلى الصراع .

لو أفلت نظام الكون . . لو انحلت الرابطة التى تربط كوكباً بكوكب ، وتسيّر الأفلاك فى الكون العريض . . كيف يحدث ؟

ولو أفلت نظام الذرة ، وهى البنية التى يقوم عليها الكون ، لو تفتت نواة الذرة التى تمسك حولها الكهارب المنطلقة فى نشاط دائم . . كيف يحدث ؟

هل يحدث إلا الفوضى المدمرة والضلال الرهيب . . ؟

ذلك ما حدث لهذا الجيل من البشرية تفتت نواته . وانطلقت كهاربه المجنونة تصطدم وتتحطم ، وتدمر كل ما تصادفه فى الطريق

وهل يمكن أن تكون النواة فى الكيان البشرى غير العقيدة ؟

النواة هى الطاقة الموجبة فى بناء الذرة . وهى التى تمسك الكهارب المنطلقة أن ينحل عقدها ، وتنفلت إلى غير رجوع . هى التى تمسك البناء كله وتشده بعضه إلى بعض . هى التى تحفظ التوازن وتسير النظام . هى المركز الذى يدور كل شىء حوله ، ويظل أبداً منجذباً إليه فى رباط خفى ولكنه وثيق .

وحين تتحطم الذرة يحدث الخراب. تنطلق القوى التي كانت خيّرة منذ لحظة ، لأنها كانت ـ وهي مشدودة إلى النواة ـ تمثل النشاط الدائب الذي يعمل للبناء . تنطلق هذه القوى بلا ضابط ، فتصبح هي قوى الشر وعوامل التدمير !

وكذلك الإنسان بلا عقيدة !

كتلة هائمة من النشاط المجنون . نشاط مدمر لأنه فقد المركز الذي يدور حوله ، وفقد كذلك الرباط الوثيق بين أجزائه .

أو .. ميوعة وانحلال . تفسك ورخاوة . تفاهة سالبة ، كالكهربه السالب بلا نواة تشده إليها وتحركه إلى هدف معلوم .

وهذا وذاك هو الواقع الذي يعيش فيه البشر في القرن العشرين .

فهل رأت البشرية في تاريخها الطويل من دواعي القلق والفزع ما تراه اليوم من الحروب الذرية ؟

هل رأت من دواعي الصراع المجنون ـ حتى أيام الغابات والكهوف ـ ما تراه اليوم من الصراع العنيف من أجل الغلبة والسلطان ، والإهلاك والتدمير ؟

وهل رأت من الانحلال الخلقي والتفاهة المشردة ما تراه اليوم في المراقص والحانات ، والغابات والطرقات ، والصحف العارية والسينما المتبذلة و« الفن » الخليع ؟

نعم . مر على البشرية من كل ذلك ألوان . ولكنها لم تبلغ قط في حدتها وضراوتها ما بلغته في هذا الجيل .

يقولون لك : هذه ضريبة العلم .

كذبوا : إنها نتيجة الضلال .

ليس العلم شريراً في ذاته . وليس من الضروري أن تكون ضريبته هي هذا الشر الضارب في الآفاق .

ولكنه هو هكذا المخلوق البشري حين ينحل رباطه ويختل توازنه . هو هكذا يصبح قطعة من الشر ، وصنوا الشيطان .

تذكر الإحصاءات أن ما أنفق فى الحرب بين الأخيرتين كان كفيلا بأن يمنح كل فرد على ظهر الأرض بيتاً حديثاً مجهزاً بأنفع الأدوات، ودخلا أعلى من المتوسط اليوم.

يقولونها للتسلية والتندر . .

ليس هناك دافع جدى يقول للناس : ويحكم ! ماذا تصنعون !

ليس هناك شعور حقيق بوحدة الإنسانية وأخوتها .

ليس هناك ضابط حقيقى يمنع شهوة الإبادة والتخريب .

ليس هناك عقيدة .

وتذكر الإحصاءات أن ماينفق فى المواخير ونوادى الميسر ووسائل الهبوط المختلفة، من ساعات العمر ومن الأموال التى تمثل الكد البشرى ، هو مئات الملايين.

يقولونها للتسلية والتندر .

ليس هناك إحساس حقيقى بكرامة البشرية أن تهبط إلى هذا المستوى من التفاهة والانحلال .

ليس هناك استخسار حقيقى للطاقة البشرية الضائعة فى لا شىء ، المنحدرة إلى الهاوية .

ليس هناك تقدير حقيقى لتلك الخامة العجيبة التى صنع منها المخلوق البشرى . الخامة القادرة على الرفعة بقدر ما هى قادرة على الهبوط .

ليس هناك معرفة حقيقية بهذا الجوهر الفذ الذى نفخ فيه الله من روحه وخلقه على صورته .

ليس هناك عقيدة .

وحين يفقد الإنسان العقيدة فهكذا يصير .. ضراوة الوحش وتفاهة الانحلال.

* * *

هل معنى ذلك أن نغمض أعيننا عن كل ما أحرزته البشرية فى العصر الحديث من تقدم ؟ ونلغى من حسابنا كل ما يسره العلم من الخدمات ؟

كلا ! ما قصدنا إلى شيء من ذلك . وإنه لضرب من المستحيل .

وإنما نقصد فقط أن نراجع الوسائل والأهداف .

لأى معنى نعيش ؟

هل كل همنا أن نبدد طاقتنا الحيوية فى متاع الجسد ، أو نتصارع كالوحوش على الغلبة والسلطان ؟

أو لشيء أعلى من ذلك نعيش ؟

نستمتع بمتعة الجسد ، ونتطلع مع ذلك إلى آفاق أخرى ، آفاق تربط بين البشر برباط الأخوة وتهدف إلى الجمال ؟ الجمال فى كل شيء . جمال التعبير ، وجمال الشعور . لا فى عالم الفن المحدود وحده ولكن فى نطاق الحياة كله . . .

وهل أجمل شعوراً فى النفس من الحب ؟ وأجمل تعبيراً من الخير فى الحياة ؟

والوسيلة هى العقيدة . .

والمخلوق البشرى كـكل شيء فى بنية هذا الكون الأ نلم . « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

نواة موجبة الطاقة وكهارب سالبة تستمد منها الحركة الدائبة والهدف المحدد الاتجاه .

هذا .. أو الفوضى الضاربة الأطناب .

والعقيدة هى الرباط الذى يربط كيان الإنسان ويوحد اتجاهه . هى العقدة الصلبة التى تمنع انحلاله . هى التى تنظم غدوه ورواحه . وتوازن بين دفعاته المتشعبة الأهداف .

ولا شيء يستطيع أن يغنى فى ذلك غناء العقيدة . لا العلم . ولا الدولة . ولا التنظيم الاجتماعى . ولا تنظيم الاقتصاد(١) .

كلها جزئيات تشمل أجزاء من الكيان البشرى ولا تجمعه كله . والويل لها إن لم يكن بينها ترابط يجمع شتاتها ويوازن بين دفعاتها المتشعبة الأهداف . فعند

(١) أنظر الفصل التالى عن « العلم والعقيدة » .

ذلك تمزق المخلوق البشرى بين الشد والجذب ، وتفسد أعصابه ، وتدفع به إلى الجنون .

الجنون الذى يسمونه الحرب . أو الجنون الذى يسمونه صراع الحياة .

أو فى القليل جنون التكالب على المتاع الجسدى المسعور .

والعقيدة هى الرقية من هذا الجنون .

إنها ليست بديلا من العلم . أو الدولة . أو التنظيم الاجتماعى . أو تنظيم الاقتصاد .

وليست فى موضع التقابل من ذلك كله . (١)

وإنما هى الرباط الذى يربط كل ذلك ، ويوجهه إلى طريق الخير . هى النواة التى تمسك كيان الذرة وتنظم ما فيها من النشاط .

والنواة ـ وهى ثابتة راكزة ـ لا تعيق نشاط الكهارب ولا تمنعها من الانطلاق. تمنعها فقط من الفوضى والتصادم . تمنعها من الانفلات بلا غاية ولا دليل . لأنها عندئذ تفقد معناها . تفقد وظيفتها الحقة ، وتصبح أداة للهدم فوق أنها هى ذاتها تضيع .

والعقيدة لا تمنع الاستمتاع بالطيبات من الرزق ولا تحرم زينة الله التى أخرج لعباده . ولا تمنع كذلك تقدم العلم وتنظيم المجتمع . (٢)

وإنما تجعل لكل ذلك غاية . غاية غير الصراع المجنون والتدمير الرهيب . غاية هى الشعور الجميل والتعبير الجميل . غاية هى الحب وهى الخير .

والحب هو الله .

والخير هو الله .

والله جميل يحب الجمال .

(١و٢) انظر الفصل التالى عن « العلم والعقيدة » .

العِلمُ والعقيدَة

أعجب ما فى هذا المخلوق البشرى أن أداة الهدى يمكن أن تكون بذاتها أداة الضلال ! وأداة الخير يمكن أن تكون أداة للشر سواء ! (١)

ومن هنا ضلت البشرية بالعلم فى هذا القرن العشرين ، بدل أن يقودها العلم إلى الهدى واليقين !

واتُّخِذ العلم سلاحا لمحاربة العقيدة ومطاردتها فى نفوس المؤمنين !

واتَّخَذت الحرب طريقين تلتقيان فى النهاية . . تلتقيان عند الجاهلية الكبرى التى يصنعها الناس لأنفسهم ، وتباركها من ورائهم الشياطين !

الطريق الأول نظريات « علمية » تقول إن الدين نشأ من الضعف ومن الجهل اللذين سيطرا على طفولة البشرية ، فينبغى أن يترك اليوم مكانه للعلم . . وكفى ما كان من خرافة وأساطير !

والطريق الثانى نظريات علمية كذلك ! تقول إن « الدولة » فى العالم الحديث تقوم بالتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية على أسس علمية . فلم يعد هناك مجال للتنظيمات التى كانت تقوم على الوجدان الدينى الذى قد يخطىء وقد يصيب . وهو وجدان فردى على أى حال ، لا يصلح لتنظيم الجماعات الراقية فى عصر الذرة والصاروخ !

* * *

نشأ الدين من الضعف ومن الجهل . .

كان الإنسان الأول يرى البرق ويسمع الرعد فيرتجف فرقا ، ولا يعرف السر وراء هذه الأشياء . وكان ظلام الغابة وعويل الرياح فيها وحفيف

---

(١) انظر فصل « الطاقة البشرية المحايدة » .

الأشجار يفزعه ويخيل إليه أن هناك أرواحا شريرة تريد أن تفتك به . ومن هذا وذاك نشأ اعتقاده بوجود آلهة مختلفة بعضها للخير وبعضها للشر . بعضها من ظواهر الطبيعة وبعضها من حيوانات الأرض .. ثم ظل علمه بالأشياء يزداد وفكرته عن الإله ترتقى حتى وصل آخر الأمر إلى عقيدة التوحيد . وكانت تلك مرتبة عالية فى الفكر البشرى . ولكنها هى الأخرى استنفدت أغراضها وأخلت مكانها للمعرفة الواقعية والعلم الصحيح .

ذلك حديث أوربا عن الدين . بضاعة أرضية بحتة من صنع الإنسان ، ترتقى معه ، وتتطور بتطوره . ولكنه ليس كما يفهم المسلمون حقيقة علوية قائمة بذاتها ، ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده ، حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها فى عقيدة التوحيد .

ولنترك عقيدة المسلمين فى الله لحظة ، ولنتجرد من كل قداسة الدين لنواجه هذه « الحقيقة العلمية » بلا ستار !

الضعف والجهل هما أساس العقيدة . .

فماذا نال الإنسان من القوة ومن العلم ليستغنى عن العقيدة فى القرن العشرين ؟

فجّر الذرة واكتشف الأفلاك ؟ ركب الطائرة الصاروخية ؟ صار يسمع ويرى ما يحدث على بعد مئات الألوف من الأميال ؟ صار يستخدم الإشعاع الذرى فى تشويه صنع الله فى الطبيعة والأحياء ؟

نعم . ولكن ذلك لم يكن مشكله الأول . بل جاء ذلك كله فى الطريق وهو يبحث فى مشكله الأول !

« قال : ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » !

تلك قصة الشيطان مع آدم . وقد استزله بهذا الإغراء العنيف الذى لم يطق الوقوف إزاءه . أن يكون ملكا يعرف كل شيء . أو يكون من الخالدين .

ووجدت أن الفرصة سانحة للتخلص من نيرها المرهق وسلطانها البغيض.

لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى قد تحولت من معنى الرحمة السابغة والروحانية الصافية التى توحى بها طبيعة المسيحية ، إلى سلطان دنيوى قاهر مذل . وراحت تفرض على الناس ألواناً مختلفة من الإتاوات ، إتاوات مالية وروحية وفكرية . تفرض عليهم الضرائب المرهقة والعشور التى تثقل كاهلهم ، وتفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، وتفرض عليهم أفكاراً معينة بوصفها كلمة السماء ، من خالفها فهو ملحد وخارج على الدين .

وجدت الجماهير فرصة سانحة للإفلات من الغول البشع الذى يطاردها فى يقظتها ومنامها ، فانتهزت الفرصة ودخلت المعركة مهاجمة بعد أن كانت مدافعة . وأخذت تحصب الكنيسة بما تساقط فى الأرض من الأنقاض... أنقاض العقيدة، وأنقاض الفكر ، وأنقاض «الروح».

وأياً كانت طبيعة المعركة ودوافعها فقد كانت من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، وتركت فى حياة الناس نتائج خطيرة بالغة الخطورة ، وما يزال « المد » الذى أحدثته فى أوربا يفيض حتى اللحظة بأخطر الأمور .

أولى نتائجها زلزلة الإيمان بالله والعقيدة .

وثانية نتائجها زلزلة الإيمان بالإنسانية والإنسان ورفعته وسموه وروحانيته .

وثالثة نتائجها زلزلة الإيمان « بثبات » أى نظام من النظم أو قيمة من القيم أو فكرة من الأفكار .

ورابعة وخامسة وسادسة . . زلزلة كل شىء كان راكزاً من قبل ، وتحطيم كل بنيان راسخ الأساس .

فكرة الله الخالق المدبر المريد ذى القصد لقيت أول زلزلة مباشرة على يد دارون فى قضية خلق الإنسان ، حين نفى دارون القصد ، ونفى الخلق المباشر للإنسان بيد الله وأرجعه إلى عملية التطور ، ونفى أن ثمة شيئاً فى كيان الإنسان يمكن أن يكون « نفخه الله فيه من روحه » إذ قرر على سبيل الجزم الحيوانية المطلقة لأصل الإنسان .

ومن هنا اضطر المتدينون بعد المعركة العنيفة التى اعتملت فى وجدانهم وضمائرهم ، أن يؤمنوا بالله — إن لم يكن من ذلك بد — كفكرة وجدانية غير منطقية ، لا دخل لها بالواقع . . الواقع العلمى والواقع العملى والواقع المادى . . فليكن الله فكرة تشبع الوجدان الدينى وتسبح بها الروح فى تأملاتها ، ولكن لا دخل له ـ سبحانه ـ بعملية الخلق وقوانين الطبيعة وسير الأمور فى الأرض . أو أنه — بالكثير — قد خلق الكون وأودعه سننه وطاقاته ، ثم تركه يتطور ، حسبما توصله إليه طاقة التطور ، دون تدخل منه سبحانه فى النتائج ولا إرادة .

أما غير المتدينين .. الذين كان التدين عبئاً مفروضاً عليهم بحكم

التقاليد وسيطرة الكنيسة ورجال الدين . . فقد وجدوا فى نظرية داروين مهرباً من الدين كله ، ومخلصاً من فرائضه وقيوده . فلما واجهتهم المشكلة التى تواجه كل عقل مؤمن أو غير مؤمن : مشكلة الخلق الأول ونشأة الحياة على سطح الأرض ، هربوا من « الله » إلى « الطبيعة » التى قال عنها داروين : « إنها تخلق كل شىء . . ولا حد لقدرتها » . فكانت الطبيعة بالنسبة إليهم إلهاً جديداً يعبدونه. إله له معظم صفات الله ، إلا القصد والإرادة . وفوق ذلك ليست له كنيسة تطارد الناس بالإتاوات ، وتحير عقولهم بالمشاكل ، وتفرض عليهم قواعد الخلق والسلوك . فهو إذن إله لا يلزم الناس بالتطهر ، ويستطيع عباده أن ينفلتوا من القيود .

ولم تكن هذه هى الزلزلة الوحيدة لفكرة العقيدة . .

فقد تغلغلت فكرة « التطور » فى أفكار الناس ووجداناتهم ، وأخذت المكان الذى كانت تحتله من قبل فكرة « الثبات » .

ومادام كل شىء يتطور ، ولا شىء يثبت على حاله — كما قال داروين — فلماذا لا يشمل التطور فكرة الله ذاتها وفكرة العقيدة ؟

بل لقد تطورت العقيدة فعلا على مدار التاريخ .

وصحا العلماء إلى « اكتشاف جديد » فى عالم الدين .. لم يكن الأمر فى مسألة الدين أمر ضلالة وثنية انتهت إلى عقيدة صحيحة ثابتة مهتدية إلى الله . وإنما كانت فكرة « متطورة » بدأت بعبادة الأب ، ثم عبادة

الطوطم[1] ، ثم عبادة الوثن ، ثم عبادة الله والإيمان بالوحى والرسالة

وغداً . . أو اليوم « تتطور » الفكرة من أساسها ، ولا تعود عبادة لله . . ولتكن مثلا عبادة للطبيعة أو غيرها من المعبودات . . أو . . لا عبادة على الإطلاق !

وغير هذا وذلك وجد اتجاه عقلى يميل إلى إنكار كل شىء ، وعدم الإيمان إلا بما تثبته التجربة أو تدركه الحواس . .

لقد قال الناس لأنفسهم — أو قال « العلماء » أولا وتبعتهم الجماهير بعد ذلك — لقد كنا نؤمن بأشياء كثيرة ورثناها عن أجدادنا أو لقنتها لنا الكنيسة ورجال الدين ، وقد « ثبت » أنها غير صحيحة . ثبت أن الأرض ليست مركز الكون، وكانت الكنيسة تقول ذلك . وثبت أن الأرض كروية وكانت الكنيسة تقول : إنها منبسطة . و « ثبت » أن الإنسان من أصل حيوانى وكانت الكنيسة تقول : إن الله خلقه على صورته ، خلقاً إبداعياً غير متعلق بشىء قبله أو بعده . . وإذن فلنترك عقائدنا الموروثة جملة فإنها مجموعة من الخرافات ولنبدأ من جديد . بلا عقائد سابقة . بلا أفكار مسلم بها . لنبدأ من نقطة الصفر . لا نؤمن إلا بما نراه بعيوننا وتدركه حواسنا وتجاربنا . . ولننح عن أذهاننا

---

(١) الطوطم (Totem) هو معبود تعبده القبيلة ، ويكون فى الغالب حيواناً معيناً تعتقد القبيلة أن دماءه تجري فى كل فرد من أفرادها . وهم يقدسونه فلا يذبحونه ولا يقتلونه (إلا فى مناسبات دينية خاصة ، وعندئذ يشربون دماءه لتجرى فى عروقهم من جديد) ولكل قبيلة طوطمها الخاص .

فكرة الله وتدخله فى الخلق أو إرادته منه . فلندرس الكون فى معزل عن الله . فنحن لم نر الله . ولم نر كيف تدخل فى الكون . فليظل الله لمن يريد أن يؤمن به فى خياله . أما نحن — الواقعيين — فلن نؤمن بشيء لا تدركه الحواس .

كذلك تزلزلت فكرة الدين .

أما « لإنسان» فقد فقد كل ما كان التصور الدينى قد أسبغه عليه من رفعة وتمرد وروحانية وأخلاقية ، مردها جميعاً إلى نفخة الله فيه من روحه وقصده الأزلى فى خلقه ، وهما اللذان قالت الداروينية إنهما خرافة صنعتها الأساطير . ونزعت عنه « القداسة » التى كان يستمدها من خلق الله له على صورته ، وعنايته به — سبحانه — فى إفراده بشتى المزايا ، وخاصة بتلك الشفافية الروحانية التى ترفعه على سائر الحيوان . لقد صار — على هدى الداروينية — حيواناً لا رفعة فيه ولا روحانية ، وصار من جهة أخرى مطلقاً من كل قواعد الخلق وقواعد المجتمع وقواعد التقاليد ، لأن هذه كلها « ثوابت » زائفة لا ثبات فيها ، وناشئة عن « ضلالة » سابقة مستمدة من الدين .

كل شيء يتطور . والمجتمع كذلك يتطور . . تتطور نظمه وأفكاره ومفاهيمه .

فإذا كانت « الأخلاق » بمفهومها التقليدى شيئاً جميلا فى الماضى ، ومناسباً لمرحلة معينة من التطور ، فليس من الضرورى أن تكون

اليوم جميلة ولا مناسبة . . . لأن المجتمع قد تطور . . . و « المجتمع » هو الذى صنع هذه الأخلاق من قبل ... وليس الله ... وليس العقيدة — وإن كان الناس قد أسندوها من قبل غفلة منهم إلى الله والعقيدة — فالمجتمع إذن هو صاحب الشأن فى تعديلها أو الإبقاء عليها . . . وقد قرر التعديل .

وإذا كانت « الأسرة » بمفهومها التقليدى شيئاً جميلا فى الماضى ، ومناسبا لمرحلة معينة من التطور ، فليس من الضرورى أن يكون هذا المفهوم اليوم مناسباً ولا جميلا . . . بل ليس من الضرورى أن توجد أسرة على الإطلاق . . . فليس الله الذى صنع الأسرة كما فهمت الجماهير خطأ من قبل ، وإنما هى احتياجات المجتمع . . . والمجتمع حر اليوم فى الإبقاء على الأسرة أو تفكيكها . . . وقد قرر التفكيك .

وإذا كانت المرأة من قبل زوجة وأما ولا زيادة ، فليس ذلك أصلا من أصول الأشياء ، ولا مبدأ ثابتاً لا يتغير . . . وإنما هى فكرة اجتماعية نشأت عن أسباب عدة . . . والمجتمع الذى أحاط هذه الفكرة من قبل بسياج من الصيانة ، بل القداسة الزائفة ، ودس فيها اسم الله والدين ، هو المجتمع الذى يحطم اليوم هذه الفكرة ويرفع سياجها الزائف ويطلقها بلا سياج .

وإذا كانت « العفة » الجنسية قدساً من أقداس الماضى ، فليس ذلك قيمة من القيم الثابتة الراسخة فى حياة البشرية . . . إنما هى كانت

كذلك فى فترة من الزمن ... وليس ما يمنع أن « تتطور » من أساسها ، أو أن تصبح — إذا أراد المجتمع — رذيلة ينفر منها المتحضرون .

كذلك تزلزلت الأخلاق والتقاليد .

وزاد من شدة زلزالها أن الحاجز الأكبر الذى كان يمنع تأرجحها من قبل — إلى جانب العقيدة فى الله — كان هو الإيمان برفعة الإنسان وروحانيته ، والاستحياء من « الهبوط » إلى مستوى الحيوان ، على اعتبار أن الإنسان مخلوق متميز متفرد ، لا تقاس حياته وأعماله بمقياس الحيوان ، ولا ينبغى له أن ينساق مع غرائزه حيث تميل . . . فاليوم قد انزاح هذا الحاجز ... حاجز « الإنسانية » وصار الإنسان فى عرف نفسه حيوانا عريق الأصول فى الحيوانية . فهو إذن ليس فى مستوى « رفيع » « يهبط » منه ... وإنما هو دائما فى « طور » يؤدى إلى طور آخر . . . ولا رفعة ولا هبوط فى مقياس الحيوان .

* * *

ومع الداروينية ولد التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ .

يقول التفسير المادى للتاريخ ، أولا : إن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام .

ويقول ثانيا : إن القوى المادية — أو القوى الاقتصادية — هى التى تكيف الحياة البشرية ، وتعطيها طابعها ، وتنشىء أفكارها ومفاهيمها وعقائدها . . . حسب درجتها من التطور . فإذا انتقلت

البشرية من طور إلى طور — بحكم قوة التطور الدائمة المفروضة على الإنسان من خارج نفسه ، والتي لا علاقة لها بإرادته الذاتية — فإن صورة الحياة تتغير ، ومشاعر الناس تتغير ، وأفكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم تتغير ، ويتغير كل شيء في المجتمع من أخلاق وعادات وتقاليد تغيراً حتميا لا يملك السيطرة عليه أحد لأنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو من صنع البيئة المادية أو القوى الاقتصادية[1]

ويقول ثالثا : إن الأطوار التي تنتقل فيها البشرية هي في ذاتها أطوار حتمية لافكاك منها ولا اختيار فيها . فهي مثلا تنتقل من الصيد إلى الرعي إلى الزراعة إلى الصناعة . . . وهي مثلا تنتقل من الخرافة إلى التدين . . . إلى العلم ، وكل طور من هذه الأطوار له عقائد محددة وعادات محددة ترسمها البيئة . . . وحين ينتقل المجتمع من حالة إلى الحالة التالية — وهو انتقال حتمي — يأخذ بصفة حتمية كذلك مفاهيم الحالة الجديدة وأفكارها وعقائدها بلا اختيار .

ويقول أخيراً — وهو خلاصة القول السابق — : إن الأفكار والمشاعر والعقائد ليست هي التي تحرك الناس أو ترسم لهم سلوكهم

---

(١) التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ أخوان أو أبناء عمومة . وكل الفرق — إن كان هناك فرق — هو أن التفسير المادي للتاريخ يجعل الأمور في يد القوى المادية على إطلاقها ، بينما التفسير الاقتصادي للتاريخ يختار المظهر الاقتصادي للقوى المادية ويجعل في يديه قياد الأمور .

العملى فى واقع الحياة ، وإنما هى تجىء لاحقة لـكل وضع اجتماعى أو اقتصادى . فهى ليست قوة موجهة ، فضلا على أنها لا تثبت على حال واحد ، فهى متطورة على الدوام .

يقول ماركس : « فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها . وهى مستقلة عن إرادتهم . . فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » .

ويقول « فردريك إنجلز » : « تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى: وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأساليب النهائية لـكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » .

ولسنا هنا نناقش الآراء ، وإنما نستعرض التاريخ[1]

لقد مـد هذا التفسير المادى للتاريخ فى موجة التفسير المـادى الحيوانى للإنسان .

---

(١) ستناقش هذه الآراء فى الفصل الثانى « حقائق وآراء » .

فليس يسعى الإنسان للحق والعدل الأزليين ، وإنما يسعى إلى الطعام .

لا عقيدة ولا مبادئ ولا مثل ولا مشاعر . . وإنما حيوان يعيش فى نطاق المعدة . . ويسيّره البحث عن الطعام .

وإن سعى إلى الحق والعدل فلا فائدة . . فالناس محكومة بقوانين حتمية هى المادة والاقتصاد .

« ليس شعور الناس هو الذى يكيف وجودهم ، وإنما وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » .

لا يساوى شيئاً أن يعتنق الناس فكرة أو يؤمنوا بعقيدة . كل ذلك باطل . كله أوهام . خيالات لا تسمن ولا تغنى من جوع . لن يغير ذلك شيئا من « واقع الحياة » . الواقع الذى يحدده « أسلوب الإنتاج » .

الدين والأخلاق والتقاليد ليست قيمة ذاتية قائمة بذاتها وإنما هى مجرد انعكاس للوضع الاجتماعى والاقتصادى القائم فى المجتمع . وفوق ذلك وأهم من ذلك أنها ليست ثابتة . فهى تتغير كلما تغيرت وسائل الإنتاج . بل فوق ذلك وأهم من ذلك أن الإنسان ذاته متغير . ليس ثمت كيان ثابت اسمه الإنسان . ليست هناك غرائز ولا دوافع فطرية . الإنسان هو انعكاس البيئة ، لا فى مفاهيمه وعقائده وعاداته فحسب، بل فى كيانه النفسى الداخلى كذلك . كل جزء من نفسه قابل

للتغير . علاقاته الفردية والاجتماعية والجنسية .. والملكية والزواج والأسرة .. كل شيء .. كل شيء يمكن أن يتغير . وليس لأى شيء مقياس يقاس به إلا درجة تكيفه مع بيئته .. ومن ثم فالمقياس الثابت غير موجود .

* * *

ولم تكن الموجة العنيفة التى أحدثتها نظرة داروين قد هدأت بعد ، بل لم تكن قد بلغت آخر مداها حين ظهر « فرويد » .

ولد فرويد سنة ١٨٥٦ .. أى بعد داروين بما يقرب من نصف قرن .

وبصرف النظر عن مدى إخلاصه لعلمه أو إخلاصه ليهوديته (١) فقد تأثر تأثراً كبيراً بالنظرة الداروينية للإنسان ، وكان فى الواقع امتدادا قويا لها فى مجال الدراسة النفسية ، وعلم النفس التحليلى .

جاء فرويد يفسر السلوك البشرى على أساس حيوانية الإنسان المطلقة التى لاظل فيها « لإنسانية » هذا الإنسان أو رفعته وتميزه . جاء يقول : إن « الجنس » بمعناه الحيوانى الخالص ، بمعناه الحسى الشهوانى ، بمعنى حركات الجسد ومشاعر الجسد ، هو المحرك الأول والدافع الأصيل لكيان البشرية .

الجنس هو كل شيء وكل شيء نابع من الجنس .

الطفل يرضع ثدى أمه بلذة جنسية . ويتبول ويتبرز بلذة جنسية

---

(١) انظر بالتفصيل فصل فرويد فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

ويحرك عضلاته بلذة جنسية . . ويرتبط بأمه بشعور جنسي (كما ترتبط الطفلة الأنثى بأبيها بشعور جنسي) ويظل هذا الشعور الجنسي نحو الأم (أو الأب في حالة الأنثى) ينمو مع نمو الطفل حتى يحدث العقدة الأولى في حياته ، عقدة أوديب (أو عقدة إلكترا عند الطفلة الأنثى) التي تنشأ من صراع الطفل بين هذا العشق الجنسي للأم وبين سيطرة الأب الجنسية على الأم (أو العكس في حالة الأنثى) وتظل هذه العقدة تعمل في نفس الطفل وتعذبه حتى يتخلص منها بطريقة ما . . يتخلص منها بطريق الكبت من جهة ، والتلبس بشخصية الوالد من جهة ثانية .

وحين يكبت الطفل شعوره الجنسي نحو أمه ، وحين يأخذ — في لا شعوره — مكان الوالد ويتلبس بشخصيته ، يأخذ في النمو النفساني ، ويبدأ يتولى بنفسه كبت مشاعره الداخلية ، ويفرض على نفسه الأوامر والنواهي التي يمتصها من المجتمع المحيط به ، ويتحكم تدريجياً في سلوكه . ويعبر فرويد عن ذلك بنشأة « الذات العليا » أو نشأة الضمير . ولكن هذه العملية فيما يقول فرويد عملية خطرة ، حتى مع لزومها للنضوج النفساني للطفل [1] لأن الكبت الجنسي المصاحب لعقدة « أوديب » يحدث آثاراً ضارة في النفس الإنسانية ، إذ هو

---

(١) قال في كتابه Three contributions to the sexual theory ص ٨٢ : « وهكذا يحصل الإنسان على قوة نفسية كبيرة من استعداد نفسي هو في ذاته خطير » .

يقف فى طريق القوة الحيوية المتدفقة وينشىء لها السدود والقيود ، فتؤدى إلى انحرافات نفسية وعقد مرضية واضطرابات عصبية ، تدمر الكيان البشرى فى النهاية .

وهذا التفسير الجنسى للسلوك البشرى ليس تفسيراً للسلوك الفردى وحده ، وإنما هو كذلك محور الحياة الاجتماعية كلها منذ بدء " التاريخ " البشرى حتى اليوم ، يشمل الفرد والأسرة والقبيلة والعشيرة والجماعة والمجتمع كله ، كما يشمل الدين والأخلاق والتقاليد والفن والفكر والفلسفة .. وكل نشاط البشرية .

كان دارون قد قال : إنه فى عالم البقر تنطلق الثيران الفتية الشابة تريد أن تنزو على أمها فتمنعها سيطرة الأب المسيطر على القطيع . فتنشب معركة حامية بين تلك الثيران الفتية والأب الشيخ يتكتل فيها الأبناء كلهم ضد أبيهم حتى يقتلوه . ثم يقتتلون فيما بينهم ، كل منهم يريد أن يستخلص الأم لنفسه ، فيموت الضعاف فى المعركة ، أو ينعزلوا ، ويبقى ثور واحد فتى يستولى على الأم ويصبح هو قائد القطيع

وجاء فرويد ينقل عن دارون هذه القصة ، ولكنه ينقلها من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان متأثراً كما قلنا بالنظرة الحيوانية للإنسان ، وينزع القداسة التى كان يضفيها عليه من قبل تفرده وتميزه عن عالم الحيوان .

جاء يقول : إنه حدث فى البشرية الأولى ما يحدث فى عالم البقر .

فى عالم الحيوان .

أحس الأبناء برغبة جنسية نحو أمهم التى ولدتهم ، ولكن سطوة الأب كانت تمنعهم من هذه الشهوة العنيفة . فتآمر الأولاد على قتل أبيهم ليتخلصوا من سطوته ويستأثروا بأمهم . . ونفذ الأولاد ما تآمروا عليه .

ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى أحسوا بالندم ، وتملكهم الشعور بالخطيئة ، فصمموا على تقديس ذكرى أبيهم الذى قتلوه ، وبذلك بدأت عبادة الأب

ثم امتزج شخص الأب فى شعورهم ببعض أنواع الحيوان — وتلك عملية نفسية يقول فرويد إنها طبيعية — فقدسوا هذه الحيوانات ومنعوا قتلها ، وذلك تكفيراً عن قتل أبيهم ورغبة فى تقديس ذكراه . وبذلك نشأت الديانة الطوطمية .

ثم يقول فرويد : « وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها ، والوسائل التى تطبقها ، ولكنها جميعاً تهدف إلى شىء واحد وهى رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة ،

والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة [1] » .

هذا عن الدين .

أما الأخلاق فيقول عنها : « إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية [2] » .

وأما الحضارة ففى كتاب (The Ego & The Id) ص ٨٥ يتحدث عن : « التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية » .

وفى كتبه الأخرى كلها التى تضيق هـذه الجولة السريعة عن استقصائها [3] يروح يُرجع كل لون من ألوان النشاط البشرى إلى أصله الجنسى فى نظره ، ثم يشرح التعارض بين التنظيمات الاجتماعية كلها ، وبين ما يسميه « النمو الحر للطاقة الجنسية » .

ونحن هنا لا نناقش الآراء وإنما نستعرض التاريخ .

وقد فعلت هذه الموجة العاتية فعلها ، وانتشرت كالنار فى الهشيم . انتشرت تحطم الدين والأخلاق والتقاليد ، وتلوث كل تراث البشرية .

هذا هو الإنسان — كما يرسمه فرويد — عريان . . . عريان

(١) كتاب « Totem and Taboo » ص ١٥٤ .
(٢) كتاب « The Ego and the Id » ص ٨٠ .
(٣) انظر بالتفصيل كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

من كل خلق ومن كل دين ومن كل شعور نظيف . والملابس التي تخفي عوراته الحسية وعوراته النفسية والمعنوية ، كلها ستار زائف لا يمثل حقيقة ولا قيمة من القيم الجديرة بالاعتبار . . . إنها كبت . إنها باطل . إنها عوائق تعوق « النمو الحر للطاقة الجنسية » إنها أغلال . . . والحقيقة الوحيدة الجديرة بالاعتبار ، الحقيقة الوحيدة التي كل ما عداها زائف وباطل ينبغي أن يزول . . هذه الحقيقة هي الجنس . هي الحيوان العريان .

وقد حدث شيء شبيه بما حدث مع دارون من قبل . . . فقد وقفت الجماهير أول الأمر موقف الخصومة من فرويد ، وهاجمته في عنف . . . وقفت — إلى حد ما — في صف عقيدتها الدينية « التقليدية » التي لم تكن بعيدة الغور في واقع الأمر ، ولا كانت عقيدة واعية . . . ووقفت في صف أخلاقها التقليدية كذلك التي لم تكن في الحقيقة عقيدة يؤمن بها الناس عن اقتناع ووعي . ووقفت بشدة في صف الصورة « الإنسانية » التي تتصورها عن نفسها ، وتعتز بها أيما اعتزاز ، والتي جاء فرويد ليجرحها ويلوثها ، ويضفي عليها قذارة الحيوان .

ولكن موقف الجماهير بعد ذلك تغير .

لقد تلقف الشباب خاصة تعاليم فرويد وتشبثوا بها تشبثاً ، وراحوا يوسعون رقعتها في كل اتجاه .

عقيدة الحياة الشاملة للنشاط كله ولجميع الأهداف..

ومن ثم كانت عباداته منظوراً فيها إلى التدريب بمعناه الواسع. التدريب على الحياة. وذلك فضلا على ربط القلوب بالله، وهو كما رأينا الضمان الأكبر لنظافة الحياة.

ومن ثم كذلك اتسع معنى العبادة فى الإسلام حتى شمل كل عمل يأتيه الإنسان وهو متوجه به إلى الله (١).

* * *

ويقولون لك إن كثيراً ممن يقومون بتكاليف العقيدة بل يتنطعون فيها، هم فى حياتهم الخاصة من الفساق الذين لا ذمة لهم ولا ضمير، أو من الجبناء الذين يهربون من الكفاح، أو من الذين يقول القرآن فيهم: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة».. أىّ حياة!

نعم! ذلك حق!

فكثير من الناس منافقون ومخادعون، وكثير منهم منحرفون عن سواء السبيل. لا تؤتى التربية فى نفوسهم ثمارها المنظورة.

ولكن هل يعنى ذلك أن نلغى العقيدة من حياتنا، أو نلغى تكاليفها الظاهرة ونكتفى بها كامنة فى الضمير؟!

كلا! فالمنافقون فى كل مكان على الأرض. فى كل مذهب وكل فكرة. فى الشيوعية والديمقراطية والملكية والجمهورية! ومع ذلك لا نلغى الأفكار والمذاهب من أجل أولئك المنافقين والمنحرفين وهم الكثرة الغالبة فى البشرية!

وكذلك لا نلغى العقيدة أو نهمل مراسمها وتكاليفها من أجل المنحرفين والمنافقين! وإنما يظل بابها مفتوحاً لكل فرد فى كل جيل، ليتطهّر، ويرتفع، ويرفع معه من يستطيع من أفراد البشرية.

ولا ضير على البشرية من الملايين الزائغة حين يهتدى المئات والألوف. فهؤلاء هم الذين يكافحون حقاً، ثم يمسكون فى أيديهم الزمام!

---

(١) انظر فصل «العبادات الإسلامية».

العِلمُ وَحِيرةُ البشريّة

قسم فرويد تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل ، عصر الخرافة ، وعصر التدين ، وعصر العلم .

ثم حمد الله كثيراً ، أو حمد الشيطان ، على أننا تخلصنا من المرحلتين الأوليين إلى الأبد ، ودخلنا المرحلة الثالثة التي يظللنا فيها العلم ، وتتفتح لنا أضواء المعرفة فتنير لنا الطريق .

وحمد الله مثله أو حمد الشيطان مئات الملايين من الأحياء اليوم على ظهر الأرض في الغرب « المتحضر » والشرق « المتأخر » سواء . وانطلقوا ينسلخون من الدين ، وينفلتون من ذلك القيد الذي قيدتهم به جهالة الأزمان الغابرة ، ولم يعد يليق اليوم بكرامة العقل البشري الجبار أن يظل مقيداً به ، وقد وصل إلى أسرار المعرفة ، وحطم الذرة ، وأطلق طاقتها لتحدث الفناء المدمر الرهيب !

وقد أشرت في كتاب « شبهات حول الإسلام » إلى الرواسب اللاشعورية التي رسبت في نفوس الأوربيين من عهد اليونان القديمة ، والتي كانت تمثل الحياة صراعا جباراً بين الآلهة والعباقرة من البشر ، يحاول الآلهة أن يكبتوا أولئك العباقرة ، وهؤلاء يحاولون أن يغتصبوا من الآلهة أسباب القوة والمعرفة والنجاح . وقلت إن هذه الرواسب جعلت الأوربيين يحسون أن الضعف ـ وحده ـ هو الذي يخضعهم لله ، فإذا تقووا ، إذا وصلوا إلى أسرار المعرفة ، فلم يعد للإله كلمة عليهم وصاروا هم في نهاية المطاف آلهة !!

لذلك تطغيهم المعرفة ، وتبعدهم عن طريق الله : « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » بدلا من أن يهديهم المنطق السليم إلى القوة المعجزة وراء العلوم والأسرار . ولكن أوربا إذ نبذت إلهها قد أصبحت كما قال سمرست موم في قلق دائم لا تستقر [1] .

(١) أشرنا إلى قولته هذه في فصل « العلم والعقيدة » .

وليست حيرتها ناشئة من تقلب العلم بين النفى والإثبات كما أشار سومرست موم فحسب ، بل إن تقدم العلوم ذاته قد أنشأ حيرة جديدة !

* * *

كان الناس فى عهد الخرافة يفسرون الحياة كلها بمجاهيل .

البرق إله ، والمطر إله ، والظلام إله ، والنور إله ، وبعض الحيوانات المرهوبة آلهة . وبعض البشر المزوّدون بقوى خارقة آلهة أو متصلون بالآلهة يتلقون عنهم أسرار الحياة .

وكان الكون ذا طبيعة « تليپاثية » على حدّ تعبير فرويد وبعض علماء الاجتماع ، أى أن الإنسان كان يعتقد أنه حين يفكر فى شىء أو شخص فإنه يتصل به مباشرة بصرف النظر عن الحواجز والأبعاد ، وأنه إذا أراد أن يوصل إليه خيرا أو يلحقه بضرر فما عليه إلا أن ينوى ذلك ، أو يقوم بحركات تمثل هذا الخير أو الشر ، أو ترمز إليه ، ثم يتوجه بها ـ فى خاطره ـ إلى من يريد إيصالها إليه ، فتصل بمجرد النية أو العزيمة . ومن هنا كان السحر ، وكانت الرموز التى تستعمل فيه . فإذا اغتاظ إنسان من عدوه فليصنع دمية تمثله ، ثم ليطعن الدمية بالسيف ، فإن السيف لن يقتل الدمية وحدها ، ولكن مفعوله السحرى سيصل كذلك ـ فى ذات الوقت ـ إلى العدو الأصيل . وإذا عبد إلها ، وأراد أن يتقرب إليه بالقرابين ، فليقم له تمثالا وليضع القرابين عنده ، فإنها ستصل إلى الإله المرموز له بالصنم المعبود .

ثم ارتقى الناس فى عهد التدين فعرفوا أن هناك إلها خالقا هو الذى خلق الناس والأشياء ، وأن قوى الطبيعة ليست آلهة متعددة ، وإنما هى مظاهر مختلفة لقوة الله الواحد ، تخضع لمشيئته ، وهو الذى يسيّرها وفق القانون الذى ارتضاه

وكان العلم قمينا أن يستمر فى تقدمه فى ظل هذه العقيدة .

ولكن ظروفا محلية فى أوربا أفسدت العلاقة بين الدين والعلم . وأوجدت

بينهما النفور والشقاق . ذلك حين تدخلت الكنيسة فيما لا يعنيها ، وفرضت لنفسها رقابة على أفكار الناس وعقولهم . وقامت تحرق العلماء وتعذبهم حين يصلون إلى بعض نظريات العلم وحقائقه ، كما حدث لكوبرنيكوس ، وجاليليو ، وغيرهما من العلماء .

عند ذلك نشأ جيل من العلماء يعادى الكنيسة ، ويكره الدين ، ويظن أن الحقائق العلمية تسير فى خط مضاد للفكرة الدينية بحيث لا يمكن أن يوجدا معا فى نفس الإنسان ولا فى واقع الحياة . وأنه إما الدين وأما العلم . إما الدين فى صورته البشعة التى تمثلها الكنيسة : تحرق وتعذب ، وتفرض الإتاوات ، وتلاحق الناس بالشر حيثما ذهبوا ، وإما العلم الذى لا يخضع لسيطرة بشر ، وليست له كذلك قيود يفرضها على البشر ، وإنما هو يبحث ويجرب ، ويحدث الناس بما وصل إليه البحث والتجريب ، ويهدف ـ فيما يهدف إليه ـ إلى منفعة الناس : يوفر عليهم الجهد البدنى ، ويقيهم المرض والأخطار .

ولم يكن ثمة مجال للتردد حين توضع المسألة على هذا النحو . .

واختار الناس العلم ونبذوا الدين والكنيسة . . والله .

وزاد الأمر سوءاً أن هذه الأزمة الفكرية الروحية لم تكن قد هدأت بعد حين أضيفت إليها أزمة أخرى اجتماعية واقتصادية نشأت من الثورة الصناعية بعد اختراع الآلة .

لقد تحطم الإقطاع فى غرب أوربا ونشأت الرأسمالية . وكانت فى بدء عهدها نوراً جديداً يبشر بالخير ، ولكن سرعان ما تحولت إلى استغلال منكر يمتص دماء العمال ليزيد فى الثراء الفاجر يتكدس فى يد الرأسماليين . أما فى شرق أوربا فقد بقى الإقطاع فى أبشع صورة وعاها له التاريخ .

وثارت الطبقة الكادحة فى الشرق والغرب . فقام رجال الدين يهددونهم بغضب الله ! غضب الله لأنهم يقاومون ظلماً ما أنزل الله به من سلطان . . !

وكفر الناس . . . وحق لهم أن يكفروا . كفروا بكل القيم الأرضية والسماوية . كفروا بالدين والكنيسة فوق كفرهم السابق . وتطلعوا إلى الإله الجديد لعله ينقذهم مما هم فيه من هوان .

وأحس الأوربيون أنهم دخلوا فى مرحلة ثالثة من تاريخهم. هى مرحلة العلم.

* * *

ومضى العلم فى طريقه قدماً يحقق ما يشبه المعجزات . . .

إن الناس ليفركون عيونهم من العجب فى بادئ الأمر، ولا يكادون يصدقون. ولكن حقائق العلم لا تدع لهم سبيلا إلى التشكك . وكيف يتشككون وهم يرون أمامهم القطار والسيارة والآلة الضخمة . . ثم يرون الكهرباء تنير منازلهم وشوارعهم وتدير المصانع والآلات .. ثم يجدون الراديو يعمل بلاسلك والصور تنقل بالتليفزيون بعد أن كان التليفون البسيط من قبل معجزة لا تحتمل التصديق؟!

وقال لهم العلماء : هلم أيها الناس إلى الإله الجديد . هلموا اتركوا خيالات الماضى المبهمة التى تحدثكم عن أمور لا تستطيع حواسكم أن تدركها ، ولا يمكن أن تدخل فى نطاق تجاربكم . هلموا اتركوا الدين الذى يفسر لكم الأشياء بإرادة الله - وهى لا تفسر شيئاً ! - وتعالوا إلى العلم الذى يفسر لكم كل شىء بقوانين مفهومة يدركها العقل ويستطيع أن يتبين فيها الخطأ والصواب .

يحدثونكم عن الله الذى أنشأ كل شىء من العدم . . هل يمكن عقلا أن ينشأ شىء من لا شىء ؟ ! إن الخلية الحية الأولى لم تنشأ من العدم .. والحياة التى دبت فيها إنما هى عملية كيميائية طبيعية تمت فى ظروف تاريخية معينة لم تتكرر مرة أخرى . لماذا ؟ أوه !! لا تهتموا بهذه الأسئلة التى لا مدلول لها فى واقع الحياة واصرفوا نشاطكم فيما هو أفيد لكم وأنفع !!

ولقد ربطوا لكم بفكرة الله مجموعة من الخرافات التى لا تخضع لمنطق العلم . يحدثوكم عن النبوات والمعجزات . ما معنى أن « يُبعث » نبي ؟ وما معنى أن ينزل

عليه «وحى» ؟ كيف يتم هذا الإيحاء ؟ هل هذا معقول ؟ إنها «تهيؤات» لا أكثر ولا أقل . . . وهذه المعجزات !؟ لا يمكن ! إن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تخرق أبدا . . لا يمكن أن ينشق البحر . ولا . . ولا . .

ويحدثونكم عن الروح . ما الروح ؟ كيف تثبتون وجودها إثباتا علميا ؟ ما الدور الذى تقوم به فى واقع الأشياء ؟ هل تجعل المواد تتمدد كما تصنع الحرارة ، أو تتقلص كما تصنع البرودة ؟ هل تنعكس على المرايا ، أو الألواح الحساسة كالضوء والأشعة السينية وما إليها ؟

ويحدثونكم عن العالم الآخر . ما هو ؟ هل رأيتموه ؟ هل يمكن أن يدخل فى تصوركم ؟ هل يمكن تصويره بالكاميرا ؟ أو التحسس عليه بالرادار ؟

خرافات . . . كلها خرافات أيها البشر . . لا تشغلوا بها عقولكم . ووجهوا تفكيركم إلى النشاط العملى الذى ينتج ويفيد !

* * *

ونصرف النظر مؤقتا عن أن هذه الملابسات المحلية وحدها هى التى أوجدت الفرقة بين الدين والعلم ، وأنه لو أتيحت لأوروبا فكرة أخرى ـ كالفكرة الإسلامية ـ لا تعادى العلم والعلماء ، ونظام اجتماعى واقتصادى عادل ـ كالنظام الإسلامى ـ يحرّم تركيز الأموال فى يد فئة قليلة من الأمة ، ويجعل الربح شركة بين العامل وصاحب العمل ، ويكفل لكل فرد حياة نظيفة تتهيأ فيها المطالب الأساسية للإنسان ، ويجعل الدولة مسئولة عن أقوات الناس وصحتهم وحرماتهم وكراماتهم . . .

لو أتيحت للناس فى أوروبا هذه الفكرة وهذا النظام لأمكن أن يسير العلم سيرة سوية فى ظلال العقيدة ، لا يصادمها ولا يحتاج إلى معاداتها .

نصرف النظر عن ذلك مؤقتا ، لنسير مع العلم فى خطواته الجبارة . .

* * *

كانت قضية العلم الأولى أن ينقذ الناس من الغموض والإبهام الذى يصاحب العقائد! ينقذهم من المجاهيل التى لا تقبل التفسير . ويعطيهم « معلومات » معلومات ثابتة يقوم عليها البرهان المادى المحسوس .

وفى وسط الحيرة والفزع اللذين سادا أوروبا فى القرون الوسطى ، لأسباب مختلفة كانت الكنيسة واحدا منها ، بدا للناس أن العلم مخلص حقيق من الحيرة والاضطراب .

واطمأنوا إلى أنهم يقفون على أرض صلبة لا تهتز تحت أرجلهم . أرض العلم . أرض الأبحاث التجريبية التى لا تخطىء . ولا يمكن أن تخطىء .

وتنازلوا فى سبيل هذه الطمأنينة عن حاجتهم البشرية الطبيعية إلى العقيدة ، والاتصال بالله ، والاستعانة بقوته فى صراع الأرض الجبار . خاصة والله ـ كما صورته لهم الكنيسة ـ يبلبل أفكارهم بقضية التثليث ، ولا يسعفهم فى صراع الأرض لأنه يقول لهم : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن أراد أن يأخذ رداءك فأعط له الثوب أيضاً » .

ومضى العلم فى خطواته المرسومة يفتح كل يوم عالما جديدا من المجهول . ووصل إلى ميادين لم يكن يتصور أحد أو يصدق أنه يستطيع أن يصل إليها . فى أغوار السماء وأغوار الأرض . . وأغوار النفس البشرية .

وملأت البهرة والإعجاب قلوب الناس بهذا الإله الجديد الجبار . . . الإله المفهوم . الذى يمكن إدراكه بالحواس ، وقياسه بالآلات ، وحسابه بالأرقام !

ولكن الفرحة الغامرة لم تدم طويلا فى نفوس الأوربيين !

وجاء اليوم الذى ناقض العلم فيه نظرياته « الثابتة » التى لا تقبل الجدال .

كان كشف نيوتن لقوانين الجاذبية معجزة لا يفرق بينها وبين معجزات الأنبياء « الموهومة ! » إلا أنها داخلة فى نطاق المعقول ، قابلة للحساب الدقيق .

ثم . .

جاء إينشتين ليقول إن قوانين نيوتن محلية بحتة . لا تفسر إلا هباءة صغيرة من كيان هذا الكون . وإنها تؤدى إلى نتائج خاطئة حين تطبق على الكون الكبير.

وقال علماء الطبيعة إن الضوء ينطلق دائماً فى خط مستقيم . .

ثم عاد علماء الطبيعة يقولون إن الضوء ينحرف بتأثير الجاذبية فلا ينطلق فى خط مستقيم !

وقالوا إن الزمن حقيقة مطلقة . .

ثم عادوا يقولون إن الزمن حقيقة نسبية . وإن الشىء الواحد أو الحدث الواحد يكون حاضرا بالنسبة لك فى هذا الكوكب ، وماضياً بالنسبة لكوكب آخر ، ومستقبلا بالنسبة لكوكب ثالث !

وقال الكيمائيون إن العناصر والمركبات تسلك سلوكا واحـــدا فى جميع الظروف المتماثلة .

ثم عاد الكيمائيون يقولون إن بعض العناصر والمركبات المنتجة فى المعمل تسلك سلوكا مخالفا للمتوقع منها حسب « حتمية » القوانين الطبيعية !

وقال الأطباء : لا تأكلوا إذا مرضتم بالمرض الفلانى واكتفوا بالسوائل لأن الأكل فى هذه الحالة خطر محقق على الصحة .

ثم عاد الأطباء يقولون : كلوا إذا مرضتم بهذا المرض . فالأكل إحدى وسائل الشفاء !

وبدأت الحيرة التى أشار إليها سومرست موم .

ولكنها لم تكن الحيرة الوحيدة . .

لقد كانت الحيرة العظمى هى ما نتج عن أخطر فتح فى ميدان العلم الحديث : تفجير الذرة !

كان العلماء قد قالوا للناس إن « المادة » هى أساس الحياة والكون . حتى لقد وصلوا فى ذلك إلى حد الانحراف والتهوس . إلى حد تفسير كل شىء فى نطاق

المادة . ولو كانت النفس الإنسانية هى موضوع التفسير ! وإلى حد نكران كل ماليس بمادة . فأنكروا الروح لغيرشيء سوى أنها ليست مادة ترى أو تحس !

كانوا يقولون : هذه هى « الحقيقة » . حقيقة ملموسة واضحة المعالم والحدود . حقيقة لا غيبيات فيها ، ولا إبهام ولا غموض . حقيقة لا تلجئنا لقوة أخرى خفية لا نراها ، ولا تدركها الحواس .

وفجأة . اهتزت الأرض الصلبة ، وزلزلت زلزالا شديدا ، وتناثرت سحب الغبار تملأ الآفاق ، وتسد طريق النور . .

وانتظر الناس . انتظر العلماء حتى يهدأ الغبار الثائر وتستقر الأرض من زلزالها العنيف .

ونظروا . . . فإذا الأرض الصلبة التى يقفون عليها قد انداحت من تحت أرجلهم ، وإذا هم معلقون فى الفضاء . . فوق السحب الضالة التى دفعتها قوة الانفجار فى طريق غير محدود !

« المادة » لم تعد مادة !

لقد انفجرت وانطلقت فإذا هى « طاقة » !

ووقعت الحيرة الكبرى . إن كل حقائق العلم السابقة عرضة للتغير على هذا الأساس الجديد : وهو أن الكون كله والحياة كلها طاقة . وأنه ليس ثمة مادة إلا للنظرة السطحية التى لا ترى غير ظواهر الأشياء . وأن الفواصل بين المادى وغير المادى أصبحت غير ذات موضوع !

وانطلقت السحابة الشاردة فى دفعة من دفعات الانفجار العنيف ، فانتقلت فجأة من ميدان « الطبيعة » إلى « ماوراء الطبيعة » . وإذا الفرق بينهما ليس بالضخامة التى تخيلها العلماء وهم يعيشون فى عالم المادة ! ويحسبون أن هناك فارقا جوهريا بين المادة المحسوسة والضوء المنطلق فى الفضاء والطاقة التى لا تراها العيون

وزلزلت الأرض كرة أخرى ، فإذا العلماء فى حيرة كبرى . .

« الحقائق » التي توصلوا إليها من قبل .. ما هي اليوم في ضوء الحقائق الذرية؟
« والمعرفة » التي عرفوها . . ما نصيبها اليوم من المقدرة على تفسير الأشياء ؟
ما هذه الطاقة ؟ ما سرها ؟ ما كنهها ؟ ما حقيقتها ؟
يستطيع العلم أن يشهد ظواهرها ويسجل مظاهرها ، ولكن « هي » في جوهرها . ما هي ؟

كان الناس والعلماء قد استقروا حين حسبوا أنفسهم وصلوا إلى حقيقة الكون أو حقيقة المادة . فما الحقيقة اليوم في العصر الذرى الجديد ؟ أهي « معلوم » يعلمه الناس ويستطيعون أن يلموا بجوهره ؟ أم « مجهول » خفى لا تُشهد إلا مظاهره الخارجية ، وتظل حقيقته عميقة في أغوار المجهول لا تصل إليها العقول؟
قصة الصبي الذى أعطى مفتاح القصر المسحور... ففتحه غرفة غرفة ، وبهره ما لقيه هناك من عجائب وأسرار ، كل غرفة تحوى أشياء أعجب من سابقتها . حتى وصل إلى الغرفة الأخيرة ، وهناك قرأ تحذيراً من الدخول! ولكنه لا يتردد إلا هنيهة . إنه يريد أن يزداد معرفة وعلماً . وماذا يخشى اليوم وقد تمرس بكل أنواع المعلومات في الغرف السابقة؟
وأخيراً أقدم وفتح الباب المحظور . .
وهناك . . تقول القصة إنه وجد ما أذهله عن معرفته السابقة ، وأنساه كل العالم المنظور ، وغاب في الملكوت !

* * *

لقد أدرك العلمــــاء اليوم أنهم ضللوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون تفسير كل شيء في الكون بقانون مفهوم !
أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة!
وأن العصر الذهبي للعلم - في نظرهم - العصر الذى سيطر فيه الإله الجديد يجعل يثبت ما يدخل في إدراكه وينفى مالا يقع في نطاقه . .

هذا العصر كان عصر الخرافة الكبرى !

وأن الخرافة التي سيطرت على عقول البشرية في فجر التاريخ ـ قبل عصر التدين ـ لم تكن الخرافة الوحيدة في تاريخها. وأن الخرافة الجديدة ـ التي تزعم أن العلم يفسر وحده كل شيء ـ ربما كانت أخطر من الأولى وأخبث في إفساد المدركات، وإفساد العلاقات بين البشر، لأنها تعطل ـ أو تسقط من حسابها ـ جوانب من الكون ومن النفس البشرية، ربما كانت أعمق وأفضل «وأنفع» للناس من كل ما يقع في نطاق المعلوم !

وبدأ هؤلاء العلماء ـ بعضهم على الأقل ـ يكفّرون عن خطيئتهم السابقة في تضليل البشرية، وجرها إلى خرافة أخطر على كيانها من خرافة ما قبل التاريخ.

بدأوا يقولون للناس. نحن لا نعلم ! وما أوتينا من العلم إلا قليلا !

بدأوا يقولون لهم: إن هذا المارد البشري الجبار، الذي استطال في الأرض وحسب أنه قادر على كل شيء، قد تضاءل فجأة. تضاءل بشدة، حين فتح بابه الغرفة المحظورة، فانفتحت أمامه كوة على المجهول !

وكما خرج الناس من الخرافة الأولى إلى النور الحق الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويفتح مغاليق النفس لتتصل بالقوة الكبرى، فتدرك ببصيرتها ما تعجز عن إدراكه بأفهامها..

كذلك يخرج العلماء واحداً تلو الآخر من الخرافة الثانية ـ خرافة أن العلم يفسر كل شيء ـ فيدخلون إلى النور الحق.. نور العقيدة المشرق المضيء.

العقيدة ـ فيما يظهر ـ هي الملجأ الوحيد من الخرافة. هي النور الوحيد الذي يكشف المجهول.

قال جيمس جينز، العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحداً شاكا: إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله.

وقال ألدوس هكسلي، العالم الطبيعي والفيلسوف الأديب: إنه لم يعد لنا

مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزودون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس. وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له . فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة التذكر؟ أو الإدراك؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية . .
ثم استشهد فى نهاية مقاله بالدكتور راين أحد العلماء المشتغلين فى هذه الأبحاث ، حيث قال : إن هذه الحقائق تدخلنا رويدا رويدا إلى عالم الدين ! !

وقال ا . كريسى موريسون، رئيس الأكاديمية الأمريكية للعلوم بنيويورك فى كتابه «العلم يدعو للإيمان (الإنسان لا يقوم وحده Man does not stand alone):
« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الضخمة لذكائه ، إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .

« إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم فى كل وحدة من وحدات العلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون – التى كانت تعد أصغر قالب فى بناء الكون – إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادى . وإن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم لتفتح مجالا للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة » .
والبقية ما تزال فى الطريق . . .

ولن يكون الهدف هو القضاء على العلم ولا نبذ النتائج العلمية التى توصل إليها ، والتى تحقق كثيراً من الخير . وإنما الهدف تصحيح الأوضاع فى الأرض وإطلاق العلم فى طريقه السوى فى ظلال العقيدة .

ولكن «الناس» لا يريدون بعد أن يصدقوا ! لا يريدون أن يخرجوا من عالم

الخرافة الذى يعيشون فيه ! وتعز عليهم معبوداتهم التى يحسبونها حقيقة ويأنسون إليها كما كانوا يأنسون من قبل إلى الأصنام والأوثان !

وتبدو لهم العقيدة أمراً عجيباً بعيداً عن التصديق ! كيف يتركون الصنم المحسوس الذى يرونه رأى العين ، ليعبدوا إلها بعيداً عن أنظارهم لا تتبدى ذاته للحس القريب ؟

ولكن النتيجة الأخيرة ليست موضع ارتياب .

فسوف يتبع الناس أنبياءهم المحدثين ـ علماء اليوم ـ وهم يدخلون بهم إلى الساحة الكبرى التى يغمرها النور . . النور الحق . . نور العقيدة المشرق المضىء . وإلا فسوف يظل الشيطان يضللهم كما ضللهم من قبل ، ويدفع بهم إلى الحيرة والاضطراب .

الصراع

هل الصراع ضرورة بشرية ؟ بحيث لو خلت منه النفس الإنسانية والحياة البشرية لنقصت كل منهما عنصراً أساسياً فى كيانها ؟ أم هو مرض يصيب النفس والمجتمع، ونشاط ضار كالأورام الخبيثة التى تصيب الجسم فتفسد كيانه، وتقضى عليه فى النهاية ؟

يحلم الشيوعيون بعالم خلا من الصراع .

ومن قبل كانت « اليوتوبيات » ـ أو العوالم المثالية الخيالية ـ تحلم هذا الحلم، وترسم له صوراً مبدعة من صنع الخيال . .

ولكن الصراع مع ذلك حقيقة !

وأنا أحسب أنه قائم فى طبيعة الكون كله، وليس فى طبيعة الإنسان فحسب. انظر إلى الأفلاك كلها فى الكون العريض . . كل فلك يقع بين الشد والجذب لمجوعة من الأفلاك الأخرى ، وهو لا يأخذ مساره المنتظم المتوازن إلا بوجوده بين هذه الأفلاك ، وتعرضه لشدها وجذبها جميعاً ! قوة تجذب عن يمين وقوة تجذب عن شمال ، ثم ينتظم الكوكب فى مداره المرسوم . ولو بطل الشد والجذب لهوى الكوكب فى الفضاء إلى حيث لا يعلم أحد ، ولا يستطيع أن يتصور أحد !

كل ما هناك أن هذا الشد والجذب قائم بمقدار ، حسبما قدرته القوة المعجزة التى أنشأت هذا الكون من العدم ، والتى تدبر أمره وتشرف عليه . وهدفه المرسوم هو إيجاد التوازن فى الكون، وليس هدفه الإفناء والتحطيم . فكل كوكب يتعرض منه للقدر الذى يحفظ توازنه فى النهاية ، ولا يعرضه للتناثر والتفكك ، إلا حين تكون تلك هى المشيئة العليا للقوة التى تدبر أمر هذا الكون العريض .

ثم أنظر إلى الحياة على الأرض . .

إنها مثل من أمثلة الصراع الأزلى الدائم الذى لا يفتر ولا يضعف ولا يهن .

كل نبات له آفة . وكل حيوان له عـدو . .

والمد والجزر بين الفريقين دائمان متناوبان .

كل ما هناك أن حركة الصراع الدائمة بين هذه المتناقضات تهدف إلى إيجاد التوازن الدائم بين قوى الأرض ، فلا تطغى قوة على الأخرى ، ولا تنفرد وحدها بالسلطان !

وعالم الإنسان كذلك . . الصراع عنصر من عناصره الأصيلة ، وضرورة لا تستقيم بدونها الحياة .

ضرورة يشير إليها تركيب الإنسان ذاته من جسم وعقل وروح ، مختلفة المطالب متباينة الاتجاه .

وتشير إليها رغبات الإنسان التى لا تقف عند حد ، وطاقته المحدودة التى لا تستطيع تلبية الرغبات كلها ، سواء رغبات الجسد أو العقل أو الروح .

يشير إليها تطلع الإنسان الحسى والمعنوى إلى السماء ، إلى الطيران والتحليق، والجاذبية الحسية والمعنوية التى تثقله إلى الأرض ، وتشده إليها شداً .

يشير إليها اضطرار الإنسان إلى مقاومة كثير من الآفات والأمراض والقوى الطبيعية لكى يعيش ، فضلا عن أن يرتفع بحياته إلى حيث يرجو من الارتفاع .

ويشير إليها أخيراً وجود الشر فى الأرض كحقيقة واقعة ، واضطرار الخير أن يصارع الشر لكى يثبت وجوده ، فضلا عن الغلبة عليه فى نهاية المطاف .

* * *

ونبدأ بهذا العنصر الأخير .

هل أمكن فى الواقع العملى القضاء على الشر ومحوه من الوجود ؟

تلك هى الشيوعية التى زعمت أنها أممت وسائل الإنتاج لتبطل الصراع - الذى لا منشأ له فى زعمهم إلا السعي لتملك وسائل الإنتاج - تلك هى الشيوعية تتهم بريا

بالسعى إلى السلطان ، وتحاكمه وتعدمه ـ لثبوت التهمة فى نظرها ـ رغم أنه تربى فى ظل النظام الشيوعى وارتفع فى ظله من القاعدة إلى القمة .

وهذا هو ستالين ـ بعد أن مات ـ يُتهم فى روسيا بالدكتاتورية والطغيان ، والانحراف عن مبادىء الشيوعية ، والأثرة والأنانية ، وارتكاب الجرائم بلا وازع ولا ضمير !

فما معنى ذلك ؟

معناه أن إبطال الملكية الفردية لم يبطل نوازع الشر فى النفوس ، وأن هذه النوازع ـ فى بعض النفوس على الأقل ـ أعمق كثيراً من وسائل الإنتاج !

ولا نحتاج أن نذهب إلى المدى الذى ذهب إليه فرويد حين افترض أن بذرة الشر ـ مقترنة بعقدة أوديب ـ موجودة فى كل نفس .. كل نفس فى هذا الوجود .

ويكفينا أن نقول إن بعض النفوس أميل إلى الشر وأقدر عليه .

فماذا يصنع الخير إزاء هذا الشر الموجود ، إذا لم تكن له القدرة على الصراع ؟

من هنا نقول إن الصراع ضرورة بشرية . وعلى هذا النحو نفهم الآية التى تقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . أى لغلب الشر وأصبح هو المسيطر على الأرض .

نعم . ضرورة «بشرية» . مادام البشر هم هؤلاء البشر وحياتهم هى هذه الحياة . والخالق ـ سبحانه ـ قد زود مخلوقاته بضروراتها .

وما دام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع .

زودهم بها فى أجسامهم وعقولهم وأرواحهم ، وكيانهم كله .

فهو إذ أعطاهم أجساما تشتهى ، وعقولا تفكر وأرواحا تحلق ساعية إلى النور ، زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً . ولن يقوم التوفيق بينها إلا بشىء من الصراع . شىء من التدافع . حتى لنستطيع أن نقول : إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس .

ولنتصور إنسانا يسير فى خطه الجسدى إلى آخر مداه ، فينساق مع شهواته ويصبح فى النهاية عبدا لهذه الشهوات . هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الانسياق فى بنية المجتمع ؟ إن الشهوة لا تهدأ بإشباعها الدائم ، بل تصبح سعارا دائما لا ينقطع ، وعذابا دائما لا يستقر .

أو نتصور إنسانا يسير فى خطه الروحى إلى آخر مداه ، فيكبت نشاطه الحيوى ولا يسمح له بالوجود فى كيانه الواعى . هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الكبت فى وقف الحياة ـ وقف النسل ، ووقف عمارة الأرض ـ بوقف النشاط الجثمانى ؟ إن الكبت عذاب دائم لا يهدأ صاحبه ولا يستريح .

أو نتصوره سار مع عقله ومنطقه لا يستجيب لدفعات الجسد أو هواتف الروح . . إن الذهن ـ على ألمعيته ونشاطه الفائق فى محيطه الخاص ـ قوة بليدة لا تنفعل . وآلاف من الأعمال التى لا بد منها لتسيير دفة الحياة قد لا يسيغها منطق العقل ، خاصة حين يتجرد ويدخل فيما وراء الطبيعة ، وينكر حقائق الأشياء الظاهرة ويقول إنه ليس لها وجود مادى ! !

إنه لا بد من التوفيق بين هذه المتناقضات .

ولن يكون التوفيق بينها إلا بشد بعضها بعضا نحو نقطة التوازن فى منتصف الطريق . وتلك بذرة الصراع فى داخل النفس الإنسانية . وهى ضرورة لا يستقيم بدونها الكيان النفسى للبشر .

فإذا وسعنا الدائرة قليلا وجدنا فى النفس الواحدة بذرتين تنموان فى اتجاهين مختلفين . ففى نفس الإنسان كيانان متميزان : كيانه كفرد مستقل ، وكيانه كعضو فى جماعة . كلاهما أصيل فيه . وليس أحدهما مفروضا عليه من الخارج . فهذا الفرد الذى يحب ذاته : « إنه لحب الخير لشديد » ويحس أحيانا أن ذاته هذه هى محور الوجود كله وملء فراغه ، هو نفسه يضيق بذاته الفردية ، ويحس

كأنها سجن ينقبض عليه وتكاد تفتك به وحدته ، فيسعى إلى « الناس » إلى « المجتمع » ، فرارا من وحدته وأنسا بالآخرين .

هاتان بذرتان متناقضتان ، لو استجاب لإحداهما استجابة كاملة لقضت على الأخرى ، أى لقضى جزء من النفس على الجزء الآخر . ولا بد من التوفيق بينهما . ولن يكون التوفيق إلا بشد إحداهما للأخرى نحو نقطة التوازن فى منتصف الطريق .

ونخرج من النفس الواحدة إلى النفوس المتعددة ، فنجد شبيها لهذا التناقض وهذا الصراع . نجد تناقضاً بين نفوس الناس ومصالحهم وشتى اتجاهاتهم . تناقضاً لا بد من التوفيق بين جزئياته . ولن يكون التوفيق إلا بشىء من الصراع لرد القوى المتطرفة إلى نقطة التوازن فى منتصف الطريق .

الصراع إذن ضرورة .

وحكمة الخالق العليا قد اقتضت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها ، فجعلت بذرة الصراع موجودة فى داخل الكيان النفسى ما دامت ضرورية لواقع الحياة .

والفكرة الإسلامية تقر الصراع على هذا النحو : على أساس أنه ضرورة لازمة لمنع الفساد عن الأرض ، ولإيجاد التوازن فى الحياة البشرية . وأنه ـ لهذا السبب ـ موجود فى بنية النفس الإنسانية .

ولكن الفكرة الإسلامية فكرة متوازنة ، لا تشتط ولا تتطرف إلى أقصى اليسار أو أقصى اليمين .

فبينما تقوم الحضارة الغربية اليوم على الصراع الخالص : صراع بين الأفراد لا تحكمه إلا الضرورة ، وصراع بين الأمم لا تحكمه إلا غلبة السلاح .

وبينما تقوم الشيوعية على فكرة أن الصراع ذاته ينشىء الاضطراب فى المجتمع ، فلا بد من القضاء عليه لكى يستريح المجتمع ويستقر إلى الأبد (وإن كانت فى الواقع فى حاجة إلى صراع دائم للقضاء على نوازع الصراع ! ؟ . . .

فإن الإسلام لا يعتبر الصراع هدفاً فى ذاته . ولا يقر كذلك أنه هو بذاته الذى ينشىء القلق والاضطراب فى حياة البشرية .

الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات ، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشرى عن عالم الضرورة ، وعن وهدة الشر، إلى حيث يستطيع أن يحلق ـ سوياً متوازناً ـ فى عالم النور .

وهو لهذا يوازن عنصر الصراع فى داخل النفس ،
يوازنه أولا بعنصر الحب .

فلو أن الصراع نبت وحده فى داخل النفس ـ وهو طاقة طبيعية تنشأ نشوءاً ذاتياً كما أسلفنا ـ فلن يؤدى غير مهمة واحدة ، هى الكراهية والنفور . هى التنابذ والتناحر . هى الحرب المدمرة التى تعمل للهدم ولا تعمل للبناء .

والحب هو الذى يستطيع أن يوازن عنصر الصراع فى النفس ، فيخفف حدته ويكسر شوكته ، أو « يستأنسه » فلا يهيج إلا حيث ينبغى له أن ينطلق لتحطيم الشر، لتحطيم العناصر التى تقف فى طريق الحب، وتمنع البشرية أن تستمتع بظلاله .

والحب نبتة إنسانية طبيعية ، تنشأ نشوءاً ذاتياً فى باطن النفس . وهو سابق فى وجوده على الكراهية والصراع . كذلك اعترف فرويد دون أن يقصد![1] .

ولكنه لا يستمر فى نموه ، ولا يزدهر ويترعرع إلا فى بيئته الطبيعية وجوه الملائم .

فى داخل الأسرة يتلقى الطفل أول نسمة من نسمات الحب الرخية التى يتفتح لها قلبه الصغير .

من صدر الأم الدافىء وبين ذراعيها الحانيتين يحس بالأمن والراحة ، ويفتح عينيه مطمئنا إلى عالمه الصغير . .

ثم يكبر قليلا ويتطلع إلى أبيه . . ومن مناغاة الأب ورعايته يطمئن إلى عالم

---

(١) انظر كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » فصل « القيم العليا » .

أوسع من الثدى الذى يطعمه والذراعين اللتين تحملانه .. ويدلف رويداً رويداً إلى العالم الكبير .

وبغير الأسرة ، بغير أم وأب يمتلكهما الطفل ملكية كاملة ، ويحس أنه لامنازع له فيهما ـ فى العامين الأولين على الأقل ـ لا يترعرع الحب الذى يوازن بذرة الصراع ، فينشأ الصراع وحده نافراً كالأشواك .

لذلك يحرص الإسلام حرصا شديداً على كيان الأسرة . ويقيم فكرته كلها : الروحية والفكرية والاجتماعية ـ والاقتصادية كذلك ـ على تخصيص الأم لمهمتها الخطيرة فى تكوين البشرية

لأنه يريد للناس أن ينشأوا متوازنين .

ولكن المدنية الحديثة ـ المدنية الحمقاء التى أطار صوابها الكسب المادى والإنتاج الآلى ـ قد نزعت الأم من طفلها المتشبث بها ، المتطلع إليها ، لتضعها فى المصنع والمتجر والطريق . وسمت ذلك تحريرا للمرأة . . لا جرم يكون ذلك تحريراً للبشرية من عنصر الإنسانية !

والمحاضن التى يلهّون بها الأطفال ، يلهّون بها الأجيال المقبلة من البشرية ، لن تكون إلا منابت الشوك الذى يمزق غدا أجيال البشرية !

* * *

وبعد ذلك يقيم الإسلام توازنا آخر لعنصر الصراع .

فهو لا يكتفى بأن يوازنه بعنصر الحب ، حتى لا ينقلب إلى نفور مطلق وخيم .

ولكنه يوازن كذلك مكانه من الكيان النفسى والطاقات البشرية . .

فحيث تعمل بعض العقائد ـ كالهندوكية ـ على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى داخل النفس لكبت الجسد ، وغل نشاطه بحجة التطهر والارتفاع ..

وحيث تعمل بعض المدنيات ـ كالمدنية الأوربية الحديثة ـ على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى خارج النفس ، فتعمل على تحطيم الآخرين من بنى البشر (على الأقل خارج حدود الدولة أو القومية ذات السيادة) . .

يعمل الإسلام على توجيهها ـ بقدر ـ إلى الداخل والخارج على السواء ، فى الحدود المعقولة التى لا تدمر النشاط الحيوى ولا تدمر كذلك الآخرين ، وإنما تسمح لكل بالعمل فى الحدود المأمونة للجميع .

وللإسلام فى ذلك حكمته .

فتوجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل ينظف النفس حقا من شهواتها ، ولكنه يقتل نشاطها وينشىء فيها سلبية معيبة تجاه الحياة . سلبية لا تنتج ، ولا تقاوم الشر حين يقع ، ولا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم النماء .

وتوجيه هذه الطاقة كلها أو معظمها إلى الخارج ينشىء قوة إيجابية حقا . قوة تنتج وتخلق جديدا كل يوم . وتفتح وتتوسع . ولكنها تقضى على نفسها مجازفة فى نهاية الأمر ، لأنها تهمل تنظيف داخل النفس ، ولا تتعرض لتهذيب الشهوات . فتعصف هذه الشهوات فى النهاية بكل ما أنتجته تلك القوة الإيجابية من خير مفيد .

أما التوجيه المتوازن فهو يوجه إلى داخل النفس من طاقة الصراع ما يقف فى طريق الشهوات الجامحة ، ولكنه لا يحبسها من منبتها ، ولا يعترض طريقها المشروع ، أى أنه لا يكبتها ولا يستقذرها فى ذاتها ، وإنما يحدد لها فقط سبيلها المأمون .

ويوجه من هذه الطاقة إلى خارج النفس ما يحول دون وقوع الشر ، ولكنه لا يقف فى طريق الرغبات المشروعة للآخرين ، فلا يعطل إنتاجهم ، ولا يشغلهم عنه بالدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء . ويقيم نظامه على أساس « إنسانى » لا قومى ضيق ، ولا مذهبى متعصب ، يتعاون فيه البشر كلهم لخير الإنسانية .

وبذلك يتجنب السلبية المريضة كما يتجنب الإيجابية المعتدية ، ويحقق من الخير على وجه الأرض أقصى ما يستطاع .

ويوم كان المسلمون يفهمون من دينهم هذه الحكمة ، أو يدركونها ببصيرتهم ،

كانوا هم القوة العاملة على وجه الأرض ، الممسكة بمشعل النور تضيء به البشرية الطريق .

ويوم انحرفوا بطاقة الصراع إلى داخل النفس أو خارجها ، انحرفوا عن سبيلهم الأقوم ، وحل بهم ما يحقق سنة الله فى المنحرفين عن صراطه المستقيم .

* * *

وإذ يعلم الإسلام أن الصراع طاقة ضرورية لداخل النفس وخارجها ، فإنه يتعهدها بالرعاية والتوجيه .

فهو لا يتركها تطغى عن حدودها المعقولة ، بل يعقلها بالحب من أول الطريق.

ولا يتركها كذلك تذوى وتضعف لسبب من الأسباب ، لأن ضعفها ينشىء انحرافاً آخر فى النفس الإنسانية . ينشىء فيها الترهل والتخاذل والانحطاط . .

فالجسم الذى لا يقوم بأية رياضة ولا جهد ، يصيبه الترهل ، وتنحط قوته ولا يعود قادراً على تحمل شىء من الأعباء ، أو مقاومة شىء من الأدواء . وسرعان ما يصيبه التلف والبوار .

وكذلك النفس التى لا تدرب على الرياضة والجهد . . تضعف وتترهل . . وتصبح نفساً مائعة متهاوية لا تقف فى صدام ، ولا تتحمل مواجهة الواقع بما فيه من مشقات . ولا تصلح ـ فضلا عن ذلك ـ لعظائم الأمور التى تحتاج لمزيد من الجهد ، لأنها أحفل بالمشقات .

ومن هنا تظل هذه النفس تدور فى محيط تافه ، وتتهاوى حتى تستحيل إلى فتات .

لذلك يرعى الإسلام فى النفس قوة الصراع . فهو يكره التفاهة المتهاوية ، ويكره تحول الناس إلى فتات ، وهو يعدهم دائما للنشاط والرفعة ، والقوة والنماء . يرعاها بشتى ألوان التدريب .

وفى بعض عباداته ـ كالصوم ـ تدريب لطاقة الصراع فى داخل النفس .

وفى بعض توجيهاته ـ كالفروسية ـ تدريب لها فى مواجهة الناس والأشياء .

وهو يختار لذلك لفظة « الجهاد » .

جهاد النفس بنهيها عن الهوى . وجهاد الأعداء بالتدرب على القتال .

وجهاد الظلم من الحكام أو المحكومين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتغيير عليه . .

وبذلك ينقذ النفس من الترهل، ويصل فى الوقت ذاته إلى تصحيح الأوضاع فى المجتمع البشرى كلما مالت إلى الانحراف .

وهى لمسة واحدة من القوة المعجزة ، تضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، فتدور العجلة كلها فى اتجاهها الصحيح . . .

مقياس الحياة

هل الحياة مقياس ؟

خطر هـــذا السؤال فى بالى أول مرة وأنا أستعرض فى خيالى حياة حارس المنارة .

أهو حى ؟

ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء . هناك فى عرض البحر . وحده . وحده من كل نأمة وكل حركة . إلا أصوات الموج المصطخب أحياناً ، الهادىء الرتيب أحياناً أخرى . وصوت الريح المزمجرة فى غضب عنيف تارة ، المرسلة رخاء تارة أخرى . وهذا الشعاع من النور الذى يرسله فى الفضاء لتراه السفن من مكان بعيد .

أهو حى ؟ ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء . الصامت لا يتحدث . الساكن لا يتحرك . الذى يعيش فى بقعة محدودة لا يملك أن يزيد عليها شيئاً فى الفضاء الواسع الممتد حوله لغير نهاية ؟

أهو حى ؟ وحتى الماء والطعام لا يصلان إليه إلا مرة كل أسبوع أو مرة كل أربعين يوماً . وهو معلق بمرور السفينة التى تحمل إليه هذا الطعام ، كأنها القدر الذى يحمل الحياة . . أو الفناء .

أهو حى ؟ هل يحس أن بينه وبين الحياة رابطة ؟

أهو حقيقة ؟

أم هو شخص أسطورى . شبح يلمحه الإنسان فى خياله ، ولا وجود له فى عالم الحقيقة ؟

* * *

وانتقل بي الخيال يستعرض قوماً آخرين بينهم وبين حارس المنارة شبه بعيد أو قريب .

سكان الواحات . . المنقطعون عن الوادى . المحدودة حياتهم بحدود الواحة ، لا تكاد تتعداها إلا فى مواسم قليلة ، والمواسم مع ذلك لا تخص سكانها جميعاً ، وإنما تتصل بأفراد قليلين .

هل هم أحياء ؟

وسكان القرى فى الريف المصرى . . سكان تلك الجزر المتباعدة المنقطعة فى خضم الحياة .

هل هم أحياء ؟

والموظف الذى يعيش هناك . لا تصل إليه الحياة إلا أصداء فى الصحف أو المذياع . ولكنه لا يراها . ولا يشارك فيها . لا يدير بنفسه ولو « ترسا » ضئيلا فى عجلة الحياة الضخمة . بل لا يملك أن يشتبك عفواً فى أحد التروس الدائرة فيدور معها شوطا يسيراً فى الواقع أو الخيال !

هل هو حى ؟

* * *

واتسع السؤال فى خيالى ، واتخذ طريقاً آخر . .

هل للحياة مقياس يمكن أن نقيس به حياة هؤلاء الأشخاص ، فنعرف أحياء هم أم غير أحياء ؟

مقياس مدرج يمكن أن يقول لنا : هذا حى فى درجة الصفر ، وذلك حى فى درجة المائة .

وإذا وجد هذا المقياس فما مفرداته ؟ او درجاته التى يقيس بها الأحياء ؟

وهل نستطيع أن نعرف به « درجة » الحياة عند حارس المنارة وساكن الواحة وساكن الريف ؟

ثم أيهما الحى بهذا المقياس ـ إن وجد ـ الرجل الأمريكى المتوفز ـ فى ظاهر العين ـ حياة وحركة ، أم الرجل الصينى الذى يبدو ـ لظاهر العين ـ بليداً بطيئاً لا يتحرك ولا يعيش ؟

واستبد السؤال بنفسى حتى أحدث لى أزمة حقيقية ! أزمة عاطفية وفكرية . أزمة تملأ أعماق نفسى وتصل إلى أغوارها .

هل للحياة مقياس ؟ !

فلنستعرض هذين النموذجين اللذين يعيشان على طرفى نقيض :

الأمريكى لا يهدأ لحظة من يقظته إلى منامه .

يقوم فى الصباح متوفزا فيجرى مندفعا إلى دورة المياه فيصلح من شأنه . ويفطر على عجل ، ويخرج مهرولا إلى عمله . يركب سيارته وينطلق بها مسرعا إن كانت له سيارة . أو يركب السيارة العامة فتنطلق به إلى آخر ما يتاح لها فى الزحام من انطلاق . أو يسير على رجليه كأنه يسابق الزمان إن كان العمل منه غير بعيد .

ثم تتاح له مثلا فرصة عشر دقائق فى وسط العمل ، فيركب مصعداً سريعاً ، يصعد به إلى الدور الخمسين أو الستين . . . فإذا هناك مكتبة . فيندفع إلى الرف فيخرج كتاباً ، ثم يقرأ فيه بسرعة مجنونة مدة خمس دقائق ، ثم ينزل فى المصعد السريع ويعدو مهرولا إلى العمل .

ويجىء يوم الأحد ، فيركب هو وأسرته السيارة منطلقاً إلى المزارع والغابات بأقصى سرعة تتاح له إلى منتصف الطريق . ثم يمكثون هنيهة يتناولون فيها الطعام على عجل ، ويعودون إلى السيارة ، فتقودها زوجته بأقصى سرعتها ليعودوا إلى المدينة .

حركة دائمة . نشاط مستمر . سرعة فى كل شىء . . . سرعة تبلغ حد الجنون !

هل هو حى حقاً ذلك الأمريكى الذى ينطلق كالآلة ويعيش كالآلة ؟

هل يستمتع حقاً بالحياة . . وهل يحس بها فى زحمة هذا الانطلاق المجنون ؟ !

والصيني رجل هادئ وئيد لا يكاد يتحرك (١) . الزمن لا يساوي شيئاً في حسه وفي حياته . فعلام ينطلق ، وعلام يندفع ، وعلام يهرول كالمجنون ؟ كل شيء يمكن أن يتم بهدوء . ولن « تطير » الدنيا إذا سار عشر خطوات في الدقيقة بدلا من مائة . ولن يحدث شيء في الوجود إذا جلس مع صديق له « يدردش » من الصباح إلى الظهر ، أو من المغرب إلى ساعة متأخرة من الليل .

أو إذا جلس وحده .

ما الذي يمكن أن يحدث ؟

يموت فلان أو يولد فلان ؟ أو يحدث لفلان حدث من الأحداث ؟

وهل الحياة إلا مثل هذه الأحداث ؟

فما السرعة وما العجلة ؟ هل تحول هذه السرعة دون وقوع ما لا بد أن يقع وهل تتأثر حركة الأفلاك حين يهرول كالمجنون ، أو يجلس ساكنا ساعة بعد ساعة أو عاما بعد عام ؟

وهل الحياة إلا متعة فانية لا تتلبث ، فهما سابقها الإنسان فهي تسبقه . مهما انطلق فهي أسرع انفلاتا . ومهما صنع فالزمن يغلبه بالضعف والعجز والشيخوخة ؟

فالمتعة الحقة إذن ليست متعة الأرض . . . ليست هذه اللحظات الذاهبة إلى غير رجعة . الفانية في عالم المادة . . إنما هي متعة الروح . الروح الخالدة التي تستطيع وحدها أن تغلب الزمن . لأنها لا تعرف الفناء . . . !

لذلك يتصوف الصيني ليقهر الزمن في عالم الروح ، في الوقت الذي ينطلق الأمريكي كالمجنون ليقهر الزمن في عالم المادة .

ولكن هل هو حي ؟ هذا أو ذاك ؟ ! وما مقياس الحياة ؟ !

---

(١) في الصين اليوم حركة ونشاط ، ولكنها ـ فيما أرى ـ حركة عابرة هي نتيجة تفاعلات مؤقتة . فإذا استقر التفاعل عادت إلى طبيعتها . وهي مع ذلك حركة لا تشمل كل الأفراد . فما زالت الكثرة هادئة وئيدة لا تكاد تتحرك ، وإن كنت أرجو أن تكون الصين قد ولدت حقاً من جديد .

نعم . ما مقياس الحياة ؟ !

هذا الفتى الغارق فى لذائذ الحس ، لا يدع لحظة تمر إلا أن يكون فيها متعة تشبع رغبة جامحة فى كيانه . أو تستثير رغبة أخرى .

الخمر والنساء .. والملبس والطعام .. والفراش الوثير .. والمسكن الأنيق .. فى كل شىء متاع ، وفى كل شىء لذة . فما الذى يمكن أن يحتجز الإنسان عن ذلك المتاع ؟

التفكير ؟ وما قيمة التفكير ؟ وفيم يفكر الإنسان ، إلا فى الطريقة التى يزيد بها نصيبه من متعة اللحظة الحاضرة ؟ وما المستقبل الذى يمكن أن يفكر فيه ؟ أليس هو لحظات كالتى يعيش فيها الآن ، تسمى المستقبل لأنها لم تجىء بعد ، ولكنها حين تجىء تصبح كاللحظة التى يعيش فيها اليوم، وكاللحظة التى مرت أمس .

كيف عاش هذه وتلك ؟ عاشها . استمتع فيها بما كان فى يده من متاع . فلماذا إذن يفكر ؟ وفى أى شىء ؟!

وهذا الفتى الذى حرم نفسه من كل لذائذ ذلك المفتون ، لأن له فى الحياة « هدفا » يريد تحقيقه ويجاهد فى سبيله .

هدف أعلى من لذائذ الجسد ومتعة اللحظة الحاضرة .

هدف يحقق الخير لمجموعة من الناس . . ولو على حساب راحته وأعصابه ونصيبه من الحياة .

يقوم فى الصباح .. لا موعد مع فتاة .. لا موعد على كأس . لا وقت لنزهة. لا جلسة لسمر بلا هدف..لا فراغ من الوقت يسعى « لقتله » على نحو من الأنحاء.

وإنما هو الصراع . .

صراع الشر فى الأرض . . ممثلا فى مجتمع فاسد أو فكرة منحرفة أو حق مهضوم .

صراع يملأ وقته وحياته . ولا يلفته إلى نفسه وإلى نصيبه من المتاع . .

وهذا الفتى الثالث الذى لا يعرف لذائذ الجسد ، ولكنه كذلك لا يصارع فى خضم الحياة . .

الفتى الغارق فى أحلام من المثل العليا الرفيعة المشرقة . . أحلام تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا للجسد ، ولا اتجاها لممارسة الحياة فى الواقع . .

فتى مرهف الحس رقيق الشعور .. لا يرتكس فى الشر . ولا يهبط إلى حيوانية الغريزة . ولكنه منعزل كذلك عن الناس . لا يكرههم ولا يتمنى لهم الشر . بل هو شديد العطف عليهم والحب لهم . ولكنه يكره جهد الواقع ويعيش فى الأحلام .

أيهم حى ؟

وما مقياس الحياة ؟ !

* * *

لو أخذنا مقاييسهم الشخصية فكل واحد من هؤلاء حى فى نظر نفسه ، وحياته هى الحياة . وأغلب الظن أنه ينظر إلى حيوات الآخرين نظرة السخرية والرثاء !

فالأمريكى إذ يجعل مقياس الحياة الحركة والنشاط الجسدى والإنتاج المادى ، يرى أنه أشد أبناء الأرض حيوية ، ويرى الصينى فى عداد الأموات !

والصينى إذ يجعل مقياس الحياة انطلاق الروح من قيود الجسد ، والتأمل فى ملكوت السماء ، يرى نفسه زاخرا بالحياة الحقة ، ويرى الأمريكى آلة منطلقة بلا مشاعر .. ولا حياة !

والفتى الغارق فى لذائذ الجسد يرى كل شىء عدا ذلك عبثا وإضاعة وقت . ويرى أنه هو وحده الذى يفهم الحياة حق فهمها ، ويعيشها على أصولها

بينما الفتى المكافح لا يرى فيه أكثر من حيوان هابط يأكل ويشرب ويستمتع ولكنه لا يعيش . وأنه هو الذى يعيش حقاً . يعيش الحياة فى أعلى مستوياتها .

أما الفتى الحالم فقد يحترم المكافحين ويقدرهم . ولكنه ـ فى غالب الظن ـ مغتبط بحياته كما هى . يراها ـ على خوائها من كل واقع ملموس ـ غنية بالمشاعر والأفكار ، غنية بالسبحات العليا التى تمثل فى نظره لباب الحياة !

وتظل الحيرة كما هى . وتظل الحياة بلا مقياس !

* * *

المقاييس الشخصية إذن لا تصلح لقياس الحياة .

فهل هناك مقياس موضوعي نقيس به هذه المتناقضات ، ونضعها فى مكانها الحق بعضها بالنسبة لبعض ، وبالنسبة لحقيقة الحياة ؟

وتمتد الحيرة بى أياما وأسابيع .. وسنين !

ثم أفكر فى فكرة . . لعلها تفتح الطريق . .

ما عيب كل واحد من النماذج السالفة ؟

وهل هناك نفس « نموذجية » نقيس بها انحراف هذه النفوس ؟

وتعود إلىّ حيرتى القديمة . . .

وفجأة .. فى وسط هذه الحيرة الشاملة ، تبرز إلى خاطرى صورة ، وتبزغ أمامى شخصية فذة . .

تبزغ شخصية محمد بن عبد الله .

محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو النفس النموذجية !

انظر إلى جوانبه المتعددة جميعاً . . إنه يجمع فى كل منها نفسا كاملة !

إن فيه روحانية صافية تعدل وحدها روحانية المسيح . والمسيح روحانية شفافة خالصة .

وفيه طاقة عملية تنفيذية فريدة فى التاريخ . . قبسة منها فى نفس أبى بكر وعمر أنشأت العالم الإسلامى فى رقعة واسعة من الأرض ، فى فترة خاطفة بالنسبة لكل حركات التاريخ .

وفيه حيوية جسدية فياضة تعدل وحدها رجلا كل همه متاع الأرض . ومع ذلك فهى لا تشغله ـ رغم استمتاعه بها ـ عن الكفاح لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، وعن الروحانية الشفافة التى تقبس من نور الله ، وتشمل العالم كله حبا صافيا رقيقا كالملائكة الأطهار .

يتحرك فى واقع الأرض . . فتنتج حركته بناء أمة فريدة البناء . . غير مسبوقة فى الزمن كله منذ بدء الخليقة .

ويسكن إلى ربه فى لحظات المتعة الروحية المرفرفة الطليقة . .

ولا ينسى نصيبه من الدنيا .

ذلك هو الإنسان الحق . النفس النموذجية الكاملة .

وهى النفس التى تتمثل فيها الفكرة الإسلامية الكاملة . فكرة التوازن بين القوى جميعا والاتجاهات جميعا والمتع جميعا . .

وقد استطاعت هذه النفس أن تجتذب إليها بدافع الحب وحده ، وبدافع الاحترام البالغ الذى لا يمنعه أن يكون تقديسا إلا خوف الله الواحد المعبود .. استطاعت أن تجتذب إليها ملايين وملايين من البشر على مدار التاريخ .

فى النفس البشرية إذن رصيد تتجاوب به مع تلك النفس الكاملة .

وليس معنى ذلك أن يصبح الناس كلهم ـ أو أحدهم ـ محمد بن عبد الله .

وإنما معناه ـ كما يقول القرآن ـ أن فى رسول الله للناس أسوة حسنة .

أسوة يحاولون الاقتداء به، كل على قدر طاقته ـ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ويقتدون به فى فكرته الشاملة عن الحياة ،التى هى حقيقة الفكرة الإسلامية.

فيأخذون بنصيب من متعة الروح ، ومتعة الفكر ، ومتعة الجسد .

يتحركون فى عالم الواقع ، ويسكنون إلى الله ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا.

ذلك هو المقياس الذى يقدمه الإسلام للحياة . وهو لا يفرضه على الناس فرضاً ، فقد انجذبوا إليه مختارين حين رأوه يتمثل فى شخص بشر ، وأحبوه كما لم يحب أحد أحداً فى التاريخ .

فى صميم النفس الإنسانية استجابة لهذا المقياس، حين تنكشف بصيرتها . وتزيح عنها غشاوة « الواقع » المنحرف الذى تعيش فيه .

حدث ذلك مرة فى الجزيرة العربية . حين فتح العرب عيونهم على النور الجديد ، ووضعوا حياتهم على هذا المقياس فرأوا ما كان فيها من انحراف ، فانطلقوا يصححون نفوسهم . . بل لقد أبصروا فإذا نفوسهم المنحرفة تصح وحدها بفعل كفعل السحر ، لا يدرون من أين أتى ، ولا كيف أخذ بمجامع قلوبهم . . إلا أنه من عند الله ، وعلى يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحدث فى كل مرة انفتحت فيها بصيرة شخص على هدى الإسلام .

ويمكن أن يحدث مرة ومرة . . .

يمكن أن يحدث لهذا الأمريكى فيرده إلى رفرفة الروح الصافية .

ولهذا الصينى فيدفعه إلى الحركة فى واقع الأرض .

وللفتى الغارق فى متعة الجسد فيقيم له أهدافاً أخرى توازن حياته .

والفتى المشغول عن لذائذ الأرض فيأخذ بنصيبه منها .

والفتى الحالم فيدفعه إلى الكفاح من أجل تحقيق أحلامه فى واقع الحياة .

ويلتقى البشر على هذا المقياس الذى يكشف عن مدى انحراف الناس ، ويلهمهم كيف يثوبون إلى التوازن الصحيح .

ولكن . . . هل يستجيب البشر ؟

أحسب أن الحيرة التى يقع فيها العالم اليوم . . حيرة المشاعر والأفكار والنفوس . حيرة الأعصاب القلقة والأوضاع المضطربة . حيرة الفزع من الدمار الرهيب .

أحسب أن هذه الحيرة كفيلة أن تجعلهم يثوبون إلى مقياس الحياة الصحيح .

الشرق والجنس

الشرق منهوم بالجنس لا يشبع .

الجنس يملأ أحلامه وألفاظه وأفكاره .

والجنس يشغل وقته حديثا وعملا . تمهيدا وتدبيرا . جدا ومزاحا . تصورا ووقائع .

وتصل المشغلة بالجنس وتغلغله فى الأفكار والمشاعر، والتعبيرات والتصورات، ألا يكتفى الناس بالحديث عنه بألفاظه المباشرة وميدانه الأصيل ، بل ينقلون ألفاظه بطريق الاستعارة إلى موضوعات أخرى لا دخل لها بالجنس ، كالنصر والهزيمة والسيطرة والخضوع . . الخ ، كما تستغل كل لفظة وكل إشارة وكل استعارة قريبة أو بعيدة للتعبير عن أعمال جنسية بكنايات يمكن أن تحمل معنيين. ولا يتورع عن ذلك فى مجالسهم الخاصة أناس يعرفون بالوقار والتزمت، أو يعرفون بنظافة المشاعر والسلوك !

والنساء والرجال فى الشرق سواء فى المشغلة بالجنس . وإن كان الحياء يمنعهن - أو يمنع كثيرا منهن - أن يستخدمن الألفاظ - نابية أو نظيفة - للتعبير عن هذه المشغلة المستديمة .

لم كان ذلك ؟

إنها مسألة تستلفت النظر ، وتستحق أن يبحث فيها عن الأسباب . فليس من الطبيعى - ولا من الخير - أن تنفق شعوب كاملة معظم طاقتها فى أمور الجنس - ولو كانت مجرد قصص ونكت وأحاديث - فإن ذلك يشغلها عن أمور أخرى أجدى أن توجه إليها الطاقة ويصرف فيها المجهود .

والجنس طاقة بشرية طبيعية تحتاج إلى إشباع ؛ وهى تؤدى مهمة حيوية بإشباعها ، فتنتج النسل الذى يعمر وجه الأرض جيلا بعد جيل .

ولكن الاستغراق الذى يجاوز حدود المعقول هو الأمر المستنكر . مستنكر لأنه يضخم أحد جوانب الإنسان على حساب بقية الجوانب ، ويستنفد طاقة يمكن أن تنطلق فى اتجاهات عدة ، فيحبسها فى اتجاه واحد محدود .

وحتى الشعوب الأخرى التى انهارت ـ كفرنسا ـ واستغرقتها متع الجنس الفاجرة ، وتفننت فى إشباعها فنونا هابطة مستقذرة ، وخصصت لهذا العمل الكريه صحافة وموسيقى ومسارح ومواخير ، وفتحت حدائقها بل شوارعها وبيوتها لإرواء نهم هابط مسعور . .

حتى هذه الشعوب التى استغرق الجنس حياتها إلى هذا الحد ، لم يكن الحديث عن الجنس يستغرقها كما يستغرق الشرق ، بل كانت تكتفى بالهبوط الفكرى والنفسى والروحى . ولا تحتاج إلى كثرة الحديث . بينما الشرق يصرف فى الحديث عن الجنس وقتا غير معقول ، حتى وهو لا يقصد الجريمة ، ولا يهبط بفكره وروحه وسلوكه كما يهبط الغربيون !

* * *

يقولون إنه الكبت . . الكبت الجنسى هو المسئول عن هذا السلوك المنحرف المعيب .

فالشرق منذ مولده متدين . وله تقاليد دينية « تكبت » النشاط الجنسى فتحوله تصورات جائعة وتعبيرات منهومة وتصرفات منحرفة وأفكارا شاردة وعقولا مشغولة .

ولست أستطيع التسليم بهذا الرأى . وخاصة فى الشرق الإسلامى ، الذى كان إلى عهد قريب يطبق تعاليم الإسلام فى التبكير بالزواج ، بل كان يبالغ فى ذلك إلى حد تزويج الفتيان اليافعين والفتيات فى سن الطفولة !

متى ينشأ الكبت فى مثل هذا النظام ؟

والكبت بمعناه الفنى أو السيكولوجى هو استقذار الدوافع الجنسية ، وعدم

اعتراف الإنسان بينه و بين نفسه أن مشاعر الجنس يجوز أن تخطر فى باله أو فى بال أى شخص شريف .

والإسلام بالذات لا يستقذر الدوافع الجنسية . فهو يعترف بها اعترافاً واضحاً صريحاً على أنها الأمر الواقع الذى لا يستنكر فى ذاته ولا يستقذر : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . . » « حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » « إن فى بضع أحدكم (أى لقائه بزوجته) لأجرا . . . » .

إن الإسلام يحدد فقط مصارف الجنس . يحددها بالزواج . وهو حين يدعو إلى التبكير فى الزواج يخفف الضغط على الأعصاب إلى أصغر مدى ممكن ، ويريح النفس من كثير من عوامل الاضطراب .

وإنما وجد الكبت حقاً فى العالم الإسلامى منذ عهد قريب . حين خرجت المرأة سافرة متبرجة ، وأصبحت فعلا أو حكما فى متناول الشباب الجائع ، الذى تمنعه من الزواج المبكر ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية ، تطيل فترة التعطل الجنسى وتدفع إلى الجريمة .

حين ذلك وجد الكبت . . وجد الصراع الداخلى بين تعاليم الدين ودفعة الجريمة ، ولم يكن ذلك ـ كما يريد البعض أن يفهم ـ نتيجة اتباع تعاليم الدين ، وإنما كان نتيجة انحراف المجتمع عن الدين ، وبعده عن الحل الطبيعي الذى وضعه الإسلام للمشكلة الجنسية .

ولست هنا بصدد تفنيد العقبات التى تقف اليوم فى سبيل هذا الحل الطبيعى وتظهره فى صورة حل نظرى لا يصلح للتطبيق . فقد ناقشت ذلك كله فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » . وإنما أريد فقط أن أقرر أن هذا الكبت لم يعرفه الشرق الإسلامى إلا منذ قريب . بينما المشغلة العنيفة بالجنس قديمة قديمة فى هذا الشرق ، إلى حد أنها تملأ كتابا شعبياً كاملا كألف ليلة وليلة ، وتظهر

بشكل بارز فى دواوين الشعر وكتب الأدب فى ألف وخمسمائة عام مدونة ؛ غير مالا نعرف فى العصور السابقة على التدوين !

* * *

الكبت . نعم . .

ولكنه ليس الكبت الجنسى فى معظم الأحيان .

فأنا أزعم أنه الكبت الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى أغلب الأحايين .

ولنعرف أولا أن مسارب النفس الإنسانية كثيرة التعاريج خفية الاتصالات، ولكنها على أى حال ليست « خزائن » مستقلة كل واحدة عن الأخرى ، كما قد يصورها البحث العلمى خضوعاً لمنهج البحث لا تقريرا للحقيقة !

وليس من الضرورى دائماً أن يكون الدافع إلى الجنس شهوة جنسية !

فقد يحدث كثيراً أن يكون الانهماك فى الجنس تخلصاً من أزمة ملحة لا تجد حلها المباشر . ويستوى أن يكون التخلص بهذا الطريق عن قصد ووعى ، أو يكون تدبيراً باطنيا فى اللاشعور .

وأذكر هنا مثالا من علم الطبيعة هو أحد قوانين فيثاغورس .

فلنتصور إناء به سائل ، وفى الإناء فتحات مختلفة الاتساع . وقد وضعنا فوق السائل ثقلا ما . فهذا الثقل سيحدث ضغطا على السائل ، والسائل بدوره سيضغط على جميع جوانب الإناء بما فى ذلك الفتحات المختلفة الاتساع . وهنا يقول فيثاغورس : إن الضغط الواقع على كل فتحة يتناسب تناسباً طرديا مع اتساعها . أى أنه كلما اتسعت الفتحة زاد الضغط الواقع عليها ، مع أن الثقل هو هو بالنسبة لجميع الأجزاء !

ذلك من قوانين المادة .

وفى النفس الإنسانية ما يشبه هذه الأوضاع !

فهى مسارب مختلفة و « فتحات » متباينة الاتساع . فإذا وقع على النفس ضغط

من أى جانب ، فإنه لايؤثر فى الجانب الذى وقع عليه وحده ، وإنما يؤثر فى الفتحات أو المنصرفات جميعا ، ويؤثر فيها بنسبة كل واحد من هذه المنصرفات .

والجنس من أوسع المصارف فى الأحياء .

ومن هنا يكون الضغط عليه شديدا حين تقع أزمة لا تجد حلها المباشر ، وتظل ضاغطة بثقلها على النفس والأعصاب .

ولكن الفرق بين « المادة » و « النفس » أن المادة تتصرف بطريقة واحدة فى كل الحالات المتماثلة ، بينما النفس تتصرف بوسائل شتى وطرائق متعددة ، تختلف بين الوعى الكامل وانعدام الوعى ، وبين القصد المباشر والتواء السبل المؤدية للتنفيذ

وقد أقرّ لى بعض الشباب من المتزوجين أنهم يصابون « بنوبات » جنسية كلما أصيبوا بأزمات نفسية تستعصى على الحل السريع . وهؤلاء « يستبطنون » مشاعرهم فيلحظون كيف تتصرف نفوسهم تجاه الأشياء .

ولكن ألوفا وملايين غيرهم لا يستبطنون مشاعرهم ، ولا يلحظون كيف تعمل فى باطن النفس ، وكيف تتخذ عشرات من الصور والتصرفات .

وأولئك لا يدركون كيف تنصرف الأزمات النفسية والعصبية من منصرف الجنس الواسع ، فى صور إدمان جنسى حينا ، تستخدم له المكيفات المتنوعة ، وفى صورة مباهاة بالقوة الجنسية حينا ، وفى صورة نكت وأقاصيص تدور حول الجنس من قريب أو بعيد .

من هذا الباب نستطيع أن نفسر كثيرا من شئون الجنس فى الشرق .

فالكبت الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى وجد فى الشرق فى تاريخه الطويل قد وجد له منصرفا ضخما فى هذا الباب .

صحيح أن الروح الإسلامية كانت تحول فى كثير من الأحايين دون الفقر المدقع الذى يقهر النفوس ويستذلها ، فقد كانت روح التكافل تخفف من قسوته

على كثير من الناس . ولكن هذا لا ينفى انخفاض مستوى المعيشة بصفة عامة ، وخاصه فى عصور الظلم السياسى الذى كان ينهب أقوات الناس ويتركهم معرضين للقلق على أرزاقهم على أقل تقدير .

ومع الفقر يوجد الكبت الاجتماعى ، الذى يحول دون الناس وأخذهم مواضعهم المستقرة فى المجتمع، والمكانة الراسخة التى يهفو إليها بطبعه كل بشر سوى .

وصحيح مرة أخرى أن الروح الإسلامية كانت تحول دون شىء من هذا الكبت الاجتماعى ، بروح الأخوة فى الله ، وبإقامة موازين أخرى للناس غير القيم المادية البحتة . ولكننا يجب أن نذكر أن المسلمين حكاما ومحكومين قد هبطوا عن مستوى الإسلام فترات طويلة فى الماضى لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها ولكنها حقيقة .

أما الكبت السياسي فهو أوضح . فإن فساد الحكومة الإسلامية فى الماضى قد حولها إلى دكتاتورية مطلقة ، تحكم بنظرية الحق الإلهى، وتضفى على نفسها ألوانا من القداسة لا ينبغى أن توجه لغير الله .

وفى هذا الجو لا يمكن للشعب أن يشترك فى حكم نفسه أو يكون له رأى فى إقامة حكامه أو خلعهم ، أو رقابة على تصرف من تصرفاتهم . فينشأ الكبت السياسى أو « العجز » من جانب الشعب عن التصرف فى شئون نفسه .

هذه الألوان المختلفة من العجز .. العجز المالى والعجز الاجتماعى والعجز السياسى هى المسئول الأول عن الانهماك الشديد فى أمور الجنس ، وخاصة عن أحلام القدرة الجنسية التى لاحد لها ، والمباهاة بهذه القدرة بالحق أو بالباطل ، فالقدرة من أى سبيل هى التعويض المناسب عن العجز فى كل سبيل !

وفى ألف ليلة وليلة مثال واضح لهذا التعويض .

فالفترة التى كتب فيها ـ فترة الحكم التركى على الأرجح ـ من أقسى الفترات التى مرت بالشعب ، وعانى فيها العجز المطلق فى ميادينه الثلاثة السابقة الذكر .

وكان التعويض الذى قام به الشعب فى هذا الكتاب هو أحلام الغنى المفاجىء من أيسر سبيل . وأحلام القدرة المطلقة باستخدام قوى غير منظورة ـ قوى الجن والعفاريت (لأن القوى المنظورة عاجزة أمام السلطان !) ـــ ثم أحلام القدرة الجنسية التى لا حد لها ولا شبع ولا ارتواء !

ولكن نظرة سريعة إلى الحيز الذى يشغله كل حلم من هذه الأحلام يبين أن الحلم الجنسى هو الغالب ، وأن الحلمين السابقين ـ فى كثير من الأحيان ـ أدوات لتحقيق الحلم الجنسى الذى يتحقق عن طريقه «الوجود» الكامل للإنسان ! وهذا يتناسب مع وضع الجنس من النفس البشرية ، وشدة الضغط الواقع عليه بسبب اتساع مساحته فى الشعور واللاشعور .

فهو الكبت إذن حقاً . . ولكنه ليس الكبت الجنسى فى معظم الأحايين .

* * *

والفراغ . . .

فقد ظل الشرق فارغاً أجيالا طويلة بعد أجيال .

الزراعة لا تستغرق الوقت كله ولا الجهد كله .

والتجارة جلسة هادئة بليدة ما بين زبون زبون .

والصناعة اليدوية البسيطة لا تمنع من « الدردشة » الفارغة ، وتبادل النكت والأقاصيص !

ذلك فراغ الزمن . وفراغ الجهد .

أما فراغ الأهداف فهو أشد. فمنذ فرغ الشرق الإسلامى من فتوحه العظيمة ، منذ وقف أكبر مد شهده التاريخ ، وانحسر إلى داخل نفسه ، فرغ الناس من الأهداف ، وانهمكوا فى إشباع أهدافهم القريبة ، والجنس والطعام أبرز الأهداف وأقدرها على استهلاك الطاقة التى تبحث عن استهلاك !

* * *

والجو الحار الذى يسود الشرق .

الجو الذى يُنضج الأجسام والمشاعر فى سن مبكرة شديدة التبكير ، ويساعد على النهم الدائم حين تجتمع الظروف كلها على استثارة النهم المسعور .

* * *

تلك أهم الأسباب التى تبعث على الإدمان الجنسى والمشغلة الدائمة به فى الشرق المنهوم .

وهى أسباب عميقة الجذور فى التربة الشرقية ، لطول ما نبتت فيها ولم تطهرها يد الزارع الحصيف .

ولا مطهر لها إلا العقيدة .

وتلك شهادة التاريخ .

فإن هذا الشرق لم يبرأ من هذا النهم المسعور إلا فى الفترات التى تملكته فيها العقيدة ، فاستنفدت طاقته المذخورة فى آفاق أعلى من محيط الجسد ، وأمن من دفعة الغريزة .

حين تحولت هذه الطاقة فتوحات لا مثيل لها فى التاريخ ، وحركة علمية وفكرية وروحية ومادية أضاءت المشعل للإنسانية الحائرة الغارقة فى الظلمات .

حين ذلك كان الجنس فى موضعه المعقول لا يتجاوزه . لا كبت ولا إهمال . ولا مبالغة كذلك ولا سعار .

ونحن اليوم فى حاجة إلى العقيدة .

فى حاجة إليها تنظف النفوس وترفع من أهدافها .

وفى حاجة إليها تملأ الفراغ المدمر القاتل : فراغ الزمن وفراغ الجهد وفراغ الأهداف . فراغ الجسم والنفس والروح على السواء .

وفى حاجة إليها تزيل الكبت الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى ينحرف بالنفوس فتنغرق فى التيار الجنسى المنهوم .

ونحن اليوم أقدر على تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن طريق العقيدة ،من آبائنا قبل مئات السنين . لان تجارب البشرية فى هذه الميادين كلها قد قربت المسافة بينها وبين القمم العالية التى وضعها الإسلام . فلم نعد نحتاج إلى الطفرة العالية . وإنما هى نقلة معقولة فى حدود المستطاع .

فإذا استمسكنا بالعقيدة ، ونفذناها فى واقع الحياة ، فذلك هو الطريق الوحيد للقضاء على انحراف طال به الأمد فى نفوس الشرقيين .

وإذا كان الغرب فى حاجة دائمة إلى العقيدة ليوازن بماديته الجاحدة ، ويلطف من قسوة الصراع الأرضى هناك . .

فالشرق فى حاجة دائمة إليها لتحول بينه وبين الهبوط فى حمأة الجنس المسعور!

الإنسان والآلة

هواة التفسير المادى للتاريخ يقولون إنه ليس ثمت كيان ثابت اسمه « الإنسان ».

وإنما الإنسان هو مجموعة استجاباته للوسط المادى الذى يعيش فيه. ومن ثم فالإنسان فى البيئة الزراعية غيره فى البيئة الصناعية . غيره فى المشاعر والأفكار والسلوك والاتجاهات. ولا حيلة للإنسان فى أن يتأثر بالوسط المادى، ولا حيلة له كذلك فى الطابع الذى يتخذه نتيجة هذه الاستجابة . فالتعاون الفردى والفروسية والعقيدة وبساطة المشاعر صفات تميز البيئة الزراعية وهى من لوازمها. والاستقلال والبعد عن العقيدة والغيبيات جميعا ، والإخلاد إلى الواقع المحسوس وحده ، وتعقد الأفكار والمشاعر ، صفات تميز البيئة الصناعية وهى من لوازمها . فلا تصلح العقيدة مثلا ولا التعاون الفردى (أى الذى يتم مباشرة بين فرد وفرد) بالإنسان « الصناعى » . ولا يصلح الاستقلال ـ الفكرى أو العملى ـ للإنسان الزراعى !!

وبعض هذا الذى يقولونه صحيح .

أو هو صحيح كله إذا ترك الإنسان وشأنه بغير توجيه .

وقد كان صحيحا ـ إلى حد كبير ـ فى أوربا التى يبنى عليها أولئك « العلماء » نظرياتهم وفروضهم ، ويخيل لهم الغرور البشرى أن أوربا هى العالم ، وأن ما ينطبق على أوربا هو القانون الذى يحكم البشرية !

ولكنه صحيح ـ كله أو بعضه ـ على أساس آخر غير الذى يبنون عليه نظرياتهم المنحرفة .

فليس الإنسان الزراعى كائنا آخر غير الإنسان الصناعى ، حتى نقول إنه ليس هناك كيان ثابت للإنسان ، وإن الإنسان هو مجرد استجاباته للبيئة

وإنما الحقيقة التي ينبغي أن يهتدى إليها العلم الصحيح ـ حين ينجو من انحرافاته الأوربية ـ أن كيان الإنسان كيان واسع شامل لا تحده الخطوط الضئيلة التي يهتدى إليها العلم التجريبي ، أو تدركها الملاحظة المحدودة . وأن البيئة الخارجية تتفاعل مع بعض عناصر هذا الكيان فتبرزها أكثر من غيرها، أو تخفى بعضها لأنه غير لازم فى فترة معينة . كما يشتد ساعد الملاكم ويصبح ذا قوة هائلة لأنه يدربه ويستخدمه بصورة بارزة ؛ وكما يضمر أى عضو لا يستخدم لفترة طويلة ، حتى لقد يفقد وظيفته . ولكن هذا لا يعنى أن الملاكمة هى التى « تخلق » الساعد ولم يكن موجوداً من قبل ، ولا يعنى أن إهمال عضو من الأعضاء يزيله من مكانه ـ ولو طالت فترة الإهمال ـ بحيث يستحيل إعادته إلى العمل بشىء قليل أو كثير من التدريب .

والكيان الإنسانى كذلك ؛ لا تنشئه البيئة الزراعية أو الصناعية ـ أو الذرية إذا نظرنا إلى المستقبل ! وإنما هذه البيئات قد تضخم بعض عناصره أو تدعها تضمر بحسب الظروف . ولكن فى هذا الكيان من القوى المذخورة ، الظاهرة والخفية، المدركة وغير المدركة ، ما يبرز الوجود جيلا بعد جيل، فيحسبه بعض الناس جديداً لم يكن له وجود من قبل !

* * *

وليس الإنسان كذلك كيانا سلبيا خالصا كما يريدون أن يصوروه . وليست البيئة المادية هى القوة الإيجابية الوحيدة التى تسيطر وتفرض سلطانها على المشاعر والأفكار . بل هما قوتان : الإنسان من ناحية ، والقوى المادية الخارجية من ناحية أخرى . وهما قوتان متفاعلتان أبدا . ولكن سيطرة إحداهما على الأخرى أمر متروك للإنسان ، لأنه هو ـ من بين القوتين ـ صاحب الإرادة والقادر على التصرف . والمادة هى التى من شأنها أن تخضع لما يقع عليها من تأثير .

فحين يختار الإنسان أن يكون هو القوة الموجهة المنشئة المريدة ، فهو الذى يكيف حياته ، وهو الذى ينشىء الأوضاع المادية أو يكيفها كما يريد ، أو على الأقل يكيف نفسه منها على الوضع الذى يريد .

وحين يتنازل الإنسان عن إرادته. حين يتخلى عن طاقته الإيجابية الموجِّهة . حين يختار أن يترك نفسه على سجيتها تؤثر فيها القوى الخارجية ولا يؤثر هو فيها .. حينذاك يكون هو الذى ترك الوسط المادى يفرض عليه سلطانه ، وهو الذى اختار موقفه السلبى الخانع ، وليست القوى المادية بطبيعتها هى ذات السلطان

وفى قصة الآلة مثال لما نقول .

* * *

حين اخترع الإنسان الأول أول « آلة » .. قطعة من الحجر مشطوفة على هيئة سكين[1] ، كان ذلك نصراً عظيما لذلك الإنسان ، وتحقيقاً إيجابياً للطاقة الكامنة فى كيانه ، طاقة الاختراع ، ومحاولة السيطرة على الوسط المادى الذى يعيش فيه .

ولا شك أن نشوة لا حد لها قد تملكت ذلك المخلوق البدائى ، وأحس لبضع لحظات على الأقل أنه أكبر من نفسه ، وأنه يدق بيده باب مستقبل زاهر عظيم .

وكان ذلك حقاً . فقد كان فى طريقه إلى تطورات أخرى أعظم خطراً من قطعة الحجر المشطوف .

ومضى الإنسان يخط بجسمه وعقله وروحه سطور عظمة البشرية . سطور الرفعة المطردة لذلك المخلوق الذى كرمه خالقه حين منحه تلك المقدرة المعجزة على التطور والارتفاع .

ونعتذر « للمثقفين » من ذكر الروح ! وهم الذين يقولون إن البحث عن الطعام كان هو رائد التقدم البشرى . كأنما الحيوان لا يبحث عن الطعام ! !

---

(١) ربما لم تكن هذه أول آلة من الوجهة التاريخية ولكننا نتخذها فقط للتمثيل . ويستوى أن تكون هي أو غيرها أول آلة .

نعتذر إليهم عن إزعاجهم - فى عصر الصناعة وعصر الذرة - بذكر شىء من مخلفات البيئة الزراعية البائدة التى لا ينبغى أن تعود !

ونعود لقصة الآلة ، فهى قصة « مفهومة » لاغيب فيها ولا إبهام ولا غموض!
لقد ظل الإنسان ينتقل من اختراع إلى اختراع،وهو يتنقل فى مدارج الرقى ؛ فاخترع المحراث ، والمغزل والمنسج ، وآلات الصيد والقتال ، وآلافا غيرها من الآلات النافعة التى يقوى بها كيانه ، ويحقق فى عالم الواقع طاقاته النظرية الكامنة ، وأحلامه المتطلعة إلى القوة والسيادة على محتويات الكون العريض .
وكانت الآلة فى ذلك الطور الطويل الذى استغرق ألوف السنين مصدر قوة للإنسان ، قوة فردية وجماعية . قوة مادية وسيكلوجية .

والقوة السيكلوجية جديرة بالتسجيل ، وجديرة بتحديد وضعها الحقيق .
فاليد التى تحمل العصا أو الفأس أو المدفع أقوى - فى القياس المادى - من اليد الخاوية .

وصاحب اليد التى تحمل العصا أو الفأس أو المدفع أقوى - سيكلوجيا - من صاحب اليد الخاوية .

هذه القوة المادية تمنحه قوة نفسية تظهر فى سلوكه وأفكاره ومشاعره .
هكذا يبدو فى ظاهر الأمر ، بحيث يخيل لهواة التفسير المادى للحياة أن القوى المادية هى التى « تنشىء » المشاعر والأفكار .
وليس الأمر كذلك فى الحقيقة .

فرصيد القوة موجود فى داخل النفس ، فى صورة رغبة كامنة تنتظر التحقيق .
والعصا أو الفأس أو المدفع أدوات يخترعها الإنسان ليحقق بها رصيد القوة فى نفسه .

والنفس التى حققت رصيدها فى عالم الواقع أقوى من النفس التى تحتفظ بهذا الرصيد رغبة كامنة لا تتحقق أو لا تسعى إلى التحقيق .

والمحك الصادق لهذه الحقيقة أن الجندى الجبان لا يستمد القوة من أدوات الحرب ، لأن رصيدها النفسى مفقود . وقد كان الجنود الطليان فى الحرب العالمية الثانية يملكون أحدث الأسلحة وأفتكها ، ولكنهم كانوا يفرون من الحرب ، ويمنحون هذه الأسلحة هدية خالصة ، لمن يمنحهم نعمة الوقوع فى الأسر والهوان!

فالنفس تتقوى بالوسائل المادية ، لأنها تحقق عن طريقها رصيدها المذخور . وهذا الرصيد سابق فى وجوده للوسائل المادية ، وهو الأصل الحقيق الذى يحسب له الحساب .

وقد كانت الآلة - فى فترة طويلة من تاريخ البشرية - مصدر قوة سيكلوجية للإنسان .

كان هناك عامل مهم فى الموضوع . كان الإنسان هو الذى يدير الآلة ! كان يشعر أنه هو القوة الموجهة ، وأن الآلة خاضعة لإشرافه وتوجيهه . ومن ثم فهو المسيطر ، وهو صاحب السلطان !

ولكن الآلة تطورت بعد ذلك .

لم تعد آلة يدوية ، يديرها الإنسان بيده ، ويشعر بالسلطان عليها ، إن شاء وقفها ، وإن شاء أطلق لها العنان .

لقد تضخمت حجما حتى صار الإنسان بجوارها جرما صغيراً لا يكاد يبين .

وصارت لها قوة ذاتية تتحرك بها من الداخل . ولا يملك وقفها بطريقة مباشرة حين يريد .

وتغير موقفه منها تغيراً كاملا داخل المصنع .

فبعد أن كان العامل أو الصانع يصنع العمل كله بيده ، أو بالإشراف على آلته وتوجيهها ، صار العامل قطعة صغيرة من مجموع العمل . وصارت الآلة المعقدة تقوم بأجزاء كثيرة متعاقبة ، ولم يبق للعامل إلا أن يقوم بدق مسمار أو ربطه ، أو تقديم مادة خامة للآلة الضخمة التى تبتلعها فى طرفة عين وتطلب المزيد .

صار الإنسان قوة سلبية ، والآلة هى القوة الإيجابية التى تملى على العامل مكان عمله ، وزمنه ، وطبيعته ، وحدوده !

وهنا حدث انقلاب كبير فى سيكلوجية الإنسان .

فقد أخذ رويداً رويداً يفقد سيطرته على نفسه، ويفقد فى الوقت ذاته إنسانيته .

لقد توغل شبح الآلة الضخمة فى أعماق حسه ، وصارت هى القوة القاهرة التى تملى عليه إرادتها ، وتصرف حياته كما تريد .

أحس الإنسان بالضآلة فانكمش داخل نفسه . انكمشت مشاعره الحية ورفرفاته المضيئة . انكمشت عواطفه المتدفقة وأشواقه المتطلعة إلى الأفق الطليق .

ورويداً رويداً تصلبت أنسجة نفسه وجفت فصارت كالآلة البليدة الصماء التى تسيطر على كيانه .

وصارت حياته كلها روتينا كروتين الآلة ! يبدأ فى الصباح وينتهى فى المساء . زر واحد أو مجموعة أزرار تفتح فى لحظة معينة مضبوطة كانضباط الآلة ، فتشتغل الآلة النفسية مندفعة بما فيها من وقود مشحون . وتظل تعمل وتعمل وتعمل .. حتى يُدق لها الجرس . وهنا يسكت العمل فجأة كما ابتدأ فجأة . يسكت كما تسكت الآلة حين يقطع عنها التيار .

ثم تشتغل قطع أخرى من الآلة النفسية حين يجىء عليها الدور .

أو تقف خامدة بليدة بلا حراك .

ولكن الدفعة الحيوية البشرية المكبوتة منذ الصباح لابد أن تنطلق فى صورة من الصور ، فهى لم تستهلك كلها فى النشاط الآلى الجامد البليد .

وإنها لتنطلق بالفعل . . انطلاق البهيمة حين تفك عنها القيود .

فورة جسد هائم مجنون . . يهفو إلى جسد هائم مجنون .

وتندفع الشحنة الحبيسة فى منصرفها الحيوانى ، فتهدأ الأعصاب الثائرة لحظة ، ريثما تشحن فى الغد بالطاقة المكبوتة التى تبحث عن التفريغ

وتصبح كذلك حياة الإنسان : آلية جافة جامدة لا مكان فيها للعواطف الحية أو الأشواق الرفافة ، أو اللمسات الدقيقة العميقة . لا مكان فيها للتطلع إلى فكرة عليا أو إحساس كبير .. وحيوانية هابطة تستغرق ما بقي من النشاط المذخور ، وتحول ما بقي من الحياة إلى ماخور كبير .

وبهذا وذلك يتوارى « الإنسان » ويحل محله الحيوان الآلى الذى يملأ وجه الأرض فى العصر الحديث .

وأبرز الأمثلة على ذلك أمريكا .

هنالك وصلت الآلية إلى أقصى درجاتها . كل شيء يدار بالآلات . والإنسان أول شيء هناك يدار بالآلات !

دقة متناهية فى العمل . دقة مضبوطة كانضباط الآلة . وإنتاج ضخم لا مثيل له فى أى مكان . ولكنه إنتاج الآلة . الآلة الميكانيكية أو الآلة البشرية سواء

ولكن ليس هناك بشر . .

البشر الذين تعرفهم بملامحهم النفسية ، بخلجات نفوسهم وخفقات قلوبهم ورفرفة أرواحهم .

البشر الذين تعبر وجوههم عن فكرة أو إحساس أو تطلع . .

البشر .. كما عرفتهم البشرية منذ ألوف السنين !

ليس لهؤلاء وجود .

آلات دقيقة فى النهار . . وحيوانات هائجة فى الليل .

حيوانات فارهة . . تريد أن تستعمر العالم !

وذلك أقصى ما بلغته الحضارة المادية فى العصر الحديث ، ونموذج للعالم « المتأخر » كله يحتذيه .

حقا . إن هذا هو عصر الآلة !

* * *

لقد سيطرت الآلة على الحياة الإنسانية كلها فى العصر الحديث ، وطبعتها بطابعها المنظم الجامد المرتب البليد .

ولقد يخطر لهواة التفسير المادى للتاريخ أن يرفعوا رءوسهم منتصرين ويقولوا فى ظفر أبله :

ألم نقل لكم ؟ إنه ليس ثمت كيان ثابت اسمه الإنسان . وإنه يتأثر بالوسط المادى الذى يعيش فيه فيطبعه بطابعه المحتوم ؟!

ونقول لهم أولا : إن هذا النصر يحمل فى أطوائه الهزيمة ، لأن معناه أن « التقدم » الصناعى الذى يتعبدونه نكسة بشعة فى حياة البشرية ، تهبط بها إلى مستوى الحيوانات والآلات . وهى ـ لو كانوا صادقين فى دعواهم ـ نكسة محتومة تصيب كل البشر . وليس لهم من مفعولها فكاك .

ثم نقول لهم ثانياً : إن هذه النكسة لم تكن حتما على البشرية . وإنما هى أصابت الإنسان باختياره حين تخلى عن عقيدته وتخلى عن إلهه .

هذه الضآلة التى أحس بها الإنسان إزاء الآلة ، فسيطرت عليه بالتدريج ، وحولت حياته إلى نسق آلى بليد .. سببها الأصيل أن الإنسان قطع صلته بكل قوة خارج نطاق الأرض ، وخارج العالم المحسوس .

ومن هنا أصبحت الآلة قوة ضخمة بالنسبة إليه . وصار هو قزما ضئيلا يتعبدها ، ويخضع بوعيه أو بغير وعيه لإرادتها .

ولو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى .. القوة التى تسيطر على كل قوى الأرض ، وتوجه كل قوى الأرض ..

لو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى التى يستمد هو منها قوته وكيانه ، وحسه ووجدانه ..

لو لم يفعل ذلك ما استعبدته الآلة ، وما أحس بجوارها أنه صغير .

كان اتصاله بالقوة الكبرى الخالقة الموجهة ، سيمنحه القوة التى يحارب بها

سلطان الآلة ، أو يخضعها لسلطان نفسه ، فيتحكم فيها وفق ما يريد .

كان سيصبح هو - كما كان من قبل - سيد الآلة . السيد المسيطر الموجه المريد . فلا تفقد نفسه مرونتها بمصاحبة الآلة الجافية ، لأن قوة حية كانت ستظل فى نفسه ذات رصيد . ولا تفقد روحه صفاءها المشرق من طنين الآلات الأجوف ، لأن قوة عليا كانت ستمدها بمدد مذخور .

والنفس لا تحقق قوتها بالوسائل المادية فحسب . فالقوة رصيد نفسى متحرك ، ورصيد روحى منطلق لا يعرف الحدود .

والنفس السوية تحقق رصيدها من القوة بكل هؤلاء .

بالوسائل المادية النفع القريب الذى ينظم حياة كل يوم .

والمشاعر النفسية التى تنظم علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقته بغيره من الأفراد .

وانطلاقة الروح التى تفسح الحواجز كلها ، وتغمر النفوس بالنور ، وتصلها بخالقها فى ومضة من ومضات الشفافية ، فتتصل بالمدد الأزلى الخالد ، فتقبس منه قبسا من الخلود .

حينذلك يسيطر الإنسان على كل قوى الأرض ، ويحس - وفيه النفخة الإلهية المعجزة - أن كل ما فى الأرض مسخر له ، فلا يدع الآلة تكيف له حياته وتهبط به إلى الحيوانية الآلية الهابطة .

ولا شفاء للناس فى العصر الآلى - أو العصر الذرى المقبل - إلا فى رحاب العقيدة . العقيدة التى ترفعهم من وهدتهم ، وترد لهم كيانهم ، وثقتهم بأنفسهم ، فيكيفون مشاعرهم كما ينبغى للإنسان « المتطور » نحو الصعود ، وكما ينبغى للمخلوق الذى كرمه خالقه ونفخ فيه من روحه .

والعقيدة الإسلامية التى تشمل الجسد والعقل والروح ، وتربطها برباط واحد متصل بالله ، هى وحدها التى تحقق للنفس رصيدها الكامل من القوة ، وهى وحدها التى تستطيع أن تنقذ العالم من هبوطه المدمر الرهيب

القرية والمدينة

وكذلك الشأن فى قصة القرية والمدينة . .

فهواة التفسير المادى للتاريخ يعتقدون أن للقرية أخلاقاً وطابعاً معيناً للحياة، وللمدينة أخلاقاً أخرى وطابعاً آخر . . وبينهما برزخ فلا يلتقيان .

وذلك قول فيه كثير من الحق . . وكثير من المغالطة الناشئة من استنباط الأحكام من بيئة معينة وجيل معين ، ومحاولة تعميمها على كل البشرية .

أهل القرية أقرب أن يعرفوا الله ويستشعروا وجوده . .

فصناعتهم الرئيسية هى الزراعة .

والفلاح يضع البذرة فى الأرض ، ثم ينتظر بشأنها كلمة السماء !

وهو لا يستطيع ـ مهما كانت رغبته الخاصة ـ أن يتصرف فى نمو النبتة إلا فى حدود ضئيلة ـ فعليه أن يصبر عليها حتى تنبتها القوة الخفية التى لا يعلم من سرها شيئا إلا ما يراه من مظاهرها . والعلم ذاته لا يعرف من أمر هذه القوة الخفية أكثر من ذلك . ثم عليه أن يترقب تطوراتها المتوالية من إيراق وإزهار وإثمار ونضوج ، وهو لا يملك أن يغير ترتيبها ، أو يستعجلها أو يبطئها أو يتصرف بشأنها إلا فى حدود قليلة .

إنه يعيش فى ظل هذه القوة الخفية معظم حياته . وهو يتعامل معها مباشرة فى عمله الرئيسى منذ أن يضع البذرة فى الأرض حتى يسترد الثمار فى نهاية المطاف . والثمار ذاتها مرهونة بمشيئة هذه القوة الخفية نوعا وكما . . إن شاءت هذه القوة أنجتها من الأعاصير والآفات وتقلبات الطقس ، وإن شاءت سلطت عليها هذه القوى جميعاً . ومهما يصنع الفلاح من احتياط ، ومهما تساعده «الدولة» أو يساعده «العلم» فهو يحس فى أعماق ضميره بأن تلك القوة الخفية التى يجهلها ولكنه

يرى مظاهرها وآثارها.. هى التى تكيف حياته تكييفا مباشراً وتتحكم فى مصيره.

ومن هنا يتدين . .

وسواء اهتدى إلى الدين الحق ، أم تاهت به الظنون فى جاهلية مضلة . .

وسواء أدى طقوس العبادة التى يؤمن بها بانتظام وإخلاص ، أم تكاسل عنها أحيانا ، وانصرف عنها أحيانا أخرى . . فهو فى معظم حالاته متدين . يستشعر فى ضميره وجود القوة الكبرى الخالقة ، ويرى بحسه آثارها ، ومدى تعلق حياته بإرادتها الخفية وآثارها الظاهرة .

وأهل المدينة - الصناعية خاصة - أقرب ألا يعرفوا الله أو يستشعروا وجوده العامل يتعامل مع الآلة ، ولا يتعامل مع الأرض .

هو يديرها بنفسه ، أو تدار أمامه . وهو ينتج بيديه المادة المصنوعة أو يشارك فى إنتاجها .

العملية كلها مكشوفة أمامه . ودوره فى الإنتاج بارز ملموس .

وحتى حين تعقدت الآلة فلم يعد العامل يدرك كل « أسرارها » . . وحتى حين تضاءل دوره من الإنتاج الكامل إلى القيام بجزء ضئيل تافه من مجموع عملية الإنتاج . . حتى عندئذ ظل العامل يحس أن عملية الإنتاج عملية بشرية خالصة ، لا تخضع - فى الظاهر - لإرادة القوة الخفية التى تنبت الحب من الأرض ، وإنما تخضع لإرادة بشر أو مجموعة من البشر ، أو تخضع للكيان المادى الخالص الذى يكيف الإنتاج .

ومن هنا لا يتدين . .

لأنه يتخيل أنه يصنع حياته بنفسه ، ويكيفها كما يشاء .

فإذا تعقدت عملية الصناعة ، وسلب حرية الإنتاج وحرية تكييف حياته ، لم يتدين رغم ذلك ، وإنما راح يتعبد السلطة التى حلت إرادتها مكان إرادته : سلطة الدولة ، أو الحاكم ، أو النظام (أو الآلة ذاتها) . . ولم يتجه إلى الدين ، لأنه

يتعامل فى معظم حياته مع قوة ظاهرة وسلطات ظاهرة ، لا مع القوة الغيبية التى لا تدخل المصنع ـ فى ظاهر الأمر ـ ولا تدير آلاته !

ذلك مظهر يتعلق بباطن النفس .

وثمة مظهر آخر يتعلق بنظام المجتمع .

فأهل القرية بطبيعة عملهم ، وقلة عددهم ، وانحصار حياتهم فى محيط ضيق محدود .. قوم متعارفون متعاونون . تشملهم روح المودة والقربى أو ـ على الأقل ـ تغلب على حياتهم هذه الروح .

وأهل المدينة ـ الصناعية خاصة ـ لا تربطهم مثل هذه الروح ، فهم فى أعمالهم أفراد لا تربطهم إلا رابطة العمل ـ رابطة قضاء ساعات يومية فى عمل صامت عمل رتيب وسط طنين الآلات الأجوف ، أو وراء المكاتب الصامتة البليدة .

وهم بحكم كثرة عددهم لا يستطيعون ـ حتى لو أرادوا ـ أن يكونوا متعارفين على طريقة أهل الريف ، ولذلك يعيشون فى « شقق » منفصلة لا تعرف كل شقة عن جارتها شيئا ، ولا يهمها شأنها فى شىء .

وإذ كان التعاون ضرورة بشرية لا يمكن الاستغناء عنها ، فهو فى المدينة ـ الصناعية خاصة ـ يأخذ صورة « عملية » منظمة تقوم بها الدولة (على أسس علمية !) ولكنها لا تقوم على أسس شعورية مباشرة ، ناشئة من العلاقة القلبية الحية التى تربط قلبا بقلب ، وإنسانا بإنسان .

* * *

تلك حقائق مشاهدة فى واقع البشر .

ونحن ـ كما صنعنا فى قصة الإنسان والآلة ـ نؤمن بأن ذلك واقع . ولكننا لا نؤمن به على أنه الأمر الوحيد المحتوم الذى لا حيلة للناس فى وقوعه ، ولا سبيل لهم إلى تغييره .

فالإنسان ـ كما قلنا هناك ـ ليس قوة سلبية تنطبع بالوسط المادى دون إرادة أو اختيار .

وإنما هو يصبح كذلك حين يختار أن يتنازل عن إرادته ، وموقفه الموجّه من الحياة والأشياء ، ويترك نفسه معرضة للمؤثرات دون وقاية ولا عزيمة ترد بعض هذه المؤثرات .

أما حين يختار أن يكون إنسانا ، فلن تقف أمامه «المادة» بوصفها قوة جبرية تحتم عليه سلوكا معينا ، وتفرض عليه نظرة معينة للحياة والأشياء .

والدليل على أن الوسط المادي ليس هو صاحب السلطان ، والدليل كذلك على أن للبشر جميعا ـ زراعيين أو بدويين أو صناعيين ـ كيانا مشتركا هو «الإنسان» ، وأن البيئة قد تبرز بعض جوانب هذا الكيان أو تهملها ، ولكنها لا تنشئها من العدم ، ولا تقتلها أو تزيلها من مكانها . . .

الدليل على هذا وذلك أن المدينة قد تتدين تدينا عميقا رغم طابعها الصناعي الملحد . وأن القرية قد تلحد رغم ما تدفعها إليه البيئة من استشعار دائم لوجود الله ولدينا أمثلة لما نقول .

فاليابان أمة صناعية ناهضة ، تهدد بإنتاجها غرب أوربا وأمريكا . وهم مع ذلك أمة ذات عقائد عميقة الجذور فى نفوسهم لم تستطع الصناعة ، ولم تستطع قوات الاحتلال الأمريكية أن تنزعها من قلوبهم رغم أنها حرمتها بقانون !

والأمر فى اليابان عجيب .. فلو أنها تؤمن بعقيدة سماوية مفهومة ، يقبلها العقل كما يطمئن إليها الوجدان ، لما كان هناك ـ من وجهة نظرنا ـ عجب فى قيام العقيدة مع الحركة الصناعية . أما وهى تؤمن بخرافات وثنية لا تثبت للمنطق ولا تتمشى مع طبيعة العقل المثقف ، فالأمر أعمق من أن يكون قضية منطقية أو قضية علمية ! فهى قضية تلك النفس البشرية العميقة التى لا يستطيع العلم أن يصل لكل أغوارها مهما زعم أنه يستطيع .

والقرية المصرية التى تدينت منذ عشرة آلاف عام ، وتقلبت على شتى العقائد من فرعونية ومسيحية وإسلامية .. قد بدأت فى السنوات الأخيرة تلحد ، وتعتنق

فلسفة مادية فى بعض الأحيان . وبدأت الروابط بين أهلها تتفكك ، والأثرة الجافية تحل محل التعاون القلبى الودود .

وصحيح أنه إلحاد غير عميق الجذور . وأن ظروفا عارضة قد كفرتهم من دينهم .. إلا أن « حتمية » القوانين الاجتماعية التى يفترضها العلماء لم تكن لتسمح لهم بالإلحاد ، مهما تكن ظروفهم ، ماداموا لايزالون يعملون فى الزراعة ـ خاصة وهى زراعة بدائية لا تعتمد على الآلات ـ ولم يتحولوا بعد إلى عمال أو صناع ! أى لم يتغير الوسط المادى الذى يعيشون فيه ، ويكيف لهم ـ فى زعم هؤلاء العلماء ـ أفكارهم ومشاعرهم وعقائدهم وسلوكهم .

ثم هذا الخبر العجيب الذى نشرته إحدى المجلات الأمريكية (Time عدد ١٥ مايو سنة ١٩٥٤) عن تعديل القسم الذى يقسمه المواطن الأمريكى ويتعهد فيه بالإخلاص لراية الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أضيفت إليه كلمة « فى ظل الله » لأول مرة منذ إنشاء هذا القسم . أى منذ مائتى عام .

لست أصدق أن هذا الجيل من الأمريكان يمكن أن يتدين .

ولكنها إشارة واضحة الدلالة ، تشير إلى مستقبل الأجيال ! وهى إشارة ذات دلالة خاصة حين تجىء من أمريكا التى لاقلب لها ولا روح ، والتى تعيش فى حيوانية آلية لم يهبط إلى مثلها البشر فى تاريخهم الطويل[1] !

* * *

كلا ! ليست هناك قوالب حتمية للنفس الإنسانية . وليس الوسط المادى هو صاحب السيطرة والسلطان .

وليس من الحتم أن يكون سكان المدينة ملحدين !

والمدينة الإسلامية خاصة لا يمكن أن تلحد . ولا يمكن أن تدع الوسط المادى يفسد عليها روحانيتها الصافية ومشاعرها القلبية الودود . فإن إيمانها بالله يرفعها من هذه الوهدة الهابطة ، ويرسم لها طريق الصعود كما أن إيمانها بالله يربط قلوب

(١) كتبت هذا فى الطبعة الأولى . وقد جاء فى الأنباء الأخيرة أن العلماء السوفييت ـ بعد الرحلات الصاروخية الأخيرة ـ قد بدأوا يؤمنون بالله !

سكانها برباط الود . حتى لو استحال عمليا أن يعرف كل فرد كل فرد ، فإنه يكفى أن يتعارف أهل كل حى متقاربين ، ثم يسود السلام والإخاء بين غير المتعارفين: « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » . « . . . وألق السلام على من تعرف ومن لا تعرف » . تلك آداب الإسلام التى أوصى بها الله والرسول .

ولقد رأيت عمالا وصناعاً مسلمين . أعنى مسلمين حقاً !

رأيتهم يخرجون من عملهم المرهق الذى يتعاملون فيه مع الآلة الصاخبة الصماء ، ومع عملية الإنتاج الصناعى المكشوفة للعين البشرية الخالصة فى ظاهر الأمر . .

رأيتهم يخرجون من عملهم فلا يصخبون كما يصخب زملاؤهم الذين خلت قلوبهم من العقيدة ، والذين لا يجدون فى نفوسهم الرصيد الروحى الذى يخففون به عن أعصابهم وأرواحهم وقع العمل المرهق الكابت لدفعة الانطلاق ، فيعوضونه بالضجيج المفتعل المزعج ، يثبتون به وجودهم ، ويعلنون به حريتهم ، كما يعلنها العبد الآبق من القيود !

رأيتهم مطمئنة قلوبهم ونفوسهم إلى ذكر الله . فهم لم ينسوه فى المصنع . لم ينسوا أن الآلة الضخمة الدائرة ليست إلهاً ! وإنما هى أداة سخرها الله للإنسان ، ليزداد بها قوة ، ثم يحمد الله على آلائه ونعمائه بالصلاة والشكران .

ورأيتهم يشعرون بالأخوة الحقة فى الله . فيتزاورون ، وتتزاور أسرهم . ويتبادلون المعونات الفردية حين يحتاجون إليها . فإذا أغنتهم الدولة عنها - أو المصنع - فهم على صلاتهم رغم ذلك لا يقطعونها ، ولا يتباعد بعضهم عن بعض بدافع التباغض أو العزلة والانطواء . أو بدافع عدم الإحساس بالرابطة التى تربط بنى الإنسان.

رأيتهم فأدركت أن المدينة الإسلامية - الصناعية - لا يمكن أن تلحد ، لأن العقيدة أقوى من المادة ، وهى وحدها صاحبة السلطان !

وكان خاطر قد ألم بى ذات يوم فأزعجنى على مستقبل البشرية !

إن المدنية الغربية المجنونة تحطم اليوم حياة القرية وتحولها إلى مدينة . مدينة

ملحدة جافية على ما هو موجود لديهم هناك . ويصنعون ذلك باسم « تمدين » القرية أى رفع مستواها !

والقرية فى أمريكا خاصة ليس لها وجود . فهى مزارع منعزلة ، تسكن فى كل مزرعة أسرة أو مجموعة قليلة من الأسر . ولكنها تعيش على طريقة المدينة المنعزلة التى لا تجمع بينها مودة القلب ، ولا الأخوة فى الله .

وكان ذلك متمشيا ـ هناك ـ مع إدخال الآلة فى الزراعة ، فقد تحولت حياة الريف من صفتها « البشرية » إلى صفتها « الآلية » فتطورت القرية بحسب منطق الآلة فى تلك البقاع . وأزعجنى هذا الخاطر . .

إن بذرة الخير الإنسانى كانت ما تزال باقية فى تربة الريف ، حيث يستشعر الناس آثار القوة الكبرى الخالقة ويؤمنون بوجودها . فهل كتب على هذه البشرية الضالة أن تلاحق هذه البذرة الطيبة بالمبيدات الصناعية حتى فى أحضان الريف؟

هل كتب عليها أن تطارد الخير ، وتقطع روابط المودة ، وتبعثر الناس أفراداً متفرقين ، لا يلتقون إلا على مصلحة قريبة أو شهوة جسد منهوم ؟

وهل هذا هو مستقبل البشرية مع « التقدم » العلمى الذى لا يمكن وقفه عن طريقه ، لأن وراءه شهوة البشر الخالدة فى كشف المجهول وتحقيق الرصيد النفسى المتطلع إلى القوة من كل سبيل . . ؟

ثم تذكرت المدينة الصناعية اليابانية . . وتذكرت القسم الأمريكى الجديد . . فضلا عن المدينة الإسلامية المنشودة . .

كلا ! ليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج على مستقبل البشرية .

إن كل الدلالة التى يمكن أن نستخرجها من هذا الواقع السيء الموجود اليوم ، والذى ينذر بإفساد المستقبل . . هى حاجة البشرية الماسة إلى العقيدة .

وحين توجد العقيدة توجد « الإنسانية » . ويوجد الخير الذى يتمثل فى تلك الكلمة الخالدة . خالدة لأن فيها قبسا من الله الخالد الذى نفخ فيها من روحه وأراد لها الارتفاع !

حضارة الكيلوواط!

قال لى أحد الشيوعيين مرة وهو يجادلنى: إن مقياس الحضارة الحديثة هو مقدار ما يستهلكه الفرد من التيار الكهربائى! فبقدر ما يستخدم من آلات حديثة تستهلك تياراً كهربائياً تقاس حضارته. وقد بلغت حضارة أمريكا كذا كيلوواط فى المتوسط لكل فرد، ولم تبلغ بعد فى روسيا هذا الرقم، ولكنها فى طريقها إليه لأن استهلاك الفرد هناك يرتفع بسرعة سنة بعد سنة.

قلت له: ولكن هذا معناه — بمقياسك — أن الشيوعية ماتزال متأخرة عن الرأسمالية، فكيف يتفق هذا مع كونها — فى رأيك — حركة تقدمية عن الرأسمالية؟

وفوجئ محدثى الشيوعى بهذا القول مفاجأة تامة، وبدا عليه الذعر! لأن المقياس الذى يتخذه لقياس الحضارة قد خذله على حين غرة منه؛ وراح يحاول التخلص من المأزق بأن يقول: إن الشيوعية لم تأخذ مداها بعد، وحين تصل إلى قمتها ستفوق الحضارة الأمريكية.

قلت له: لا تهرب! أنا أسألك عن الفكرة الشيوعية ذاتها: أأرقى هى من الرأسمالية الأمريكية حتى قبل أن تبلغ قمتها، أم هى متخلفة عنها؟

وسكت.. فلم يهتد إلى جواب!

* * *

ثم قرأت حديثاً جرى بين إحدى الأمريكيات اللواتى يزرن مصر، وبين إحدى الصحفيات عن مقياس الحضارة رددت فيه الأمريكية نفس الكلام. قالت إننا نقيس الحضارة بالكيلوواط! فبقدر ما يستهلك الفرد من التيار الكهربائى تقاس درجة تحضره!

* * *

لماذا ينحرف الناس هناك هذا الانحراف ؟ لماذا تختل القيم فى موازينهم إلى هذا الحد الذى يثير السخرية حين يتعمن فيه الإنسان ؟

إنها المقاييس الخاطئة تؤدى حتما إلى النتائج الخاطئة . وبقدر ما يكون الخطأ فى المقاييس يكون الانحراف فى النتيجة .

والمسألة إذن فى حاجة إلى تصحيح القيم . . تصحيح المقاييس .

* * *

كيف نقيس الإنسان ؟

هل هناك مقياس « موضوعى » لا يخضع لرأيى ورأيك ، بل يعتمد على أسس ثابتة يمكن الرجوع إليها لتصحيح المقاييس كلما اختلت فى أيدى البشر ؟ (١)

فلننظر فى هؤلاء « البشر » . كيف أصبحوا بشرا . فلعلنا أن نصل — عن هذا الطريق — إلى المقياس الصحيح .

وأسهل طريق نصل منه إلى النتيجة ، وهو كذلك أضمن طريق ، أن نوازن بين الإنسان والحيوان . فالفرق المتبقى فى الميزان هو حقيقة الإنسان !

والفروق بين الإنسان والحيوان كثيرة لا نظنها تحتاج إلى جدل كثير .

أحد الفروق بطبيعة الحال أنه يستخدم « عقله » فى التفكير والتعلم والاختراع .

وأحد الفروق كذلك أنه يستخدم الإرادة الضابطة فى تنظيم ميوله الفطرية وتوجيهها ذات اليمين وذات الشمال .

ومن هذا الفارق الأخير ، أو من كليهما معاً ، كف الإنسان — على مدار الزمن — عن الاستجابة المباشرة لميوله الفطرية على طريقة الحيوان ، وراح ينظمها ويهذبها ، ويستجيب لها آخر الأمر ولكن بعد أن يقطع بها شوطا بين المنبع والمصب . وعلى ضفاف هذا الشوط من المنبع إلى المصب نبتت الفنون والعقائد والأفكار والفلسفات ، والعادات والتقاليد ، كالزهور الجميلة تنبت فى وسط الطين ، ولكنها شىء آخر غير الماء والطين .

---

(١) أشرنا إلى هذه الفكرة من قبل فى فصل « مقياس الحياة » وهنا نقيس الحياة من زاوية أخرى . وهذه الفكرة مكملة لتلك .

إلى هذا الحد يتفق الناس فى حكمهم على الإنسان . فنكتفى إذن بهذا القدر ، ولا ضرورة الآن لذكر الروح ، ما دام الناس غير متفقين على أنها من مزايا الإنسان التى تفرقه عن الحيوان !

وإذن فحين نتحدث عن الحضارة « الإنسانية » ينبغى أن نرجعها إلى مقاييسها تلك البديهية الظاهرة التى يتميز بها الإنسان عن الحيوان ، وإلا فستكون مقاييسنا خاطئة قاصرة لا تصل بنا إلى الجواب الصحيح .

العلم . . والاختراع . . لاشك أنهما إنتاج إنسانى أصيل . فالحيوان لا يخترع ، ولا يحسن أن يكيف حياته على أساس الاستفادة الواعية مما حوله من ذخائر الوجود .

ولكن القياس بهذا المقياس وحده لا يكفى ، ولا يؤدى إلى نتيجة صحيحة .

تصور أنك تحاول رسم دائرة بفرجار (برجل) ذى قائمة واحدة ! هل يمكن أن تصل إلى نتيجة ؟ أم إنه لابد من القائمتين معاً ، تركز بإحداهما فى مركز الدائرة وتدور بالأخرى على الورقة حتى يتم الرسم ؟

العلم أو الاختراع . . هو إحدى قائمتى الفرجار . ولكنه وحده لا يعنى شيئا ولا يرسم صورة .

فالعلم يمكن أن يستخدم للخير والشر . ويستخدم فى التدمير ويستخدم فى البناء .

والعلم يمكن أن يستخدمه الرجل الفاضل والرجل المنحرف . فأنا أستطيع أن استخدم الغسالة الكهربائية فى بيتى وأنا رجل هابط منحرف ، أكيد للناس وأتمنى لهم الشر ـ سواء نفذت هذا الشر فى صورة جريمة أم بقى إحساسا كامنا فى نفسى ـ كما أستطيع أن أستخدم هذه الغسالة الكهربائية وأنا رجل نظيف المشاعر أحب للناس الخير وأسعى لهم فى الخير . .

فإذا كنت أستخدمها فى الحالتين فكيف تصلح فى ذاتها أن تكون مقياسا لإنسانيتى أو تحضرى ؟

والغسالة الكهربائية شأنها شأن المحراث الميكانيكى ، وشأن الراديو

والتليفزيون والسينما والمطبخ الكهربائى والقطار الكهربائى والإنسان الآلى والمخ الإلكترونى.. إلى آخر هذه الآلات التى تعمل بالكهرباء وتستهلك الكيلوواط ! لا يمكن أن تكون فى ذاتها مقياساً للحضارة ولا مقياساً للآدمية ، لسبب بديهى بسيط هو أن الجميع يستخدمونها ، بما فيهم من خير وشر ، وصعود وهبوط . وإذن فلا تصلح لقياس الصعود والهبوط فى مقاييس الإنسانية .

وإنما هى تصلح حين نضيف إليها القائمة الأخرى من قائمتى الفرجار لترسم الدائرة وتتضح الصورة للعيان .

قلنا إن الفارق بين الإنسان والحيوان ـ إلى جانب العلم والاختراع ـ هو تحكمه فى نوازعه الفطرية ، وعدوله عن الاستجابة المباشرة إليها ، بما نشأ عنه الفنون والعقائد ، والفلسفات والأفكار ، والتقاليد والعادات .

تلك هى القائمة التى ترسم الدائرة . أما الأخرى فهى فقط محور الارتكاز . وعلى قدر المسافة التى أفتح بها القائمة الثانية تكون الدائرة ضيقة أو واسعة ، محدودة أو شاملة . بينما القائمة الأولى ثابتة فى جميع الأحوال فى نقطة الارتكاز..

فعلىّ إذن حين أبحث فى مدى حضارة إنسان معين، أو شعب معين ، أن أرى الدائرة التى يعيش فيها . الدائرة التى يرسمها لنفسه بقائمتى الفرجار .

فإذا كان هذا الفرد أو هذا الشعب يستخدم التليفون والتلفزيون والغسالة الكهربائية والمطبخ الكهربائى ... ويستهلك أكبر قدر من الكيلوواط فى اليوم ، ثم يكذب وينصب ، ويستغل الآخرين أسوأ استغلال ، وتفوح من تصرفاته روح الغدر والخيانة ، والأنانية البغيضة . . أو إذا كان يستهلك هذا القدر من الكهرباء ، ثم يتنازل عن آدميته ، عن فنونه وعقائده ، وآرائه وفلسفاته ، وتقاليده وعاداته ، ويرتد كالحيوان يستجيب لميوله الفطرية استجابة مباشرة . . فكيف أقول إنه متحضر ، بل كيف أقول إنه إنسان ؟ !

وما قيمة هذه الكيلوواطات كلها ، وهى لا ترفع مشاعره إلى إحساس

نبيل ، أو رغبة فى التعاون مع بنى البشر على الخير ؟

أمريكا هى البلد الذى وصل إلى القمة فى استهلاك الكهرباء . .

وأمريكا هى التى تعامل الزنوج تلك المعاملة البشعة التى لم يُسمع عنها إلا فى شريعة الغاب .

فكيف تكون أمريكا متحضرة ، ولو استهلكت من الكهرباء أضعاف ما تستهلكه اليوم بحساب الكيلو واط ؟ !

* * *

وإذ كان العلم والاختراع شيئاً مشتركا ، أو يمكن - على مدار الزمن - أن يكون مشتركا بالنسبة للجميع ، فالمقياس الآخر إذن هو الذى يحدد النتيجة ويرسم الصورة الآدمية . . أو الحيوانية . .

الارتفاع عن عالم الضرورة أو الهبوط إليه . .

الإحساس بالآخرين على أنهم زملاء فى البشرية ، أو أعداء يجب تحطيمهم والاستئثار دونهم بطيبات الحياة ، أو عبيد يستغلون لحساب سيدهم .

هذا هو المقياس .

وبقدر ما يرتفع الإنسان أو يهبط فى هذا المقياس تكون درجة تحضره ، لأنها درجة إنسانيته .

فالذى يغرق فى شهواته ولذائذه لا يرتفع عنها . حيوان مرتد عن الإنسانية .

والذى ينبذ عقائده وتقاليده وأخلاقه . . حيوان مرتد عن الإنسانية .

والذى يسعى إلى إيذاء الآخرين من بنى البشر . . . حيوان مرتد عن الإنسانية . .

ولو استخدم كل آلات الأرض ، واستهلك كل ما فيها من كهرباء .

والذى يكتفى من متاع الجسد بالقدر المعقول ، ويملك حريته إزاء شهواته . .

والذى يربط قلبه ووجدانه بعقيدة تقيه من الهبوط وترفع وجهه إلى السماء وهو يمشى بقدميه على الأرض

والذى يحس بالكيان البشرى للآخرين فلا يستعبدهم ولا ينابذهم ولا يستأثر دونهم بالخير . .

ذلك هو الإنسان المتحضر ، ولو لم يستهلك كيلو واطا واحدا من الكهرباء!

* * *

هل تلك مقاييس شخصية تقديرية ؟

كلا ! فقد رددناها إلى أصولها البسيطة ، التى ينبغى أن ترد إليها . وهى الفوارق التى تفرق بين الإنسان والحيوان وكل مقياس لا يدخل هذه الفوارق فى حسابه فهو مقياس خاطىء . لأنه لا يقيس حقيقة الإنسان ، وإنما يقيس جانبا واحدا منه لا يعبر بذاته ، وليس له وحده دلالة ، وإنما يعبر فقط حين يتبين اتجاهه ، ويُرسم له الخط الذى يسير فيه .

ومن هنا تبدو تفاهة المقاييس الغربية التى تقيس الحضارة بالكيلوواط !

* * *

هل معنى ذلك أن ننفض أيدينا من ثمار التقدم العلمى مادام ليس لها وزن فى الميزان ؟

كلا . لا أريد أن أقول ذلك .

فالعلم ـ كما قلنا ـ نتاج بشرى أصيل . والاستفادة من ثماره ، وتكييف الحياة على أساسها خصلة مميزة الإنسان ، فإذا أبى الإنسان ذلك أو نكص عنه فهو لا يريد أن يستغل كل كيانه وكل طاقاته ، وهو إذن ناقص الكيان .

ولكنى أريد أن أثبت حقيقة هامة :

إن الإنسان يستطيع فى سهولة أن يعوض ما ينقصه فى جانب العلم والاختراع ، إذا كان غنى النفس بالجوانب « الإنسانية » الأصيلة التى يرتفع بها عن عالم الضرورة ، ويشعر بزمالة البشر فى الإنسانية فيتعاون معهم على الخير المشترك للجميع .

ولكنه لا يستطيع بالعلم وحده أن يعوض ما ينقصه فى الجانب الإنسانى ولو أضاف كل يوم مائة اختراع جديدة ، ولو استهلك كل يوم ألف كيلوواط .

ومن ثم يكون المقياس الآخر هو المقياس الحاسم ، ولا يكون الأول إلا « شيئاً » فى الميزان !

* * *

وأوربا اليوم تفسد مقاييس الحياة لأنها - اليوم - تملك السيطرة والسلطان !

ورب قائل يقول : وكيف ملكت القوة والسلطان ؟ وكيف ملكت أن تفرض المقاييس الخاطئة على البشرية ؟ أليس بالعلم والاختراع ؟! وإذن فهذا هو المقياس !

وذلك حق يؤدى إلى باطل !

فامتلاك السيطرة ليس حتما أن يكون على حساب الإنسانية الحقة . وقد كان العالم الإسلامى فى وقت من الأوقات يملك كل وسائل القوة المادية وكل ثمرات العلم ، ومع ذلك كان يرتفع فى مقياس الإنسانية إلى الحد الذى شهد به أعداؤه من الصليبيين ، وما يزالون يشهدون به فى كتب التاريخ .

ومن جهة أخرى فإن امتلاك أوربا للقوة المادية على غير رصيد نفسى نظيف قد أدى إلى هذا الصراع الرهيب فى حربين متواليتين فى ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تنذر بتدمير الحياة على وجه الأرض .

ويوم تصل البشرية إلى استخدام ثمار العلم فى تهذيب النفوس والارتفاع على عالم الضرورة ، فيومئذ فقط تكون قد ارتفعت حقا فى مقياس الحضارة الأصيل .

النفاق الاجتماعى

النفاق فى جميع صوره رذيلة منفرة . فهو عجز عن المواجهة ، وضعف فى الخلق والتواء فى الطبع وخبث فى الطوية . . .

والنفاق الاجتماعى ، بمعنى التظاهر بالفضيلة فى الوقت الذى لا يؤمن بها الإنسان أو لا يمارسها فى الواقع ، لا يخرج عن كونه نفاقا ، ولا يخرج عن كونه رذيلة . .

إلى هنا نتفق مع جميع الذين يكرهون النفاق ويدعون إلى إبطاله . .

ولكننا نفترق عن بعضهم بعد ذلك .

* * *

النفاق هو المرحلة المتوسطة بين الفضيلة الحقة والرذيلة المكشوفة .

قوم لا يؤمنون بالفضيلة لأنهم يعجزون عن تكاليفها ، أو لأن طباعهم الهابطة لا تأتلف معها ، ولكنهم فى ذات الوقت ضعاف الشخصية ، لا يقدرون على المواجهة ، فيتظاهرون بالفضيلة ليرضوا المجتمع ، بينما هم يمارسون رذائلهم فى الخفاء . هذا بطبيعة الحال إلى جانب الذين يتخذون من التظاهر بالفضيلة تجارة يصلون بها إلى مطامعهم الخبيثة ، وهؤلاء ليسوا فى حسابنا لأنهم يدخلون فى طائفة الدجالين والمحتالين ومن إليهم من المجرمين . ولكنا هنا نتحدث عن الفرد العادى الذى لا ينافق لغرض خبيث يهدف إليه ، وإنما مجاراة للمجتمع دون إيمان حقيقى بما يأتيه من الأفعال .

والخروج من هذا النفاق لا يتم إلا بإحدى وسيلتين :

إما الإيمان الحق بالفضائل التى يمارسها الإنسان نفاقا ، والصبر على تكاليفها فى السر والعلن ، ومغالبة النفس عن الانحراف عنها . .

وإما الخروج الصريح عليها ، والقيام علانية بالرذائل التى يأتيها الإنسان فى غفلة من الناس .

والأمر الذى نحسبه لايحتاج إلى جدال هو أن الوضع الأول هو الوضع اللائق بكرامة الإنسان ، الذى كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق ، وهداه الطريق الأسمى ، ورسم له سبيل الفلاح .

ولكن قوما يقولون إن هذا غير ممكن . والإنسان ليس فاضلا بطبيعته ، وإن هذه المثل الأخلاقية مُثُل نظرية لا يمكن تطبيقها فى الواقع ؛ وإذن فلا ضرورة للنفاق ، ولنكن صرحاء ، ولنتكاشف برذائلنا . أو فلنكف عن تسميتها رذائل ، فإن ذلك نفسه نفاق ؛ ولنسمها الأمر الواقع ، ولا نتحرج من الظهور بها على حقيقتها . ولنتشجع . فإن ذلك هو اللائق بالإنسان المتحرر من سخافة التقاليد أو من خرافة الفضيلة !

وهؤلاء هم الذين لا نستطيع أن نوافقهم !

* * *

لقد نشأت هذه النظرة فى أوربا فى العصر الحديث من ظروف شتى .

أولها أن المثل المسيحية المتعالية المتزمتة عسيرة التطبيق حقاً . فهى تكلف الإنسان فوق طاقته وقد وجد أهلها أنهم لا يستطيعون تنفيذها كاملة إلا بالرهبنة ، أى الانقطاع الكامل عن العالم الحى المتحرك الجياش بالحركة والحياة . ثم انكشفت الأديرة ذاتها عن فضائح خلقية بشعة ، تستنكر من الشخص العادى ، فضلا عن الشخص المنقطع للعبادة ، الكاظم لشهواته ، المتطلع — على طريقته — إلى السماء .

وقد مر جيل أو أجيال آمن الناس فيها بالمثل المسيحية حقاً ، ثم ثقلت عليهم تكاليفها وعجزوا فى الوقت ذاته عن الخروج الصريح عليها ، من أثر النفوذ الذى يمارسه رجال الدين ، ومن أثر الاستحياء من الظهور بمظهر الضعف والعجز و . . . ما إلى ذلك من الأسباب ، فنافقوا ، أى تظاهروا بأنهم فضلاء ، وهم

فى الواقع لايطيقون تنفيذ الفضيلة بمفهومها لديهم ، أولا يريدون ذلك .

ثم جاء فرويد .. وارتكب جريمته العظمى التى تكشف عنها بروتوكولات حكماء صهيون ، إذ يقول هؤلاء الحكماء : « إن فرويد واحد منا . وينبغى أن ننشر تعاليمه بكل قوتنا . يجب أن نضع الرذائل الإنسانية تحت الشمس حتى لايستحى أحد من كشفها . وحتى تتحطم الفضيلة فيتاح لنا التغلب على البشرية » .

جاء فرويد ليقول إن الفضيلة كلها كذب وزور وخداع . وإن الإنسان فى حقيقته ما هو إلا طاقة جنسية غالبة قاهرة مندفعة كالحيوان . وإن إقامة الحواجز فى طريقها من خلق أو دين أو عرف أو تقاليد لا ينظفها ولا يهذبها ، وإنما هو فقط يكبتها ، أى يمنعها من الظهور على السطح ، ولكنها باقية على حالها فى اللاشعور ، تحرك الإنسان دون أن يدرى أو يحس ، فضلا عن العقد النفسية والاضطرابات العصبية التى تصاحب هذا الكبت ولا تترك الإنسان فى راحة .

وفعلت تلك الدعوة فعلها الخبيث المقصود .

وانفلتت أوربا من تزمت المسيحية إلى إباحية فرويد .. انفلتت كالحيوان الهارب من القفص يأكل كل شىء فى طريقه ، ويحطم كل شىء فى طريقه . ليشعر أنه طليق .

وفى ظل هذه « الهيجة » المنطلقة بلا تعقـــل ظهرت آراء و « فلسفات » ومعتقدات جديدة ، تسير فى نفس الخط الذى رسمه فرويد ، تقول إن ما يسمى بالفضيلة ليس إلا وهما أو خرافة نادت بها الأديان ، واتبعها الناس تحت سلطان الدين والخرافة . اتبعوها نفاقا فقط ، ولكنهم لم يؤمنوا بها قط ولم ينفذوها قط ، فينبغى إذن أن « نتحرر » من هذه الخرافة ، وأن نتبع « النور » الذى أتى به علم النفس ، فنعرف نفوسنا على حقيقتها ، ونتكاشف بها على طبيعتها ، لا يمنعنا من ذلك حرج زائف ولا تزمت كاذب . ولنقل لأنفسنا صراحة إننا شهوانيون ، وإن الشهوة هى حقيقتنا العميقة المتأصلة .. ثم لنكن شهوانيين على المكشوف بدل الخداع والنفاق واللف والالتواء ...

وتمادى هؤلاء إلى حد المغالطة المكشوفة والاستدلال المتعسر الذى لا يخضع لمنطق ولا يثبت لبرهان .

قالوا إن الإنسان حين يكون وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له ، يتخلى عن فضائله المزعومة ، ويتصرف على طبيعته . فهو لا يتحرج أن يأتى بأى عمل من الأعمال التى تنافى مفهوم الفضيلة عند ذلك الشخص ذاته . ولكنه فى اللحظة التى يحس فيها وجود أحد يسرع فيدارى طبيعته . . يلبس ويتحشم ويتأدب ويتخذ سلوكا جديداً كله مفتعل . . من أجل الآخرين !

وقالوا إن التزمت والتستر وإقامة سدود سميكة من الدين والأخلاق والتقاليد لم يمنع من وجود إباحيين متحللين إلى أقذر حد يختفون داخل مسوح الفضيلة ويصنعون كل شىء فى السر ، ولم يمنع من وجود نساء متهتكات إلى أقصى حدود الفجور ومن داخل الأسوار ووراء الحجاب .

وكلتا القولتين حق يراد به باطل .

فصحيح ولا شك أن الإنسان وهو وحده يتخفف من كثير من القيود التى يلتزمها وهو موجود مع الناس . ولكن لماذا نسمى ذلك نفاقاً ، ولماذا نقول إنه شىء مفتعل ، ليس فى طبيعة الإنسان ؟

فلنأخذ مثالا من الواقع ، لا نتحرج من ذكره ، لأنه واضح الدلالة على زيف هذا الاستدلال .

إن كل حى يخرج فضلاته عن طريق التبرز . والتبرز عملية قذرة فى حد ذاتها لأنها تتصل بالأقذار التى يلفظها الجسم إبقاء على الحياة . ولكن الأمر الواقع الذى يلمسه كل إنسان بالتجربة أنه لا يتأفف من قذارة نفسه ، ولا يشعر بالنفور من عملية التبرز التى يأتيها كل يوم . بل الأمر على العكس ، فإنه من عجائب الخلقة ومعجزاتها الطريفة أن كل العمليات البيولوجية مصحوبة باللذة ، تشجيعا للكائن الحى على القيام بها ؛ حفظاً لذاته أو حفظا لنوعه ؛ ولولا هذه اللذة لتكاسل الكائن

الحى عن أدائها ، وربما أصيب بالضرر أو قضى عليه بالفناء .

فالذى يحدث إذن أن كل مخلوق يحس بلذة فى إخراج فضلات نفسه ، بينما يحس بالتقزز والنفور من رؤية فضلات غيره ، لأنه يرى قذارة ولا لذة !

أفإن قام كل إنسان بإخراج فضلاته بعيداً عن أعين الناس ليمنع ما يحسون به من النفور والتقزز ، أيقال عنه إنه منافق ؟ ويقال إنه يصنع من أجل الناس مالا يصنع من أجل نفسه ؟ وإنه لو كان وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجآتهم له لما قام بهذا الإجراء ؟

أى منطق هذا ؟

نعم إنه يصنع ذلك من أجل الناس . ولكن لماذا حدث ذلك ؟ أليس لأن الناس قد وجدوا أنهم لو صنعوا أمام بعضهم بعضا ما يصنعونه فى خلوتهم فستكون النتيجة أن يتقزز الناس جميعاً وينفروا جميعاً ؟ أليسوا قد اتفقوا حينئذ أو تواضعوا على أن يداروا سوآتهم عن الآخرين ليمنع كل إنسان عن نفسه هو فى النهاية ما يثير تقززه واشمئزازه ؟ أليست المصلحة المشتركة إذن هى التى منعت كل إنسان أن يعمل فى صحبة الناس ما يعمله فى خلوته . المصلحة التى هى فى النهاية مصلحة كل فرد بمفرده ؟

أفيقال إن هذا نفاق ؟ !

والمسألة كذلك فى « الفضائل » كلها ، وإن كان الأمر مستويات فوق مستويات.

ولنأخذ المسألة الجنسية التى يدور حولها الجدل كله فى هذا القرن العشرين .

الرغبة الجنسية رغبة أصيلة عميقة فى الكيان البشرى تمتد إلى أعمق جذوره . هذا حق .

وقد عملت الأديان والتقاليد والأخلاق على تهذيبها والارتفاع بها ، ولكنها موجودة لا تزال ، متأصلة فى الأعماق . ذلك أيضاً حق . ولكن ما صلة ذلك بما يقولون وما يريدون ؟

هل معنى ذلك فى منطقهم أن يقوم الإنسان بهذا العمل بلا حرج وأمام الناس ؟ إنهم إن لم يقولوا ذلك كله علانية فقد قالوا معظمه ، حين أباحوا العرى ، وأباحوا التقبيل والعناق على قارعة الطريق ، وأباحوا اتخاذ الخليلات والخلان ، وأباحوا القصص الجنسية الحادة والصور المثيرة فى السينما والمسرح والإذاعة والصحافة . . وأباحوا كل ما نراه اليوم بدعوى التحرر والواقعية والانطلاق ، وما أشبه ذلك من هذيان المحمومين .

فلنرجع إلى هذه القيود كيف وضعت ولأى شىء وضعت .

يقولون إن البشرية الأولى كانت تمارس الشيوعية الجنسية كاملة أو قريبة من الكاملة .

ورويداً رويداً بطلت هذه الشيوعية الجنسية وعرف نظام الزواج ، أى تخصيص رجل لكل امرأة وامرأة لكل رجل على تفاوت فى هذا التخصيص .

هل حدث ذلك بلا سبب ؟

هل استقرت الأمور على الإباحية الأولى وساد الوئام بين الناس ؟

أم إن التنازع عن « امتلاك » النساء قد أقام المذابح بين الرجال ، بحيث وجدوا أن أفضل طريق هو أن « يحوّط » كل إنسان على ملكه بحيث لا يتعداه غيره ؟

ثم استقرت الأمور على ذلك آلاف السنين لا تضطرب إلا حين يقوم شخص عابث يتعدى الحدود . ووجد الناس أنه لا يأمن أحدهم على حدوده الخاصة إلا بأن يمتنع هو عن مهاجمة حدود الآخرين ولو كان راغباً فى ذلك مشتهيا له .

فهل كان ذلك نفاقا ؟

هل كان نفاقا وهو يؤدى فى النهاية إلى الأمن المشترك والمصلحة المشتركة ؟ يطمئن كل إنسان على أسرته ويمنع أذاه عن أسر الآخرين ؟

وهل مغالبة الناس لشهواتهم — مع وجودها وتأصلها فى نفوسهم — حرص!

على المصلحة المشتركة ، أو خوفا مما يصيبهم من الضرر لو انفلت القيد ، يعتبر زورا وكذبا وخداعا لا يصنعه الإنسان إلا من أجل الآخرين ؟

أى منطق هذا يصاب به مفكرو القرن العشرين ؟

ثم ننتقل إلى العجيبة الثانية فى تفكير أولئك العباقرة المحدثين . .

إن الوقار والتزمت والقيود التى يفرضها الدين والأخلاق والتقاليد لم تمنع قيام المتهتكين فى السر ، ولا المتهتكات من وراء الحجاب .

نعم . هذه حقيقة . فماذا يراد من ورائها ؟

يراد أن نلغى هذه القيود والتقاليد ، ونتخلى عن الغفلة التى نعيش فيها مغمضى العيون !

لماذا ؟ هل سيؤدى ذلك إلى تنظيف أولئك المتهتكين والمتهتكات ، وردهم إلى الفضيلة ؟

أم قصاراه أن يخرج إلى عرض الطريق ما يحدث من الخبائث وراء الجدران ؟!

فلننظر إلى الأمر الواقع .. فلنترك النظريات البراقة .. فإنه يقال لنا إن مزية القرن العشرين هى التمسك بالواقع والتخلى عن الأوهام ! !

هل الذى حدث فى أوربا وأمريكا أننا نظفنا النفوس ورفعنا الأخلاق ورددنا الناس إلى الفضيلة ـ عن طريق الحرية ـ أم أننا حولنا البيوت والفنادق والطرقات والشوارع كلها إلى مواخير ؟

وماذا كان يصنع المتهتكون عندنا فى السر والمتهتكات وراء الجدران ، أكثر مما يصنعه « الفضلاء » هناك على المكشوف ؟

أم إن العمل ذاته يعتبر رذيلة هنا وفضيلة هناك ؟

وما الذى يريده السادة « المفكرون » هنا فى الشرق على وجه التحديد ؟

يريدون أن يطهروا نفوس الناس ويعوذوهم على الفضيلة الحقة ، الفضيلة الناشئة عن اقتناع فى الضمير وتأصل فى الوجدان ؟ أم يريد[illegible] أن يخرجوا

المواخير المستورة إلى الشارع، ويقولوا إن ما يحدث فيها هو الفضيلة ، كما صنعت أوروبا وأمريكا فى العصر الحديث ؟

* * *

وليس هنا مجال الرد على فرويد وأتباعه من أن الإنسان سافل بطبعه مندفع أبدا وراء شهوته . وأنه إما الكبت المضر وإما الانطلاق وراء الشهوات .

ليس هنا مجال الرد ، فقد أفردت له فصلا خاصا فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » كما ناقشت كثيرا من آرائه فى أماكن متفرقة من الكتاب .

ولكنى أعيد هنا فى اختصار شديد ما قلته هناك عن نظرة الإسلام .

إن الإسلام لا يلجأ إلى كبت الطاقة الحيوية ـ جنسية كانت أو غير جنسية ـ بل يعترف بها اعترافا كاملا على أنها الأمر الواقع فى طبيعة البشر : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ؛ ذلك متاع الحياة الدنيا » . وإن كل ما يدعو إليه الإسلام هو تنظيف الاستجابة إلى هذه الشهوات ـ مع الاعتراف بنظافتها فى ذاتها وأصالتها وأحقيتها الكاملة فى الإشباع ـ وهدف هذا التنظيف فى النهاية هو رفع الضرر عن الفرد والجماعة . وهو قائم فى الحدود التى لا ترهق الفرد ولا تكلفه فوق طاقته . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . وقائم على حقيقة « علمية » ملموسة ، هى أن الإنسان قابل بالفعل للتهذيب بدرجة لا توجد فى الحيوان . مما يدل على أنها خاصية من خصائصه التى تفرد بها بين مخلوقات الله .

هذا التحديد المختصر لنظرة الإسلام يكفينا هنا فى صدد ما نريد الإشارة إليه ، وهو أن الإسلام يتمشى مع الطبيعة البشرية ولا يكبت طاقتها الحيوية ، ومن ثم لا يلجىء الناس إلى النفاق ، لأنه لا يتطلب منهم ما يحوجهم إلى النفاق . . إنه مثلا لا يقول لهم إن الشعور الجنسى قذر فى ذاته فتطهروا منه وتعالوا عليه . فإذا عجزوا عن إطاعة هذا النداء ـ تلبية لدوافعهم الفطرية ـ نافقوا ليحافظوا

على تعاليم الدين . . كلا ! إنه يقول لهم إنه أمر طبيعى جداً ، ونظيف فى ذاته إلى أبعد الحدود . « حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء . وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . بل هو يدعوهم دعوة صريحة إلى أخذ نصيبهم من المتاع الجنسى إذ يدعوهم إلى الزواج والتبكير فيه . كل مافى الأمر أنه يمنعهم من أخذ هذا النصيب فوضى على طريقة الحيوان ، ويتيحه لهم نظيفاً طاهراً كما يليق بالإنسان . فإذا أطاع الناس تعاليم دينهم فى هذا الموضوع فلا نفاق إذن ولا حاجة إلى النفاق. وإنما الصراحة الكاملة والسعى الواضح المكشوف .

وكذلك الأمر فى بقية تعاليم الإسلام ، لا تجد فيها النفس السوية حرجا يدعو إلى النفاق .

وذلك فارق أساسى ينساه أو يتناساه من يقيسون الأمور هنا على ما حدث فى ظل الكنيسة الأوربية ، وكله عند « المثقفين » دين !

* * *

ولكن الناس ليسوا كلهم أسوياء .

ومهما بلغ التهذيب الدينى فليس المفروض فيه أن يهذب الناس جميعا ويرفعهم إلى مستواه . والإسلام لم يفترض ذلك ولم يقل إن كل الناس سيعتنقونه مؤمنين مخلصين .

هناك إذن قوم لن يؤمنوا . لن تتشرب أرواحهم العقيدة ، ولن يستضيئوا بنورها الشفيف .

وهؤلاء إما أن يخرجوا على الدين جهرة ، أو يكونوا منافقين .

وقد يكون من الخير فى الأمور السياسية أن ينكشف المنافقون ليأخذ المؤمنون حذرهم منهم ، ويكونوا لهم دائما بالمرصاد .

ولكن الشأن فى الأمور الخلقية يختلف .

فليس من الخير أن يتبجح المنحلون والساقطون برذائلهم ويرتكبوها على قارعة الطريق .

فهنا تنشأ القدوة السيئة التي تشجع المترددين وتجرف المحافظين . وتكون النتيجة الأخيرة في النهاية أن يرتكس المجتمع كله في الرذيلة ، لا أن يتحول كله إلى فضلاء .

والبرهان هو ما حدث في أوربا .

ولا ينبغي أن يخدعنا وصفهم لرذائلهم بأنها فضائل ، وتبجحهم بأنهم أصبحوا واقعيين !

لقد أصبحوا واقعيين على مستوى الحيوان ، حيث ينبغي أن يكونوا واقعيين على مستوى الإنسان .

ولنعلم أن القوم هناك ظروفهم ، سواء كانوا معذورين فيها أو غير معذورين. ونحن لنا ظروف غير ظروفهم ، وفهم للعقيدة غير فهمهم ، لا يكلف الناس فوق طاقتهم ولا يحوجهم إلى النفاق .

فهمتنا إذن أن نرفع الناس إلى مستوى الإنسانية . أن نبذر في نفوسهم الفضيلة الحقة ليكونوا مؤمنين بها عن اقتناع صادق وتأصل في الوجدان ، لا انصياعا لقيد خارجي محكم أو حجاب مفروض .

ولكننا في الحالات التي نعجز فيها . . لا لسوء عقيدتنا ولا فساد نظامنا ، بل لوجود انحراف في شخص لا يريد أن يرتفع إلى مستوى الإنسانية ويريد أن يخلد إلى مستوى الحيوان .

عند ذلك فلنفرض تقاليدنا فرضا بقوة القانون . .

ولا ضير يومئذ مما يقوم به بعض الناس من النفاق خوفا من سطوة القانون والتقاليد ، فذلك خير من إباحة القدوة السيئة التي تشجع المترددين وتفسد الصالحين .

إنما الضير يوم يتحلل الناس كلهم من عقائدهم ، ويبقون على ردائها الخارجي وحده انصياعا للقيد المفروض . فالذي يحدث عند ذلك أن يتهدم المجتمع كله ليبنى على نسق جديد .

فوق الواقع

لى صديق يشتمل على صفات كثيرة تضايقنى

فهو مثلا مولع بذكر التفصيلات الدقيقة التى لا تقدم ولا تؤخر ، وأنا أمقت ذلك فى غير الأبحاث العلمية والمشكلات الفكرية ، التى يحتاج الإنسان إلى تتبع جزئياتها للوصول إلى نتائجها .

وهو كثيراً ما ينسى نفسه ، فيعيد رواية قصة رواها من قبل ، ويعيدها بكل تفصيلاتها الدقيقة التى لا تقدم ولا تؤخر ؛ وأنا أكره بطبيعتى أن أستمع إلى الشىء مرتين ، فضلا عن التفصيلات المملة التى تصبح أكثر إملالا حين تكرر و تعاد .

يقول لى مثلا : إنك لم تسمع منى قصة الليلة التى قضيتها فى باريس أو لندن أو برلين . . وأكون قد سمعتها منه قبل ذلك عشر مرات ! فيروح يقصها مرة أخرى ، ويروى لى ما قال فيها من شعر وما حلم من أحلام . ويتوقع أن أنفعل بكل جزء من جزئيـــاتها ، وأتعلق بمفاجآتها كأننى أسمعها أول مرة ، وإلا فأنا معرض عنه ومشغول !

وهو ينسى نفسه كذلك فيسألنى عن أشياء فأشرحها له بالقدر الذى أظن أنه أشبعه ولم يعد فى حاجة إلى مزيد ، ثم إذا هو بعد أيام يسألنى عنها بنفس الصيغة واللهجة كأننى لم أقل له شيئاً من قبل ؛ وأنا أكره أن أكرر نفسى ، وأمقت مقتا شديدا أن أضطر إلى إعادة كلام قلته من قبل .

ثم هو حساس إلى درجة شديدة ، تجرحه الإشارة العابرة ويتعلق بها ويكبرها ويضخمها حتى يجعل منها قضية كبيرة . وأنا تعودت مع أصدقائى خاصة أن أتكلم بلا تكلف — مادمت مطمئنا إلى أنى أحبهم ولا أقصد الإساءة إليهم — وأكره من أحد من أصدقائى أن يكلفنى — بحساسيته — أن أتيقظ لكل كلمة أقولها خشية

أن تجرح إحساسه وأنا لا أقصد . بينما أنا أملك الصراحة الكافية — كما قلت له مراراً — أن أنتقد الناس مواجهة حين أقصد إلى ذلك .

وهو يتسبب بحساسيته تلك فى مضايقات كثيرة لى .

فقد يضرب لى موعداً ثم يتأخر عنه ساعة أو أكثر . . أو لا يجيء أصلا . ثم يعتذر إلى فأقبل عذره رغم معرفته بأن الانتظار يمزق أعصابى . فإذا تأخرت أنا لأسباب تخرج عن إرادتى وجدته منفعلا ثائرا لا يقبل عذرا ولا يهدأ من قريب !

ويتصرف أحيانا ـ وهو معى ـ تصرفات مسيئة للآخرين ، فيؤذينى ذلك . يؤذينى من أجله هو . ومع ذلك لا أملك تنبيهه ولو بأرق لفظ ، بسبب حساسيته الزائدة ، وأظل أكظم فى نفسى هذا الضيق .

وهو فى جملة القول متعب بالنسبة إلى . وما أريد أن أزعم أنه هو المخطىء فى كل هذه الأمور وأنا على صواب . فقد أكون أنا المخطىء أو قد يكون كلانا على صواب ولكنه اختلاف الطبع بين الاثنين . وما أريد كذلك أن أزعم أنه ـ حتى بالنسبة إلى ـ متعب فى جميع أحواله . فما من شك أنه يحمل بين جنبيه قلب إنسان ، وما أقل القلوب الإنسانية فى هذا الزمان .

ولكنى أريد فقط أن أبين حقيقة واقعة : أنه لا تكاد تخلو جلسة واحدة من جلساتى معه من أمر يملنى ويضجرنى . ثم يزيد الأمر وقعا على أعصابى أنى لا أحب أن أظهر له الملل والضيق ، بل أحب أن أظهر بمظهر المقبل عليه ، المرتاح لكل ما يقول .

تلك حقيقة واقعة . . .

وأنا معذور حين أحس بالضيق والضجر من أمور لا تتفق مع طبيعتى ، بل هى معها على طرفى نقيض .

ولكنى مع ذلك كثيراً ما أحس أنى مقبل عليه إقبالا حقيقيا لا اصطناع فيه . أحس أنى متقبل لكل ما يصنعه وما يقوله . . كل تصرفاته التى تبدو لى بعين « الواقع » منحرفة منفرة . . كل تفصيلاته التى لا تقدم ولا تؤخر . . كل تكراره

وإعادته . . كل أسئلته عن أشياء سبق أن شرحتها له . . كل حساسيته الزائدة . . كل تصرفاته التي لا ترضى الآخرين .

كل هذه الأمور أحس أنني أتقبلها بقبول حسن . لا أحس أنني « مصطبر » عليها كرها لكيلا أجرح شعوره ، بل متقبلها حقا . . بغير جهد ، بغير حمل على الأعصاب . . متقبلها وأنا بها سعيد !

هل تغير « الواقع » ؟

أبداً . . إنه « واقع » ما يزال .

ولكنني أنا ارتفعت « فوق الواقع » لحظات من الزمان !

وصحيح أنني لا أرتفع فوق الواقع في كل لحظة ، ولكنني أحس أنني « إنسان » حقاً حين أرتفع فوق الواقع ، وبمقدار ذلك الارتفاع !

* * *

« الواقع » حقيقة ما في ذلك شك .

ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك . . . إنه حقيقة « الإنسانية » وندرة اللحظات التي يرتفع فيها البشر عن الواقع لا تعني أنها غير موجودة ، ولا يبرر إغفالها من « واقع » الحياة . فما دامت تحدث بالفعل فلا بد من تسجيلها والإشادة بها ، ووضعها موضعها الحق في وزن الأمور .

هل كل يوم يزهر النبات ؟ أليست لحظات معدودة من حياته هي التي تتفتح فيها الزهور ؟ ولكن من يقول إن ندرة هذه اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذى العذب والمنظر البهيج ؟ وكم تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات ، ولا تستمتع بذلك الجمال المتاح ؟ وكم تكسب وهي تترقب الزهور المتفتحة ، وتتطلع إليها في لهفة ، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات ؟

ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التي لا تلبث ، ولا يتضوع شذاها غير لحظات ؟

كذلك « زهرات » المشاعر و « ثمرات » النفوس . قليلة نعم . ولكنها فى قلتها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل !

* * *

وقد كانت أوربا غبية بلهاء وهى تنحي من حسابها تلك المشاعر الصافية والومضات النفسية الوضيئة بحجة « الواقعية » ! أو قل – إن شئت – إنها كانت تتحدث عن واقعها هى لا عن واقع البشرية !

إن الواقعية لا تكون واقعية حقة وهى تغفل من الحساب جزءاً من الواقع وتنظر إليه كأنه غير موجود .

وومضة البرق لا تستغرق إلا لحظة ، ولكنها تضىء وجه الأرض كما لا تضيئه ألوف المصابيح . وإذا كان علماء الطبيعة يدرسون كيفية الإفادة من هذه الومضة الخاطفة كى لا تضيع فى آفاق الكون ، فكذلك ينبغى لعلماء النفس والاجتماع أن يفيدوا من ومضات النفوس المشرقة كى لا تضيع فى آفاق البشرية .

ولكن أوربا التى تسيطر اليوم على العالم تأبى إلا أن تغفل الواقع الأكبر لتعيش فى حدود الواقع الصغير .

وفى ظل هذه الواقعية المشوهة التى تنكر قدرة الإنسان على الارتفاع فوق الواقع ، نبتت نظريات داروين وماركس وفرويد والبراجماتزم ، ونبتت الفنون « الواقعية » كلها ، تمرغ النفس الإنسانية فى الوحل ، وتقول إن هذا هو الواقع !

داروين كان أول من قرر مادية الإنسان وحيوانيته ، لأن « الواقع » الذى كان يدرسه هو الواقع الجثمانى الحيوانى الذى أوحى إليه أن الإنسان من سلالة الحيوان . وقد أغفل فى غمرة نشوته بهذا الكشف أن الإنسان قد ارتفع فوق الواقع الحيوانى ، وأن جوانب جديدة فى نفسه لا مثيل لها فى عالم الحيوان ، تعطيه إشراقة الروح وصفاء المشاعر . . وقد كان حريا – لولا واقعيته الضيقة – أن يدرك أن التطبيق الصحيح لنظرية النشوء والارتقاء ذاتها ينتهى إلى هذه النتيجة.

فكل كائن أرقى يحمل صفات ليست لسابقه . هناك كائن له أذنان تسبقه كائنات لا آذان لها . وهناك كائن له عينان تسبقه كائنات لا عيون لها . وهذا كائن له روح ، تسبقه كائنات لا تعرف إشراقة الروح .

وجاء ماركس وصفيه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادة وواقعية الاقتصاد . «إن حقيقة العالم تنحصر فى ماديته » . . « إن وجود الناس هو الذى يحدد مشاعرهم . وليست مشاعرهم هى التى تحدد وجودهم . . . إن علاقات الإنتاج ووسائله هى التى تحدد الصفة النهائية للمجتمع ، وهى التى تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم »

وذلك واقع . . ولكنه واقع صغير !

والواقع الأكبر الذى أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر فى الطعام والكساء والجنس - وهى المطالب الأساسية للإنسان كما سماها - ولا يمكن أن تنحصر فى نطاق المادة . وأن كل ما أنتجته البشرية فى تاريخها الطويل ، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد ، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة ، وتعبير عن الواقع البشرى الكبير . وأن الاقتصاد قد يكون « أساس » الحياة البشرية ، ولكن الأساس شىء والبنيان ذاته شىء آخر . فضلا عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية فى « أساسها » ، وإنما هى سيكلوجية أو روحية أو فكرية لا تقل توجيها للناس فى حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد .

أما فرويد وعلم النفس التحليلى كله فيتتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل . ينزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريجة والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة فى الطين . ثم يقول لك : انظر ! أليس هذا هو « الواقع » ؟ ألست ترى معى البذرة الغارقة فى الطين ؟

نعم هذه البذرة حقيقة . ولكن من يقول إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها أبهج الألوان ؟ هل كل ذلك ليس حقيقة ؟ والحقيقة الوحيدة هى البذرة والطين؟

* * *

والفنون الحديثة تنحو هذا المنحى الأحمق ، لكى تكون فنونا واقعية !

الفنانون والنقاد المحدثون يسخرون من الفنون القديمة التى كانت تبرز الجانب الأبيض من الإنسان كأنما كله فضيلة ! ويدعون فى مقابل ذلك إلى تسجيل الإنسان بحسب واقعه . يعنى تسجيل الجانب الأسود من طبيعته وكأنما كله رذيلة ! أستغفر الله ! إن الحديث عن الفضيلة والرذيلة من تراث الماضى البائد الذى يجعل للفنون وللحياة كلها هدفا أخلاقياً . وتلك أفكار رجعية . نحن اليوم معنيون بدراسة « الواقع » وتسجيله صافيا من الخرافات والأوهام !

وفى ظل هذه العقيدة راح الفنانون الغربيون يمزقون الإنسان مزقا ويمرغونها فى الوحل . نزوات الجسد . نوازع الفطرة . صراع الحيوان . خسة الطبع . التواء المشاعر . هذه هى الدراسة الحديثة للإنسان كما ينعكس من كثير من ألوان الفن الحديث .

وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة ، ولا إن الفن ينبغى أن يصورهم ملائكة . ولكن الواقعية الحقة ينبغى أن تشمل الواقع الكبير ، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمة الغليظة ، لأن الواقع الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض ، وإنما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال ، والكمال .

صراع الجسد حقيقة . غلبة النوازع الفطرية على المبادىء والمثل حقيقة . ضعف الإنسان ورضوخه لنزواته حقيقة . ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلبسها كل إنسان فى نفسه حين يحقق كيانه كإنسان . والفن ينبغى ان يشمل الواقع كله بلا تمييز . . الواقع الأكبر والأصدق فى التصوير .

ومانعنى حين ندعو إلى « تطهير » الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط ، أو نلغى تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب . أو نصور الإنسان ملاكا بلا خطايا ولا أخطاء . كلا ! وإنما نعنى أن يكون الضوء

مركزا على سمات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة .

قصة « وسوسة الشيطان » لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول . إنها قصة شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة . وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج ، ولكنها رويدا رويدا تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة تصرعها وتكتم أنفاسها . ويظل يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب ، حتى يقع فى الخطيئة ويرتكب الفاحشة . . . هل رضيتم يا أنصار الواقعية ؟ إنه يصور الفاحشة ! إنه يصور الواقع البشرى كما يحدث على سطح الأرض ! ولكنه لا يتركك والضوء مسلط على منظر الجريمة ! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير إنه يرسم لك لحظة الإفاقة . إنه ينهى القصة بمنظر التوبة . منظر الفتى وهو يتلمس فى ظلمة نفسه أضواء المغفرة . ثم يفتح الباب ليدخل منه النور : كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » . ثم يتركك والنور مسلط هناك !

* * *

والواقعية الأوربية تقول لك : دع عنك أحلام الخيال والمثل العليا . ولنكن واقعيين . أين التضحية التى ترسمها قصص البطولة وترويها الأساطير ؟ أين الشجاعة المثالية والوفاء النبيل ؟ أين مغالبة الأهواء والارتفاع على الضرورة ؟ أليست هذه كلها أساطير « استغفلتنا » بها الأجيال السابقة فى قصص أبطالها وأنبيائها ؟ فلنكن نحن واقعيين . فلنأخذ الإنسان بحقيقته الواقعة . خليط من النوازع الفطرية والنزوات الجامحة . والحياة كلها صراع هذه النزوات وارتطامها بعضها ببعض ، يغلب الأقوى ويسقط الضعيف . لا عبرة بصاحب الحق . فالحق هو القوة.

تعال إلى هؤلاء الأنبياء والقديسين والأبطال والمصلحين . هلم نمزق نفوسهم على المشرحة ، وننظر خلالها فى «الميكرسكوب» انظر : هاهو ذا العفن الذى كانت تخفيه الأساطير . انظر إلى هذه النفس البيضاء السامقة التى يشع منها النور . تفحصها جيدا . ألا ترى نقطة « الضعف البشرى » الكامنة فيها ؟ ألا ترى هذا

التصرف المنحرف من تصرفاتها ؟ ثبّت نظرك هناك ، وسلط هناك كل ما تملك من أنوار !

وهكذا يعيدون دراسة الشخصيات التاريخية بهذا الهدف وتحت هذا الضوء ! يبرزون ما فيها من نقط الضعف ويجسمون ما فيها من البقع تحت « الميكرسكوب » ، ويغفلون — عامدين أو غير عامدين — كل ما فيها من بياض وخير . في سبيل نقطة أو نقط ليست لامعة البياض .

إنها الواقعية . . الحمقاء !

أي كسب للبشرية في تجريح عظمائها وتلويثهم وتشويه صورهم بحجة الواقعية ؟

إنها — فيما أرى — لوثة هذا الجيل . عجز عن الرفعة فراح يحطم المثل الرفيعة من بني الإنسان ، ويترطم إلى الوحل الذي غرق فيه هذا الجيل .

إن وجود النظافة حجة على القذرين . ووجود المرتفعين حجة على الهابطين . فليهبط الجميع وليتسخ الجميع ، حتى يتساوى هؤلاء وهؤلاء ، وتبطل التهمة ويبرأ المتهمون !

لست أقصد أن ننفي عن العظماء لحظات الضعف والهبوط ، ولا أن نصور حياتهم خلوا من دوافع البشر العاديين . ولكن المسألة هي توزيع الأضواء على اللوحة ! لماذا نكون واقعيين فقط حين نغفل كل جوانب العظمة ونبرز جوانب السوء ، ولا نكون واقعيين حين نبرز في الأبطال جانب البطولة ، وهو الجانب البارز حقا في حساب الحياة ؟ !

وماذا تكسب البشرية من إبراز الجوانب الهابطة والنقط الضعيفة ؟ إنها لا تكسب إلا الزيادة الدائمة في الهبوط . هناك مثل إنجليزي يقول : « صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع » . وهو مثل صادق . إنك تحتاج أن تطلب الكثير لتصل إلى المعقول . لأن الذي تحصل عليه دائما أقل مما تصبو إليه . فلو أدركك « التعقل » وقلت في نفسك : ما دمت لا أصل إلا إلى خمسين في المائة

عما أصبو إليه ، فلأهدف منذ البدء إلى خمسين فى المائة . . إذا قلت ذلك فلن تصل إلى الخمسين المنشودة ، لأنك تحصل دائما على أقل مما تصبو إليه !

فهذه الواقعية الحمقاء إذن لا نتيجة لها إلا الهبوط الدائم إلى عالم الضرورة ، وتضييق دائرة « الواقع » حتى يصبح واقع الحيوان .

* * *

وقد كان الإسلام على صواب وهو يرسم للبشرية أهدافها لا على أساس « الواقع » وحده ، بل على أساس ما « فوق الواقع » كذلك .

إنه لا يغفل واقع الإنسان وضروراته . لا يغفل نوازع الجسد وضغط المادة .

إنه لا يرسم مثلا خيالية غير قابلة للتطبيق ، ولا يفترض فى الإنسان غير ما فى طبيعته . ولكنه يبرز له أجمل خصائله وأرفع مشاعره ، ويحاول أن يأخذ بيده إلى حيث الرفعة والسمو . فإذا هبط فى لحظة إلى الواقع الضيق وعالم الضرورة فلا بأس . وباب المحاولة دائما مفتوح . وباب التوبة من اللحظة الهابطة لا يغلق أبدا فى وجه من يعاود الصعود « . . إن الله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين » .

والبشرية فى ظل هذه النظرة وهذا التوجيه كاسبة أبدا ، عاملة أبدا على الصعود : « صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع » . والإسلام يصوب أبدا إلى أعلى ليدرك جمهرة الناس فى النهاية مستوى معقولا من الرفعة ، ويدرك الأقلون المراتب العليا ، ولا يهبط إلى الدرك الأسفل إلا الأقلون .

وهو بهذا « واقعى » جدا وعملى جدا . ولكن على النظرة الشاملة للواقعية ـ النظرة التى تشمل ما فوق الواقع الأصغر ، لأنها ترى الواقع الكبير .

النفس والجسم

ما العلاقة بين النفس والجسم ؟

لقد شغل هذا السؤال الفلاسفة من قديم الزمان ، ثم عاد يشغل العلماء اليوم كما كان يشغل الفلاسفة من قبل .

وتتشعب الآراء بين هؤلاء وهؤلاء فى اتجاهات شتى .

كان الرأى الغالب فى القديم أن النفس هى الجوهر الحق ، أو على الأقل الجوهر الأسمى . وأن الجسم مجرد مظهر ، أو « محل » تحل فيه النفس . أو على أكثر تقدير هو الجوهر الأدنى .

ثم ظل محور الثقل ينتقل رويداً رويداً حتى أوشكت المدرسة التجريبية فى علم النفس أن تقول ـ أو لعلها قالت بالفعل ـ إن الجسم هو الأصل . هو الحقيقة . هو منبع كل ألوان النشاط الحيوى من فكر وحس وإدراك وتذكر وانفعال وتصرف . وإن ما نسميه « النفس » ليس إلا انعكاسا للنشاط الجثمانى . وجاء علماء الغدد ليؤكدوا هذه « الحقيقة ! » حين قالوا إن الغدد هى التى تتصرف فى كل نشاط الإنسان ، وهى موطن غرائزه وميوله ونزعاته . فالأمومة ليست « شعوراً » نبيلا أو غير نبيل ، وإنما هى غدة . إذا نزعتها من موضعها زال الشعور بالأمومة من نفس الأم ، وإذا حقنتها بخلاصتها عاد ذلك الشعور !

وقد كان معروفا منذ القدم أن الجنس إحساس « غدى » يزول بإزالة موضعه فى الجسم ، وتلك كانت فكرة الخصيان فى حريم القدماء . ثم جاء العلم الحديث يضيف إلى ذلك شواهد أخرى ، حتى قال إن التفكير نشاط كهربى فى المخ ، وإن الخوف والشجاعة إفرازات تنقص أو تزيد من الغدة الأدرينالية فوق الكلى .. إلى آخر ذلك اللون من التفكير .

وحقائق العلم التجريبى فى ذلك بارزة ومحيرة .

هل صحيح أن النفس هي مجرد الإطار الخارجي الذى تنعكس فيه كيميائيات الجسم وكهرباؤه . وأنها ليست جوهراً مستقلا كما كان يتصور القدماء ، فضلا عن أن تكون هي الجوهر الأسمى ؟ وهل كل هذه المشاعر النبيلة التى يشيد بها الأخلاقيون والفلاسفة وتدعو إليها الأديان وتسجلها قصص البطولة . . هل هي كلها مجرد إفرازات كيميائية ،عضوية وغير عضوية ، تفرزها أجهزة الجسم المتعددة، أو مجرد نشاط كهربى فى نسيج الجسم ؟

إن الخلاف بين النظرتين ليس مسألة هينة . إنه خلاف فى تقويم الحياة كلها. خلاف فى تقويم « الإنسان » . هل نعامله على أنه نفس أم على أنه جسم ؟ هل نعطيه دروسا فى الأخلاق وتدريبات على الفضيلة أم نعطيه حقنا كيميائية ؟! ولأى شيء ندربه ونهذبه ؟ إن كل هذا التدريب والتهذيب قائم على الأساس النفسى للإنسان . قائم على أن « نفسه » تقبل التهذيب ، و « ترتفع » ، و « تقدر » المثل العليا ، و « تعتنق » المبادىء الرفيعة وتعمل بوحيها ، و « تهفو » إلى الجمال الحسى والمعنوى ، فتقوم بناء على ذلك كله أديان ونظم وعقائد وأفكار . فإذا كان الإنسان غدداً وإفرازات كيميائية ونشاطا كهربيا فما معنى العقائد ؟ وما قيمة المثل؟ وما دلالة الأفكار؟ ولماذا نتعب أنفسنا فى ذلك كله ؟ لماذا نعنِّى أنفسنا « بالقيم»؟ لماذا لا نترك هذا الحيوان الإنسانى يتصرف كما توحى إليه غدده وإفرازاته ، أو كما خلقته « الطبيعة » ؟

* * *

داروِن ؟

هل هو المسئول عن هذا الاتجاه ؟

لا شك أن داروِن من المسئولين عن وضع الأساس المادى الحيوانى للإنسان. ولكن لعلنا نظلمه إن قلنا إنه مسئول وحده عن كل ما حدث بعده من اتجاهات .

فلولا أن هذا هو الاتجاه الغربى الأصيل ما استطاع داروِن وحده أن يجر إليه

كل هذه الأجيال المتعاقبة من المفكرين والمعتنقين للأفكار .

والمسألة لاتحتاج إلى هذا التعب كله !

فمن البديهيات المعروفة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا غذاء . وأنه نشاطه الجسدى والفكرى والنفسى كله متوقف على كمية من الغذاء يتناولها بين الحين والحين . ولكن من يقول إن قصيدة الشعر التى أكتبها أو اللوحة التى أرسمها أو الفكرة التى أبتدعها أو النشوة النفسية التى أحس بها هى المعادل الرياضى لهذا الغذاء بحيث أستطيع أن أكتب هذه المعادلة :

س فيتامينات + ص بروتينات + ع نشويات + ى ماء

= قصيدة فى وصف الربيع ! !

أو = عقيدة

أو = نظرية هندسية !

ولماذا لا تنشأ القصيدة أو العقيدة أو النظرية الهندسية فى جسم الحيوان الذى يشارك الإنسان فى تناول هذه الفيتامينات والبروتينات والنشويات والماء ؟

بل لندع الحيوان جانبا . فقد تكون كيميائياته ناقصة ! لماذا لم يبتدع الناس جميعا نظرية كنظرية النسبية التى ابتدعها إينشتين ، أو أدبا كأدب شكسبير ودستويفسكى ، أو جهازا لاسلكيا كماركونى أو قنبلة ذرية كالعلماء الألمان الذين « سرقهم » الحلفاء فى نهاية الحرب وجندوهم لتفجير الذرة ؟

إن هؤلاء جميعا يأكلون نفس الفيتامينات والبروتينات والنشويات والماء .. ولم يثبت العلم التجريبى أن مخ هؤلاء العباقرة يحوى مادة أخرى غير ما فى أمخاخ الآخرين .

وهل لو أخذنا الإفرازات الكيميائية المتمثلة فى جسد الشاعر وقت « إفرازه » قصيدته ثم حقنّا بها ذلك الجلف الغليظ الحس ، أو حتى ذلك الفتى المرهف الحس

الذى لا دراية له بنظم الشعر . . . هل تكون نتيجة الحقنة أن يمسك بالقلم ويكتب لنا نفس الأبيات التى كتبها الشاعر ؟ !

لم يقل ذلك أحد من السادة العلماء!

كل ماقالوه أن حقنة من الإفرازات الداخلية فى جسم مُتعَب ، تشيع التعب المفاجىء فى الجسم النشيط حين يحقن بها ، لأنها مجموعة من السموم التى تؤثر فى الخلايا والأنسجة فتحيل نشاطها إلى خمول وقالوا إن حقنة من جسم كلب على وشك الموت لأنه حرم من النوم عدة أيام ، قتلت كلبا سليما معافى كان يأخذ نصيبه الطبيعى من النوم والغذاء والرياضة .

نعم . كل ذلك مفهوم . إنه « جسم » يتأثر بإفرازات جسم مماثل . ولكننا لم نجد بعد أن الحقن بالإفرازات الجسمية ينشىء أفكارا وفنونا وعقائد تشابه مثيلاتها عند صاحب الإفرازات !

* * *

ثم إن هذه هى نصف الحقيقة . فلماذا يحتفل بها العلماء كل هذا الاحتفال ويهملون النصف الباقى ؟

لقد جعلوا كل همهم دراسة تأثير الجسم فى النفس . فلماذا لا يدرسون كذلك تأثير النفس فى الجسم ؟

إننى أكون متعبا ، متضايقا ، مهموما ، آيسا من الحياة .. بمعنى أن إفرازاتى الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد رسمت لنفسى هذا الإحساس ، ووجهتها ـ بغير إرادتها ـ هذه الوجهة ... ثم أرى فلانا من الناس أحبه فتنطلق أساريرى وآنس إليه وأنسى نظرتى القاتمة إلى الحياة . . بمعنى أن إفرازاتى الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد تغيرت مناسيبها وأنواعها ، فرسمت لنفسى هذا الاتجاه الجديد. فماذا حدث ياترى؟ هل مجرد الانعكاس الضوئى لصورة هذا الشخص على شبكية العين هى التى تحرك هذه الإفرازات ، بحيث لو نقلت

هذه الإفرازات إلى المعمل ، وعكست عليها صورة الصديق تنقلب ـ كيميائياً ـ إلى إفرازات فرحة مستبشرة ؟ !

أوليست هذه « عملية نفسية » تؤثر فى نشاط الجسم ، وتعدل إفرازاته وكيميائياته ؟

وأكون متعبا .. بمعنى أن إفرازات التعب قد سممت خلايا جسمى وأنسجته. فأعجز عن الاستمرار فى العمل ، وأحس بحاجة ملحة إلى الراحة . ثم فجأة يخطر فى بالى خاطر .. إن المصلحة العليا ، إن العقيدة التى أعتنقها ، إن حبى لفلان من الناس ، إن رغبتى فى زيادة الكسب ، إن رغبتى فى التفوق على فلان .. تعطينى عزيمة جديدة ، فأندفع فى العمل بروح ماضية ، وأحس أن التعب قد زال ، وأننى أستطيع أن أعمل عدداً آخر من الساعات .. فما الذى حدث ؟ من أين جاءت الإفرازات الجديدة التى عدّلت الإفرازات الأولى وعادلت ما فيها من سموم ؟ !

أوليست هذه دوافع نفسية تؤثر فى نشاط الجسم وتغير إفرازاته وكيميائياته؟

وطاقة الجسم البشرى محدودة . محدودة بالحساب المادى لقوة أنسجته واحتمال خلاياه . فكيف حدثت على مدار التاريخ تلك المعجزات من احتمال بعض الأفراد من ذوى العقائد ألوانا من التعذيب لا يتصورها العقل ، ثم ظلوا أحياء ، وظلوا محافظين على قواهم العقلية ، وظلوا مستبشرين للحياة واثقين بالله ، وبعض هذا التعذيب يقتل آخرين ، وبعضه يفسد قواهم العقلية ، وبعضه يورث الهم والحزن ويشيع اليأس من الحياة ؟

* * *

هناك إذن علاقة متبادلة بين النفس والجسم . فما هى يا ترى هذه العلاقة ؟

خطر فى بالى هذا الخاطر : أنه بصرف النظر ـ مؤقتاً ـ عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم ، فإن هناك توازيا بين النفس والجسم فى العمل والاتجاه .

لحظت هذا التوازى وأنا أكتب « الإنسان بين المادية والإسلام » فى أكثر

من اتجاه . لحظته فى التفرقة بين الأمومة والأبوة . وفى التفرقة بين الإحساس الجنسى عند الرجل والمرأة . وفي الحديث عن « الرشاقة » الجسمية والرشاقة النفسية . وفى استعذاب الجسم لقدر من الألم لأداء بعض الوظائف الحيوية ، واستعذاب النفس لقدر من الألم فى سبيل تكوين المثل والأخلاق . كما لحظته فى أن كثيراً من العمليات النفسية تتضح فى الذهن إذا شبهناها بعمليات جسمية مماثلة .

قلت فى الأمومة والأبوة إن إحساس الأم بطفلها هو أنه جزء منها . من صميم كيانها ، تحس وجودها فى وجوده ، ويتحقق كيانها بتحققه . وقلت إن هذا الإحساس النفسى مواز للحقيقة الجسمية وهى نشوء الطفل فى داخل جسم الأم واتحاد كيانهما الجسمي فترة من الزمن يتغذيان من غذاء واحد أو من «كيان» واحد.

وإن إحساس الأب بطفله مختلف . فهو يحس أنه جزء منه ، ولكنه جزء موجود خارج كيانه . والعلاقة بينهما هى مودة الألفة والصداقة أكثر مما هى وحدانية الكيان . وإن هذا الإحساس مواز للحقيقة الجسمية وهى أن « المادة » التى يشارك بها الأب فى تكوين الطفل ، مادة تندفع إلى الخارج ولا تبقى داخل الجسم كما يحدث فى حالة الأم .

لست أقصد أن الاتجاه النفسى ينشأ من الحالة الجسمية ولكنى فقط ألحظ التوازى فى الاتجاه .

وقلت فى مسألة الإحساس الجنسى عند الرجل والمرأة ، إن اتجاه الجسم « يشير » إلى اتجاهات النفس . فبينما نجد الإحساس الجنسى عند المرأة عميقاً جداً وشاملا جداً ، لا يقف عند حدود العمل الجنسى بل يتعداه إلى الحمل والولادة والإرضاع والتنشئة ، ثم يتعداه إلى كيان المرأة كله من تدبيرها لبيتها وتزينها ومختلف رغباتها وأفكارها . . . نجد هذا الإحساس عند الرجل أشبه بالنزوة الطارئة ، بالشحنة الكهربائية التى تطلب التفريغ . وبمجرد التفريغ ينصرف الرجل إلى مجالات أخرى من النشاط ليست جنسية فى منشئها ، حتى تعود

الشحنة تطلب التفريغ من جديد . وإن الإحساس الجثمانى بالجنس مواز لهذه الاتجاهات عند الرجل والمرأة . فبينما يتركز إحساس الرجل فى منطقة بعينها ، ينتشر إحساس المرأة فى جسمها كله وإن كان يتركز فى مناطق معينة بعضها داخل الجسم وبعضها على السطح .

وقلت إن الجسم فى سبيل الحصول على الرشاقة يحتمل كثيراً من الجهد ويحتاج إلى كثير من التدريبات لا يصل إلى الرشاقة بدونها ، ولكنه بعد ذلك ينعم بهذه الرشاقة ويحس بالخفة والانطلاق . وكذلك النفس تحتاج إلى تدريبات وجهد ، وامتناع عن بعض الرغبات لتصل إلى الرشاقة النفسية ، ولكنها بعد ذلك تنعم بهذه الرشاقة وتحس بالخفة والانطلاق .

وقلت إن بعض الوظائف الحيوية كنمو الأسنان مثلا يصحبه شىء من الألم . فلو لم يكن فى الجسم استعداد لتحمل قدر من الألم بل استعذابه أحيانا لما أمكن أن تتم هذه الوظائف الحيوية فى يسر . وكذلك تكوين المثل والأخلاق يحتاج إلى تحمل قدر من الألم ، وفى النفس استعداد له يوازى الاستعداد الجسمى لتحمل الألم ، وبذلك يصبح تكوّن هذه المثل والأخلاق ميسرا فى النفس حين توجه إليها .

وثمت كثير من التشبيهات يصلح التمثيل فيها بما يحدث فى الجسم لشرح ما يحدث فى النفس .

فالعضلات الجسمية تتضخم وتقوى بالتدريب المستمر والاستخدام الطويل ، وتذبل وتضوى بالإهمال حتى لتكاد تعجز عن وظيفتها . والخصائص النفسية كذلك لا بد من استخدامها وتدريبها لتقوى . وإذا أهملتها ذوت وضعفت حتى كأنها غير موجودة . ومن هنا يعجز العبد عن التصرف الحر ، لا لأن كيانه النفسى مختلف فى أصله عن كيان الحر ، ولكن لأنه لا يستخدم أجهزة التصرف . وهذا ما يلجأ إليه الاستعمار فى استعباد الشعوب نفسيا إذ يسلبون الشعوب حرية التصرف فتستعبد على مر الأيام .

والكيمياء الجاهزة يحتاج إليها الجسم أحيانا فى صورة فيتامينات . ولكنها لا تؤدى مهمة الغذاء الطبيعى كاملة ، إذ أن الجسم يستفيد أكثر من الغذاء الذى يهضمه ويمثله ويختار منه مايريده ويطرد فضلاته : أى يتفاعل معه تفاعلا إيجابيا فى كل مرحلة من المراحل . والنفس كذلك . قد تحتاج أحيانا إلى أفكار جاهزة ومشاعر جاهزة ولكنها لا تستطيع أن تعيش عليها ؛ ولا بد أن تذوى وتضعف إن لم تقم بالتفاعل الإيجابى مع الأفكار . لهذا يقف النمو النفسى للشعوب الجماعية ، ذوات الحكومات الدكتاتورية التى تلقنها أفكارا جاهزة ومشاعر جاهزة تنتجها معامل الدولة كما يحدث فى الشيوعية .

وغير ذلك كثير .

كلها أمثلة تشير إلى وجود تواز بين كثير من التصرفات النفسية والتصرفات الجسمية فى الإنسان .

* * *

لذلك خطر لى أنه بصرف النظر ـ مؤقتا ـ عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم ، فإن أقرب صورة للعلاقة بينهما هى السلم الخشبى ذو القائمتين تربط بينهما قوائم عرضية .

هذا السلم يرتكز على قائمتين شبه متوازيتين ، تلتقيان ـ نظريا ـ لو مددنا كل قائمة إلى نهايتها . ولكنهما فى وضعهما الموجود بالفعل تلتقيان عن طريق العوارض الصغيرة التى تربط كلا منهما بالأخرى . والراكب على السلم يرتكز على كل من القائمتين فى ذات الوقت عن طريق هذه العوارض . وقد يكون ثقله أحيانا أقرب إلى هذه القائمة أو تلك ، ولكنه فى كل حالاته مرتكز عليهما معا فى ذات الوقت . ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون مرتكزا فيها على إحدى القائمتين دون الأخرى .

تلك أقرب صور الخيال إلى الواقع .

فكل عمل يقوم به الإنسان يؤديه بنفسه وجسمه فى آن واحد . ومهما يكن من بروز أحد الجانبين فى لحظة من اللحظات ، فالاتصال بينهما قائم فى كل لحظة ، والعمل مرتكز على كليهما فى ذات الوقت .

أدخل الأمور فى الناحية النفسية : النشوة التى أحسها بين جنبى وأنا جالس لا أتحرك ، يصحبها تغير فى إفرازات الجسم ينتج عنه نشاط جثمانى غير مقصود . حتى ليهم الإنسان أحيانا بالنط والقفز ليعبر عن « شعور » حى متوفز .

وأدخل الأمور فى الناحية الجسمية : تناول الطعام ، يصحبه سرور بمذاق الطعام وارتياح نفسى له ينتج عنه الرضا والانبساط .

وكثير من الحالات الأخرى تقع بين بين ، ويبدو فيها الازدواج بشكل ملحوظ .

* * *

وندع للعلم أن يبحث بكل وسائله عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم . . .

ولكننا نطمئن إلى هذه الحقيقة التى يرسمها السلم الخشبى ذو القائمتين . . .

ونبحث فى النظم والعقائد التى تعامل « الإنسان » ، فنجد الإسلام من بينها أكثر نظم إدراكا لهذه الحقيقة ، وتمشيا معها فى واقع الحياة .

إنه يأخذ الإنسان ككل : عقله وجسمه ونفسه وروحه . نشاطه الجسمى ونشاطه النفسى والروحى كلاهما داخل فى الحساب . مطالب جسده ومطالب روحه جزآن من النظام متكاملان لا متعارضان . .

وبينما ترتكز بعض العقائد على ركيزة واحدة ، ركيزة الروح ، وتجنح بعض النظم إلى العناية الفائقة بمطالب الجسد وإهمال مطالب الروح ، وتحاول كلتاهما أن تقف على إحدى القائمتين دون الأخرى فتتزلزل وتقع ، أو تعجز عن الوقوف

الطويل ، نجد الإسلام يعمل على أساس وحدة الجسم والنفس ، حتى ليجعل العبادة عملا والعمل عبادة ولا يفصل بين الماديات والروحيات ، ولا بين الأرض والسماء . كله وحدة مترابطة الأجزاء .

العبادة الإسلامية ليست سبحات روحية خالصة ولا تهويما صامتا فى الملكوت . بل هى « حركات » جسمية فى ذات الوقت الذى تتحرك فيه النفس من الداخل بشتى الانفعالات والوجدانات . والصلاة الإسلامية أبرز الأمثلة لما نقول[١].

والعمل فى ظل العقيدة الإسلامية يعتبر عبادة ما دام الإنسان يتوجه به إلى الله ولا يسعى به إلى ضرر مخلوق من خلق الله .

والقرآن تشريع وتهذيب فى وقت واحد . تنظيم لحياة الأرض وربط لها بحياة السماء .

والدنيا والآخرة ليستا منفصلتين .

وضرورات الجسد وأشواق الروح غير متنافرتين .

حتى نشوة الجسد الخالصة فى العمل الجنسى يتوجه بها الإنسان إلى الله إذ يقرأ عليها اسمه الكريم فإذا هى عبادة وإذا له عليها أجر !

والتشريع القائم على وجدان التقوى ومشاعر الخوف من الله تشريع يقوم فى الوقت ذاته على القوة المادية اللازمة للتنفيذ . وهو ينظم مسائل الغذاء والكساء والجنس والتعايش السلمى بين البشر ، فى ذات الوقت الذى ينظم ارتباطاتهم الوجدانية بالمحبة فى الله .

وهو لذلك أشمل النظم وأعمقها وأقواها . لأنه يتمشى مع الفطرة البشرية . ويدرك حقيقة الترابط بين الجسم والنفس فى كيان الإنسان .

ولكننا فى حاجة إلى تفهمه وتدبره لنرتكز على كلتا الركيزتين . ولو أدركنا حقيقة الكيان الإنسانى لاهتدينا لتونا إلى حقيقة الإسلام !

---

(١) اقرأ بعد ذلك فصل « العبادات الإسلامية » .

الطاقة البشرية المحايدة بين الخير والشر

قرأت لفرويد كلمة أعجبتني . فهو لا يزال يبدىء ويعيد فى كل كتبه أن الطاقة البشرية جنسية فى طبيعتها . ويصل فى ذلك إلى حد الافتعال والسخف . ولكنه مرة واحدة فى أحد كتبه قال إن النفس البشرية تشتمل بجانب ذلك على طاقة « محايدة » لا لون لها ، ولكن المشاعر القوية فى النفس تستخدم هذه الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها .

هنا كان فرويد معقولا على غير عادته !

وسرحت بفكرى أتدبر هذا القول من وجهة نظرى الخاصة .

وتركت فرويد وفلسفته الجنسية . ورحت أبحث المسألة من ناحية الخير والشر . الخير والشر بأى مقياس من مقاييس السماء أو مقاييس الأرض . . .

وخطرت لى خواطر عجيبة . . إن الطاقة النفسية كلها . . فيما عدا خطوطا قليلة جدا . . محايدة بين الخير والشر . لا لون لها فى ذاتها . ولكن التوجيه الذى يقع لها هو الذى يحولها إلى طاقة خيرة أو طاقة شريرة .

هذا تيار من الماء تستطيع أن تحوله لرى الأرض واستنبات النبات أو تستطيع أن تغرق به الأرض وتقتل الحياة . هو فى الحالة الأولى خير . وفى الحالة الثانية شر . ولكنه هو الماء ذاته فى الحالتين . لم تتغير طبيعته . ولكن تغيرت وظيفته .

وهذا تيار من الكهرباء تستطيع أن تضىء به المصابيح هدى ونورا للناس . وتستطيع أن تصعق به الأحياء . هو فى إحدى حالتيه خير وفى الثانية شر . ولكنه هو هو تيار الكهرباء لم يطرأ عليه تغيير .

وكذلك الطاقة النفسية . طاقة محايدة . تصلح أن تستخدمها للخير كما تصلح هى ذاتها أن تستخدمها فى الشر . لا تتغير طبيعتها فى الحالتين وإنما يتغير التوجيه .
خذ طاقة الجنس . أشر هى فى ذاتها أم خير ؟

لا شىء من ذلك . إنها طاقة ميكانيكية جسمية توازيها طاقة نفسية تتحرك معها فى نفس الاتجاه . وليس الخير أو الشر كامنا فى طبيعتها . ولكنك توجهها أنى شئت . توجهها لإحداث النسل ، فى الطريق التى تتمشى مع أهداف الحياة وتحققها فى نظافة فإذا هى خير . خير لا يستحى المسلم أن يقرأ عليه اسم الله الكريم . وتوجهها لهدف منقطع عن هدف الحياة ، ناشز منحرف ، فإذا هى شر . شر تنبغى محاربته وإعلان الحرب عليه .

وخذ طاقة القتال . إن الإنسان السوى مشتمل على هذه الطاقة كجزء من بنيته . ولكن شر هى أم خير ؟

لا هذا ولا ذاك . إنها مجرد قدرة على الصراع . قدرة ميكانيكية جسمية توازيها قدرة نفسية فى ذات الاتجاه . وهى ليست فى ذاتها خيرا أو شرا . ولكنك تستخدمها لإقامة الحق والعدل ودفع الظلم والعدوان فهى خير وتستخدمها فى الظلم والعدوان فهى شر واضح مبين .

وشبيه بالطاقه النفسية الطاقة الفكرية والروحية .

فالقدرة على التفكير طاقة محايدة . ولكنك تستخدمها للنفع العام فهى خيرة ، وتستخدمها للإيذاء وإيقاع الضرر فهى شريرة . ولكنها هى فى ذاتها من حيث هى نشاط بشرى لم تتغير فى الحالتين .

وكذلك الطاقة الروحية . وقد غلب على الناس أن يتصوروا الطاقة الروحية مقرونة بالخير والنقاء والسمو . ولكنها ـ ككل طاقة بشرية ـ محايدة فى ذاتها وصالحة لكلا التوجيهين . إنها ـ كالذكاء ، وككل الطاقات الأخرى ـ موهبة توهب للناس على درجات متفاوتة . فهى عند بعضهم ضعيفة بحيث لا تكاد تظهر ،

وعند آخرين قوية واضحة الآثار . والشخص ذو الموهبة الروحية الخارقة يستطيع أن يوجهها إلى الخير أو الشر سواء . وقصة راسبوتين ساحر روسيا معروفة فى التاريخ . إنها طاقة روحية جبارة وجهت وجهة الشر والأذى والإيقاع بالناس. وقصص الأنبياء والقديسين معروفة كذلك فى التاريخ . طاقة روحية خارقة وجهت وجهة الخير . وليس الناس كلهم أنبياء وقديسين ، وليسوا كلهم راسبوتين . ولكن الواقع المشهود يعرف درجات مختلفة من الطاقة الروحية تستخدم للخير والشر سواء .

* * *

هناك إذن نتيجة نستطيع أن نطمئن إليها : هى أن الطاقة البشرية ـ فى معظمها ـ طاقة محايدة تصلح للخير والشر بحسب ما تتلقاه من توجيه . ونقول فى معظمها احتياطا فقط ، وإن كنت كلما أمعنت فى التفكير لا أجد شيئا له فى ذاته لون ثابت متميز بحيث لا يقبل التلوين[1] .

ومن هنا تنشأ القيمة الخطيرة للتربية والتوجيه . إنها قيمة بالغة الخطورة . لأنه يتوقف عليها اللون الذى تأخذه هذه الطاقة المحايدة الصالحة لمختلف الألوان.

فى الحيوان تأخذ الطاقة لونا واحدا لا تكاد تغيره . لونا يهدف إلى التحقيق المباشر لمطالب الحيوان . ومن هنا لا يوصف تصرفه بأنه خيّر أو شرير . لأن هذه التفرقة لا توجد إلا حيث توجد الألوان المتميزة ، وتوجد القدرة على اتخاذ مختلف الألوان .

والإنسان ـ وحده فيما نعرف من المخلوقات ـ هو المخلوق المتعدد الألوان ، القابل للتلوين .

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها .. »

نعم . « النفس » البشرية وحدها هى التى تعرف الفجور والتقوى . تعرف

(١) انظر كتاب « منهج التربية الإسلامية » وكتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

النقيضين وتقدر على النقيضين . ومن هنا توصف أعمال الإنسان بأنها خير أو شر ، ويعاقب أو يثاب .

« قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها . . »(١)

وقد وجد فى القرن العشرين ناس يريدون أن يردوا الإنسان حيوانا لا توصف أعماله بالخير أو الشر . ناس يغفلون قدرة الإنسان على التلون ، ويجعلون من طبيعته المزدوجة طبيعة مفردة الاتجاه .

ناس من أولئك يوجدون فى أمريكا يقولون لك : ما دخل المسألة الجنسية بالأخلاق ؟ إنها عملية « بيولوجية » ليست لها صفة خلقية . . تماما كالحيوان !

---

(١) العقوبة قائمة على أساس قدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر . والمسئولية الكاملة عن أى جريمة ترتكب ، هى فى الواقع مسئولية موزعة بين الفاعل الأصلى للجرم ، وأبويه اللذين نشآه ، وأهله وأصدقائه (البيئة بصفة عامة) والحاكم الذى يشرف على سياسة الدولة . وهم يتقاسمونها بينهم بنسب مختلفة . ولكن نصيب فاعل الجرم لا يكون صفرا إلا فى حالة الاضطرار الكامل : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » . أو إذا كان مصابا بعيب وظيفى فى القدرة على التفكير ، وعندئذ تسقط عنه المسئولية . أما الاتجاهات الحديثة التى تخلى المجرم من المسئولية إخلاء كاملا باعتباره ضحية الأوضاع الفاسدة فى المجتمع ، أو ضحية التوجيه الفاسد ، فهى تسقط من حسابها قدرة الفرد الفطرية على التمييز ، وقدرته الفطرية على ضبط تصرفاته ، وتعتبره مخلوقا سلبيا خالصا . وهذا ليس حقيقة علمية . فالطفل الصغير يتمكن — ولو لم يمرنه أحد — من ضبط إفرازاته بعد فترة من مولده ، مما يدل على أن مقدرة الضبط فطرية ، وكذلك القدرة على ضبط الانفعالات والتصرفات . وليس ينكر أحد المسئولية العظيمة التى تقع على المجتمع والبيئة ، والقيمة الخطيرة للتربية والتوجيه . ولكن ذلك كما قلنا ليس معناه إلغاء المسئولية عن فاعل الجريمة فى كل حالة . ولعل من المناسب هنا أن نذكر الحادثة التى سرق فيها بعض الغلمان ناقة على عهد عمر ، فلم يقم عليهم الحد . بل وقع العقوبة على صاحبهم وقال له : « والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو سرق ما حرم الله عليه حل له . . لقطعت أيديهم . فإذ لم أفعل ذلك فلأغرمنك غرامة توجعك » . فهنا اضطرار واضح أسقط المسئولية عن الفاعل . ولكن علم النفس التحليلى الحديث يبالغ مبالغة معيبة فى تصوير الدوافع القهرية للجريمة .

وناس شبيهون بهم من أنصار التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ يقولون لك : إن الاستعمار ليس مسألة خلقية ، ولا تدخل فيه الاعتبارات الإنسانية . لا يقال إنه ظالم أو غير ظالم . إنه حركة طبيعية كأكل القطة للفأر . عملية لا بد أن تحدث ، ولا يقال عنها إنها خير أو شر !

وهؤلاء هم خلاصة المدنية الحديثة ! خلاصتها أن ترد الإنسان حيوانا ذا لون واحد وطبيعة واحدة . بينما المعجزة الكبرى فى خلق الإنسان هى طبيعته المزدوجة اللون والاتجاه .

* * *

والتربية كما قلنا هى أخطر مهام الإنسانية . هى التى يتوقف عليها أن نصبح آدميين أو يرتد حيوانات . هى التى تجعلنا نزكى أنفسنا أو ندسيها . . فنفلح أو نخيب .

وقد أدرك الإنسان منذ فجر حياته قيمة التربية فوضع لها قواعد وأهدافا تتناسب مع درجة وعيه لنفسه وإدراكه لحقيقة رسالته فى الأرض . وما تزال التربية موضع العناية من الشعوب كلها وإن اختلفت قواعدها وأهدافها بين الخطأ والصواب .

والتربية الغربية الحديثة — على براعتها الفائقة ودقتها المتناهية — هى أخطر ما عرفته البشرية فى تاريخها . وأقربها إلى إفساد الإنسانية ، ما لم يصحُ الغرب إلى أخطائه ويرتد إلى الصواب .

ذلك أنها — فيما تزعم — تعتمد على أبحاث العلم التجريبى .

والعلم التجريبى مظلوم فى هذا الزعم . فهو — ككل الطاقات البشرية — عنصر يصلح أن يوجه للخير كما يوجه للشر !

وقد فتن العلماء أن يبحثوا الإنسان « على طبيعته » . أى بغير توجيه معين . والإنسان على طبيعته أقرب إلى الهبوط والانحراف إلى الشر .

ولا يتعارض ذلك مع ما قلناه من قبل من أن الطاقة البشرية محايدة فى ذاتها ، ليس لها لون متميز . .

ونرجع إلى قولة فرويد : إن النفس البشرية تشتمل على طاقة محايدة . ولكن المشاعر الأقوى فى النفس تستخدمها وتسخرها لأغراضها .

فالطفل يولد وله طاقات محايدة لا لون لها ولا اتجاه . . [1]

ثم يحس بالجوع ـ مثلا ـ فيوجه طاقاته للبحث عن الثدى ، ثم إلى عملية الرضاعة.

ويحس بالحاجة إلى إخراج فضلاته فيوجه بعض طاقاته لإخراجها .

ويحس بالخوف فيوجه بعض طاقاته للاحتماء فى صدر أمه .

ويحس بالحاجة إلى « المجتمع » فيوجه بعض طاقاته للاتصال بالآخرين .

ورويدا رويدا تتلون الطاقة حسبما تسخرها حاجات الطفل .

أى أنه فى هذه الفترة محكوم بضروراته ، وطاقاته خاضعة لهذه الضرورات . فهو فى ذلك أشبه بالحيوان .

ولكن كيانه ينمو بعد ذلك ولا يقف عند هذا الحد الحيوانى . فنى بنيته مقدرات أخرى ، وأشواق أعلى من الضرورات . هذه الأشواق تتأخر فى الظهور ، ولكنها طور طبيعى من أطوار الإنسان . كعملية الإزهار فى النبات . تأتى متأخرة ولكنها طبيعية .

وهذه الأشواق العليا تستطيع أن تستخدم الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها كما تصنع الضرورات . ولكنها فى حاجة إلى معاونة من الخارج ، معاونة فعالة لإنضاجها وتوجيهها الوجهة الصحيحة . وإلا انحرفت أو تأخرت فى الظهور .

وكونها فى حاجة إلى المعاونة الخارجية ليس معناه أنها مفتعلة ، أو مفروضة من الخارج ، أو غير طبيعية كما يزعم فرويد ومن ذهب مذهبه . كلا ! فالطفل

(١) هذا لا ينفى أثر الوراثة . فكما أن بعض الأطفال يرثون ضعف البنية أو قوتها ، وضعف الذكاء أو قوته ، فلا شك أنهم يرثون كذلك ضعف القدرة على ضبط النفس أو قوتها . ولكن هذا لا يلغى أثر التربية ، بل إنه يضاعف مهمتها فى مثل هذه الحالة لتقويم الانحراف أو تخفيفه . والتجربة العملية تثبت أن التوجيه الصحيح للطفل المنحرف أو ذى الاستعداد الوراثى للانحراف ضد أكبر الفائدة فى تقويمه .

يحتاج - لكى يمشى - إلى معاونة خارجية تسنده حتى يستطيع أن ينظم خطواته ويضبطها . وإذا لم تعاونه فربما نشأ كسيحاً أو تأخر مشيه عن موعده . والمشى مع ذلك قدرة طبيعية يولد بها الطفل ، وليست تفرض عليه من خارج كيانه .

وكذلك الأشواق العليا التى تخرج بالإنسان من صالحه الخاص إلى صالح غيره، وتجنح به إلى المعايشة السلمية القائمة على الحب المتبادل والتعاون بين الجميع . هى جزء من الفطرة البشرية كالأشواق الذاتية الأنانية سواء بسواء . ولكنها - كتعليم المشى - تحتاج إلى معاونة خارجية .

وتلك هى مهمة التربية .

فإذا أخذنا الإنسان « على طبيعته » بمعنى دراسته دون توجيه ولا تهذيب ، فإننا بذلك نغفل من حسابنا الجانب الآخر من طبيعته ، الجانب الموجود فى حالة كامنة ، والذى يحتاج إلى التوجيه لكى يظهر للعيان (١) .

وإذا وضعنا قواعد التربية على هذا الأساس - الذى نزعم خطأ أنه الأساس الطبيعى - فمعنى ذلك أننا نترك الإنسان محكوما بضروراته إلى الأبد ، ونترك الطاقة المحايدة تتلون بهذا اللون فتصبح بعد حين طاقة شريرة شريرة لا لأن ضرورات الإنسان فى ذاتها شريرة ، ولكن لأن غياب العنصر الآخر الذى يعادلها يجعلها تتطرف فى اتجاه واحد . وذلك ما نسميه بالشر لأنه - كما ثبت من التجربة - يعود بالضرر على الفرد وعلى الجماعة .

---

(١) لا بأس أن تتخصص بعض الدراسات النفسية فى دراسة الطفل كما هو بدون توجيه ، على أن يكون مفهوما منذ البدء أنها دراسة ناقصة ، لا تصلح للتطبيق العملى ، وإنما كل مهمتها أن تتعرف على الطاقة الحيوية فى صورتها « البرية » للاستفادة من ذلك عند وضع القواعد الصالحة للتهذيب . أما أن يتصور علم النفس أن الطفل فى هذه الصورة هو الطفل الطبيعى ، أو أن هذه الصورة هى التى ينبغى أن يكون عليها الطفل ، فهذا هو الخطأ والخطر الذى تنذر به بعض الدراسات النفسية المعاصرة .

فطاقة التملك ـ وهى طاقة فى ذاتها محايدة ـ لو تركت للضرورات وحدها تحكمها ، تتخذ بعد حين لون السرقة والغصب والاحتيال والنصب . والغرب لا يتركها لحكم الضرورات ، بل يهذبها تهذيبا فائقا يصل إلى حد معجب . وذلك باستخدام الأشواق العليا التى توازن هذه الطاقة وتمنع انحرافها .

وطاقة القتال ـ وهى كذلك طاقة محايدة ـ لو تركت للضرورات وحدها تحكمها ، تتخذ بعد حين لون العدوان . والغرب لا يتركها كذلك ، بل يبالغ فى تهذيبها بإطلاق الأشواق العليا التى توازنها وتقف دون ضراوتها .

ولكنها المشكلة الجنسية هى التى ينحرف فيها الغرب أعظم انحراف . ولست أدرى لم يخصها وحدها بأنها مسألة بيولوجية لا تخضع لحكم الأخلاق . بينما الطعام أيضا مسألة بيولوجية ، وكان يمكن ـ على نفس الأساس ـ أن تباح فيه الفوضى فيأكل كل الناس من حيث شاء لهم مزاجهم بلا ضوابط ولا حدود !

كما أن عيب الغرب الأكبر أنه لا يجعل تهذيبه على أساس إنسانى ولكن على أساس قومى . ومن هنا يعيش القوم داخل وطنهم على خير ما يكون ، فإذا برز قوم لقوم تصارعوا كالوحوش الضارية بصرف النظر عن الظالم والمظلوم.

* * *

والإسلام قد أدرك الطبيعة البشرية المحايدة الطاقة المزدوجة الاتجاه :

« و نفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

وأوجب تزكيتها . أى تربيتها وتهذيبها . وجعل ذلك أمانة فى عنق الوالدين وأولياء الأمور .

وجعل هذه التزكية على أساس إنسانى بحت لا يعرف فوارق الوطن ولا اللغة ولا الجنس ولا حتى العقيدة

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . . . » « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . . » .

وجعل أساس هذه التزكية هو التهذيب لا الكبت .

فهو لا يحب أن يمحق طاقة حيوية أو يعطلها عن عملها . لأنه يعرف أن كل طاقة حيوية يشتمل عليها الإنسان هى جزء من كيانه ضرورى له فى حياته . وتعطيله أو كبته معناه إهدار هذه الطاقة وتضييع الفائدة المرجوة منها .

ولكنه كذلك لا يترك الإنسان « على طبيعته » بالمعنى الخاطىء من هذا التعبير ، الذى يزعم أن ضرورات الجسد هى الطبيعة الوحيدة للإنسان . بل يتركه «على طبيعتيه» . فيعطى ضرورات جسده نصيبها المعقول : « إن لبدنك عليك حقا » ويعطى أشواقه العليا نصيبها المعقول : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » ويوازن بين هذه وتلك « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

والإنسان بعد من أعظم معجزات الخلق : لا هو بالملاك ولا بالشيطان . ولكنه مشتمل على الخير والشر ، وقادر فى لحظات الارتفاع أن يصبح كالملائكة ، وقادر فى لحظات الهبوط أن يصبح كالشياطين .

العبادات الإسلامية

هناك مزية بارزة فى العبادات الإسلامية : أنها كلها تمزج بين الدنيا والآخرة ، وتصل بين الأرض والسماء .

ليس من بينها « عبادة خالصة » منقطعة الصلة عن عالم الأرض . وإنما كلها تشتمل على جانب « تعبدى » موجه للسماء ، مقصود به الآخرة ، وتشتمل فى الوقت ذاته على جانب عملى ، موجه لواقع الأرض ، مقصود به الحياة الدنيا ، وتنظيمها وإقامتها على أسس مكينة من النظافة والعدالة والصلاح والاستقرار .

والمزية العظمى ـ كما ذكرنا ـ هى مزج هذه وتلك ، بحيث يصبح الشىء الواحد عملا وعبادة فى ذات الوقت ، وتصبح الدنيا والآخرة متصلتين متحدتين فى الفكر والضمير ، ويصبح الكائن البشرى يمشى بجسمه على الأرض وروحه متطلعة إلى السماء .

* * *

كل العبادات الإسلامية ينطبق عليها هذا الوصف حتى التى تبدو لأول وهلة أنها مجرد صلة بين العبد والرب ، أو عمل يعمل فى الدنيا لغير شىء إلا رجاء الثواب فى الآخرة . . حتى هذه لا تغفل الحياة الدنيا ، ولا تنفصل نتائجها العملية عن عالم الناس .

خذ العبادات واحدة واحدة . . .

شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

لعل الشق الأول من الشهادة يبدو من أبرز الأمثلة على « العبادات الخالصة » التى تنشىء صلة مجردة بين العبد والرب . فهى الإقرار لله بالألوهية المطلقة ، والإقرار بالعبودية الكاملة لله . ولا شىء غير ذلك !

كلا : إنها ليست ذلك فحسب .

إن الإقرار بالعبودية لله وحده ، والإقرار بالألوهية لله وحده ، معناه نفى الألوهية عن كل ما عدا الله . ونفى العبودية لأحد غير الله . معناه عدم الخضوع لأحد - كائنا من كان - إلا الله . معناه أن السلطة الحقيقية التى ينبغى أن تعبد وتطاع هى سلطة الله ، ولا سلطة لأحد إطلاقا غير الله .

معناه أن الله وحده هو القوة المدبرة لهذا الكون كله . وأنه لا تدبير لبشر فى صغيرة ولا كبيرة إلا أن يشاء الله . ومن ثم تتجه القلوب كلها إلى الله ، ولا تطلب العون من أحد سواه .

معناه أن قوى الأرض كلها ينبغى أن تتجه فى أعمالها وأقوالها إلى الله ، تهتدى بهديه وتسترشد بنوره .

ومن ثم لا تصبح مجرد ألفاظ . . ولا تكون مجرد صلة بين العبد والرب . وإنما هى واقع أرضى عظيم الخطر كبير الشأن . واقع أرضى تقوم عليه «السياسة» الأرضية كلها بأوسع مدلولها : سياسة الحكم والمال والقضاء والإدارة . . وكل تنظيمات الأرض ، والعلاقات التى تقوم بين طوائف المجتمع المختلفة ، المتضاربة المصالح والحقوق والواجبات .

أما الشق الآخر من الشهادة فواضح الدلالة على المصدر الذى نستقى منه ، ونفسر به كلام الله . فالرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الترجمة العملية الكاملة الواضحة للفكرة الإسلامية كما وضعها الله . ومن ثم فهو القدوة التى يقتدى بها ، والمثل الذى ينظر إليه .

إن المسلمين لا ينبغى لهم أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغرب يبحثون عن القدوة والمثال . فأمامهم المثال الكامل عبد الله ورسوله الذى اصطفاه ليكون معلم البشرية وهاديها إلى النور . وهذا المثال لو تدبروه لوجدوا فيه كل جوانب حياتهم الدنيوية والأخروية . محمد الإنسان. محمد الزوج .محمد الأب محمد الحاكم .

محمد القاضى . محمد القائد . محمد المجاهد . محمد المتعبد . محمد الروحانية الصافية والواقعية الكاملة فى مزاج واحد وطبيعة واحدة . . محمد الذى شمل اتجاهات البشرية النظيفة كلها ، وشمل من كل منها قدراً يكفى وحده ليملأ حياة إنسان !

ذلك هو المثال الذى ينبغى أن يحتذى بقدر ما تطيق قدرة البشر ، وبقدر ما يستطيع كل إنسان أن يستوعب من جوانب نفسه العميقة الشاملة الصافية . وذلك هو المقياس الذى يقيس كل إنسان حياته عليه ، ليعرف إلى أى مدى هو مخطىء ، وإلى أى مدى هو على صواب .

فليست هى إذن مجرد ألفاظ يلفظ بها لسانه ، ولا مجرد « وجد » يشعر به الإنسان لذكر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو التوجيه العملى نحو القدوة الكاملة ، وما يتبع ذلك من تأثير فى حياة الفرد والجماعة فى علاقتهم بعضهم ببعض ، وفى الأسس كلها التى تقوم عليها الحياة [1] .

* * *

والصلاة . . قد تبدو كذلك لأول وهلة عبادة خالصة .

ولكنها ليست كذلك فى واقع الحياة الإسلامية . إن أثرها الدنيوى ملحوظ حتى وهى عبادة فردية يقوم بها الإنسان فى خلوته ، فما بالك وهى صلاة جماعة ، يلتقى فيها الناس على نظام معين ، وتتحد أجسامهم وقلوبهم فى قبلة واحدة ؟

والصلاة الإسلامية تستحق أن تنفرد لها كلمة ينوه فيها بمدلولها الخاص الذى لا تجده فى أنواع الصلاة الأخرى .

إن الصلاة فى كل عبادة هى عنوانها وترجمانها ، وهى « ملخصها » الذى يدل على مبادئها واتجاهاتها .

فبينما نجد الصلاة فى بعض العقائد التى تجنح إلى الروحانية الخالصة ، أنغاما موسيقية ساجية ، وترتيلا مبهما ، وغناء مؤثرا ، مع السكون الشامل يشمل

---

(١) انظر كتاب « قبسات من الرسول » .

المصلين فلا تتحرك أجسامهم ولا عقولهم ، وإنما تسبح أرواحهم فى الملكوت وهم قعود . . .

وبينما نجدها فى بعض العقائد الوثنية ذات المعبودات الحسية القريبة حركات جسمية عنيفة ، وطبولا مدوية وصرخات مجنونة . . .

نجد الصلاة الإسلامية عنوانا للفكرة الإسلامية ، التى تشمل الكيان البشرى كله فى آن واحد : جسمه وعقله وروحه ، تعطى كلا منها نصيبه ، وتوازن بين شتى الاتجاهات .

نصيب الجسد فى الصلاة هو الحركة التى يقوم بها من قيام وركوع وسجود وتحرك وسكون .

ونصيب العقل هو التفكر فيما يتلوه المصلى من الأدعية والآيات . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت » .

ونصيب الروح هو الخشوع والتقوى والتطلع إلى الله والاتصال بنوره الشفيف . وكل ذلك فى آن .

ليست هناك حركة هى جسم فقط . أو عقل فقط . أو روح فقط . .

وإنما هى الجسم والعقل والروح فى كيان واحد متكامل ممتزج الأجزاء[1] .

والصلاة تَوَجُّهٌ إلى الله بالدعاء . ذلك أمر واضح لا يحتاج إلى بيان . ولكن هذا التوجه له أثره العملى فى حياة الفرد ، حين يؤدى الصلاة على حقيقتها ، ولا يؤديها مجرد حركات وكلمات . .

ولقد جربت اللحظات التى أصلى فيها بكامل نفسى ، وخاصة صلاة العشاء . كم مرة ملأ نفسى الظلام والإجهاد . . كم مرة يئست من حياتى وأحسست بتفاهتها وضآلتها وقلة جدواها . . كم مرة أحسست أن الحمل الذى أحمله أثقل من أن أقدر على حمله . . كم مرة أحسست أنى لا أستطيع . . لا أستطيع أن

---

(١) الفكرة مأخوذة من حديث لسيد قطب فى إحدى محاضراته .

أستمر فى هذا الجهد المرهق بلا نتيجة ، والساقية الدائرة بلا انقطاع . كم مرة احسست أن آخر طاقتى هى الليلة . وأنه لا شىء قد بقى للغد . لا زاد ولا طاقة ولا قدرة على الصراع . . .

ثم أصلى . .

أهو سحر ؟ ! أهو وهم وخداع ؟

هذه اليد الرفيقة الحانية التى تمتد فى خفة ورفق، فتمسح على صدرى فيطمئن وتمسح على آلامى فليس لها وجود . .

أهى وهم ؟

كلا ! بل إنها حقيقة . إنها يد الله . إنها يد القوة العظمى الحانية فى جبروتها وعليائها، تمسح أوضار نفسى وتنقى أدرانها، وتمنحنى الزاد والقوة والطمأنينة . . إنها يد الله . الله الذى كنت أصلى له . والذى استطاعت روحى فى لحظة صفاء خاطفة أن تتصل به ، فتشرق فى نوره ، وتتعلق برحمته .

الله يمدنى بالقوة والعون . . ويخلقنى من جديد .

هل هذه مجرد عبادة للآخرة ؟

أو ليست تمنحنى النشاط للحياة من جديد ، فأؤدى عملى ، وأبذل جهدى ، وأحتمل قسوة الصراع ؟

أو ليست زادا واقعيا لحياة الأرض ، من حيث هى زاد علوى لحياة الآخرة ؟

ذلك وهى عبادة فى خلوة . .

أما صلاة الجماعة فدلالتها واضحة فى جمع شتات الناس ، وربطهم برباط المحبة والتعاون حين ترتبط قلوبهم بالله فى الصلاة . فضلا عن المعنى العسكرى الملحوظ فى تنظيم الصفوف واتباع القائد ، وكل المشاعر الأخرى التى ينشئها الإحساس باتحاد الوجهة واتحاد الشعار واتحاد الحركات والسكنات .

• • •

والزكاة على العكس . . يبدو الجانب الأرضى التنظيمى فيها واضحا حتى ليغرى بالظن أنه هو كل المقصود من هذه الفريضة التى تأخذ من القادرين لتعطى غير القادرين ، وتشعر الجميع أنهم شركاء فى ثمرة الجهد البشرى كل بحسب حاجته ، حتى ولو لم يتساووا فى الجهد والقدرة على الإنتاج .

نعم إن الجانب الاجتماعى الاقتصادى واضح جدا فى هذه الفريضة . فهى أول ضريبة نظامية فى تاريخ الناس . كانت الضرائب قبل ذلك بلا نظام ولا قاعدة ، ولا ميزان لها إلا ميل الحاكم ومدى تعطشه للمال . فجاءت الزكاة فنظمت الضريبة المفروضة على الناس ، وحددت أهدافها . فهى ليست لمنفعة الحاكم ولا لإثراء أهل بيته من دماء الناس ، وإنما هى لكفالة المحتاجين إلى كفالة الدولة من الضعفاء والعاجزين .

ولكنها ككل العبادات الإسلامية ليست للدنيا وحدها ولا للآخرة وحدها . وإنما هى مزيج من هذه وتلك . ويكفى أن تكون التنظيمات الاقتصادية « عبادة » لتدل على هذه المزية التى تمتاز بها الفكرة الإسلامية . فالضرائب فى كل نظم الأرض فريضة تفرضها الدولة ، لأهداف اجتماعية واقتصادية . أى أنها علاقة أرضية بحتة ، والدولة تقوم بجمعها بقوة القانون وقوة السلطان ، والناس يتهربون منها ، إلا أن تضيق الدولة عليهم الخناق بتنظيماتها وأدواتها التنفيذية فيرون أن دفعها هو الأسلم والأجدى فلا يقاومون . .

ولكنها فى الإسلام ليست كذلك .

فكونها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله لم يجعلها فريضة ثقيلة على النفس ، يتهرب منها دافعها ، بل جعلها أمراً يسابق الناس إلى أدائه ليرضى الله عنهم ، ويمنحهم البركة فى أموالهم وأحوالهم ؛ وجعل فى ضميرهم حساسية تجاهها بحيث يتحرج المسلم من أن يطعم طعاما أو ينفق على نفسه وأهله مالا لم يدفع زكاته .

وكذلك كان الناس فى صدر الإسلام حين كانوا مسلمين . بل كذلك ظلوا إلى عهد قريب حتى بطلت الزكاة باستخدام القانون الفرنسى بدلاً من الشريعة الإسلامية . وقد بدأت الموجة الإسلامية الجديدة تحفز الناس من جديد إلى دفع الزكاة .

وبذلك يتم التنظيم الأرضى والشعور الوجدانى فى عمل واحد ، غير متميز هذا عن ذاك .

* * *

والصوم فريضة تعبدية خالصة فى ظاهرها .

إنه حرمان النفس من شهواتها ، وحرمان الجسد من غذائه وشرابه ابتغاء مرضاة الله .

ولكنه لم يفرض لصالح الفرد فى الحياة الآخرة وحدها ، وإنما فرض لصلاح أمره فى الحياة الدنيا كذلك .

إن الصوم فى حقيقته عملية تجنيد .

وكما تحتاج الأمم كلها لتجنيد أبنائها وتدريبهم على احتمال الجهد والمشقة توقعا للاحتياج إليهم يوم الصراع . . فكذلك فرض الإسلام هذا التجنيد ، ولكن على نطاق أوسع ، يشمل الروح والجسد فى وقت واحد ، ويشمل الصغار والكبار . والرجال والنساء . . لأنه تدريب لهم على الصراع الأكبر . . الصراع الدائم . . صراع الحياة ، التى يمارسها الجميع وتقع تبعاتها على الجميع .

الحياة كلها صراع . وليست الحرب وحدها هى الصراع الذى يحتاج إلى التدريب وتحمل المشاق .

وأبسط ألوان هذا الصراع أن الحياة لا تعطى أحدا كل أمنياته ، مهما بدا مستمتعا بطيبات الحياة . فالنفس البشرية خلقت هكذا واسعة المطامع والأحلام ، لا تقنع بما تجد ، وتسعى دائما إلى جديد ، ليكون هذا حافزا من حوافز النشاط الدائم على الأرض . وباعثا على التعمير والنماء .

ولكن هذه الخصلة التي ركبت في طبيعة البشر لمنفعتهم وصالحهم تنقلب شرا وشقاء إذا لم تعرف كيف تقف عند حد ، وكيف تقنع أحيانا بالموجود لأنه لا مطمع في غير الموجود .

وذلك أمر يحتاج إلى تدريب .

وخير تدريب هو الامتناع الاختياري عن بعض الشهوات وبعض الضرورات فترة من الوقت . فهذا هو الذي يعطي النفس القدرة على تحمل الامتناع الإجباري عن تلك الشهوات والضرورات حين تحكم بذلك ظروف الحياة .

فكما أنك تكسب عضلات جسمك القوة المطلوبة بتدريبها على تمرينات مماثلة لما يمكن أن تقوم به وقت الحاجة العملية من ثنى ومد ورفع وخفض ، ومصارعة وملاكمة . . الخ ، فكذلك تكسب عضلات نفسك القوة المطلوبة بتدريبها على مثل ما قد يتطلب الأمر القيام به وقت الضرورة من امتناع عن طيبات الحياة .

وليس هذا هو اللون الوحيد من الصراع الذي يعرض للناس في حياتهم . .
فالحياة مملوءة بالشر . والمسلم مطالب بمقاومة الشر أنى وجده . وهذه المقاومة قد تعرضه أحيانا للأذى . فكيف يمكن أن يحتمل الأذى إذا كان لا يقوى على احتمال الجوع والعطش بضع ساعات ؟

وكما أن الجندي لا يؤخذ من داره إلى ميدان المعركة في يوم وليلة ، وإلا حكم عليه بالفناء العاجل . .

فكذلك هذا الجندي في صراع الحياة الأكبر ، لا يجوز أن يواجه المعركة الدائمة بغير إعداد . والصوم إحدى وسائل الإعداد .

ولا عجب إذن أن يكون الصيام قد فرض عام فرض القتال !

ولمنفعة الفرد في الحياة الدنيا إذن قد فرض هذا الصيام ، في ذات الوقت الذي يجزى عليه في الآخرة أعظم الجزاء .

وهو كرم الله السابغ الذى يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم يقوم الحساب .

* * *

والحج من العبادات التى تمتزج فيها الدنيا بالآخرة، والأرض بالسماء .

والذين يذهبون إلى الحج صافية قلوبهم لهذه الفريضة، يحكون ويحسون عجبا .

إن حالات « الوجد » التى تستجيشها فى وجدانهم زيارة الأماكن المقدسة وأداء الفريضة فيها لهى حالات عجيبة نادرة المثال فى واقع الحياة . حالات ترتفع فيها النفوس البشرية عن ملابسات الأرض، ومطامع الأرض، وشهوات الأرض . وتتجرد لله خالصة، تتوجه إليه أن يتقبلها فى عباده ويمنحها مغفرته ورضوانه .

والشفافية التى يحسها الناس هناك، وهم يسيرون حيث سار الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويصلون حيث صلى، وحيث تنزل الوحى، وحيث جاهد وصبر، وحارب وانتصر ..

إنها مشاعر عميقة تهز الوجدان هزا، وتصل إلى أعماقه .. تصل إلى الكيان الخالص المصفى من الأدران، إلى الجوهر المشرق المستضىء بنور الله هنالك حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه . . .

ذلك من حيث هى عبادة .

وذلك من حيث أثرها فى تطهير النفس وتخليصها من كثير من أوضارها .

ومع ذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى « المنافع » فى الحج . منافع أخرى غير إصلاح النفوس وربطها بالله والرسول . من تبادل التجارة والتعارف بين المسلمين، وقيام هذا المؤتمر السنوى الذى يتلاقون فيه بمختلف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، لينهلوا من معين واحد، ويلتقوا على قبلة واحدة . .

ثم يستعرضوا مشكلاتهم ويتدارسوا أحوالهم ، لينظموا شئونهم على هدى وبصيرة ، واتصال فى الوشائج والأفكار .

* * *

تلك هى العبادات الإسلامية .

ليس فيها عبادة واحدة خالصة للآخرة . ولا عمل واحد لا يعود على الإنسان بالنفع الحاضر القريب .

إن الله لم يفرض هذه العبادات من أجله سبحانه .

صحيح أنه يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وصحيح أن حق ألوهية الله على عبودية البشر هو العبادة الخالصة لله . ولكن الله سبحانه غنى عن عبادة العبّاد وتقوى المتقين . والله يقول : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . إن الله لغنى عن العالمين . » فليس لفائدة الله سبحانه تقوم هذه العبادات ، وإنما هى لصالحنا نحن أبناء البشرية ، فى ذات الوقت الذى هى فيه أداء لحق الله على العباد .

وهو كرم الله السابغ ـ كما قلنا ـ الذى يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض ، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم الحساب !

الفرد والمجتمع

الفرد أم المجتمع ؟ أيهما الذى يوجه الحوادث ويصنع التاريخ ؟

كان القدماء يعتقدون أن الفرد هو الذى يوجه الأحداث . الفرد الممتاز بطبيعة الحال . وأن المجتمع - أو الدهماء - لا دور لهم إلا الانقياد للزعيم ، والسير فى الطريق الذى يوجههم فيه .

وقام المحدثون يعارضون هذه النظرية فى عنف ، ويقولون إن المجتمع هو الذى يستطيع أكثر من غيره أن يتفهم التيارات التى تسرى فيه فيتمشى معها ويعمل على إنضاجها ، وأن الفرد العادى لا يقل أهمية عن الفرد الممتاز فى هذا المجال .

ولم يكتف هؤلاء المحدثون بأن يفسروا التاريخ الحديث وحده هذا التفسير، - أى فى الفترة التى صار فيها للفرد العادى كيان متميز - بل راحوا يزيدون أن الفرد والجماعة كليهما محكومان منذ فجر التاريخ بالتطور المادى أو التطور الاقتصادى ، وأن هذا الأخير وحده هو الذى يصنع التاريخ ؛ وهو يصنع التاريخ فى اعتقادهم من خلال الجماعات لا من خلال الأفراد !

والواقع أن إصدار حكم واحد ينطبق على جميع الحالات أمر عسير .

والأصح والأقرب إلى العدالة فى نظرى أن نقول إن هناك تفاعلا دائماً بين الفرد والمجتمع فى كل حركة كبيرة من حركات التاريخ ؛ كلاهما يأخذ ويعطى . ولكن الدفعة الإيجابية قد تكون أبرز فى أحد الجانبين منها فى الآخر . فيبدو هذا الجانب راجح الكفه ، وإن كانت الكفة الأخرى لا تصل فى حالة من الحالات إلى حد الخواء .

المجتمع يبرز مرة، والفرد يبرز مرة. والتفاعل موجود دائماً فى جميع الحالات .

والرد على المتطرفين الذى يلغون دور الفرد الممتاز فى التوجيه والقيادة ،

ويجعلونه قوة سالبة بالنسبة لقوة المجتمع ، أو لقوة المادة والاقتصاد . والرد البسيط على هؤلاء أن نتصور بعض أحداث التاريخ التى ارتبطت بحياة فرد ، ثم نفترض أن هذا الفرد لم يوجد ، أفكانت الأحداث تسير على نفس النسق وتؤدى نفس النتيجة ؟ إذا كان الجواب نعم ، فهذا الفرد إذن ليس له دور إيجابى فى الموضوع . وإذا كان الجواب لا ، فمن أين جاء الفارق ، والمجتمع هو هو فى الحالتين ؟

خذ نابليون . فلعله من أبرز « الأفراد » الذين لعبوا دورا فى التاريخ .

وتصور لحظة أنه ليس هو الذى يلعب على المسرح ، وإنما هو شخص آخر ليست له أطماع نابليون ، ولا تركيبه العصبي والفكرى والجسدى ، ولا عقده النفسية ، ولا مشاعر « شعوره » ولاخفايا « لا شعوره » . . هل كان يسير تاريخ فرنسا فى ذات الخط الذى سار فيه صعوداً وهبوطا ونجاحا وخيبة ؟

الذى يقول نعم لا شك يغالط نفسه ويغالط التاريخ .

وخذ من التاريخ الإسلامى شخصية عمر . . . عمر الفذ فى التاريخ الإنسانى كله . هل كانت الدولة الإسلامية التى صارت فيما بعد « العالم الإسلامى » تسير على نفس النسق بوجود عمر وعدم وجوده سواء ؟

الذى يقول ذلك يغالط نفسه ويغالط التاريخ .

فصفات عمر الشخصية بارزة إلى حد يبهر النظر فى كل أحداث تلك الفترة من تاريخ الإسلام وتاريخ العالم المعروف كله فى ذلك الحين

وخذ مثلا حادثة كعزل خالد بن الوليد .

فهذه حادثة تبرز فيها شخصية عمر على أشدها . مَن غيره كان يجرؤ على عزل خالد ؟ ومن غيره كان يمكن أن يحدث هذا الأمر ثم يمر مأمون العاقبة لا يؤدى إلى فتنة كبرى تزلزل العالم الإسلامى كله وتهد الدولة من قواعدها ؟

صحيح أن إيمان خالد ، وعظمته البالغة ، لها حسابهما الكبير فى الموقف ،

ولكن هذا لايغير وجهة النظر التى نحن بصددها . فخالد « فرد » آخر يمتاز ، وتصرفه راجع إلى شخصه . ثم إن شخصية عمر الفذة كان لها رغم كل شىء الأثر الحاسم فى الموقف ، فربما كان خالد رغم إيمانه وعظمة نفسه قمينا أن يثور ويتمرد لو أن من عزله لم يكن عمر بالذات . . .

ورب قائل أن يقول إنه ليس عمر الفرد الفذ هو الذى صنع تاريخ تلك الفترة من الزمان . وإنما هى « الروح الإسلامية » . وذلك حق ليس فيه شك . ولكن فضيلة عمر ومزيته « الشخصية » أنه استوعب الروح الإسلامية بكل خصائصها ، واستوعبها « بقوة » تناسب قوة نفسه ، وسار معها مستقيما لا ينحنى ولا يضعف ولا تضطرب فى يديه مقاليد الأمور .

ونظرة واحدة إلى تاريخ الإسلام بعد عمر ـ فى فترة عثمان ـ ترينا أن الفارق الضخم هو فارق الشخصيتين ، هو الفارق بين فرد وفرد فى توجيه الحوادث وقياد الأمور .

وليس معنى ذلك أننا مع عمر ـ أو مع غيره من عظماء التاريخ ـ نلغى دور المجتمع ونجعله كمية سالبة مطلقة السلبية . فهناك دائما هذا التفاعل المشترك بين الفرد والمجتمع . فلو لم يكن المجتمع أيام عمر مسلما ، متشبعا بالروح الإسلامية ، مستجيبا لوحيها وأهدافها ، لاستعصى على عمر ـ بعظمته الشخصية وحدها ـ أن يسير به إلى القمم العالية التى وصل إليها . ولكان قمينا أن يصرف جزءا من طاقته الجبارة فى الصراع مع الناس ، مع الجماهير التى لاتريد أن ترتفع ، أو التى تنكل عن التكاليف . فدور المجتمع إذن واضح فى مساندة عمر ، وتيسير مهمته فى بناء الدولة الإسلامية ، وتوفير الجهد كله لهذا البناء ، بدلا من توزيعه بين الهدم والبناء . كل ماهناك أن الطاقة الإيجابية المتمثلة فى شخصية عمر من الضخامة بحيث تبهر العيون .

وكذلك الأمر مع أبى بكر فى وقفته الخالدة من حرب المرتدين . إنه موقف

فذ فى التاريخ . موقف رجل واحد تتخلى عنه كل قوى الأرض . المسلمون كلهم بما فيهم عمر نفسه . فيستطيع بقوته الروحية الفذة التى تستمد قوتها من الله أن يحول دفة الموقف ويخوض الحرب التى غيرت وجه التاريخ .

إنه شخص أبى بكر القوة الفعالة فى الموقف . ولكن هذا لا يلغى دور المجتمع ولا يجعله كمية سالبة . وما قلناه عن دور المجتمع مع عمر يصلح بنصه هنا مع أبى بكر .

ونهبط فى مدارج الأشخاص حتى نصل إلى نابليون .

إنه دون شك هو القوة الفعالة فى الفترة التى ظهر فيها على مسرح الأحداث ولكنه ـ وحده ـ لم يكن ليفعل ما فعل من معارك وفتوحات . فلولا تطلع الشعب الفرنسى للغلبة والفتح ، والطاقة المنبثقة من الثورة ، لذهبت عبقرية نابليون الحربية مع الريح ، لأنها تكون إذ ذاك عبقرية بلا رصيد . ورصيدها كان تلك الدفعة المتطلعة فى نفوس الشعب ، المستعدة للبذل والجهد وتحمل مشقات الحروب . ولو كان نابليون قد ظهر مثلا فى الحرب الأخيرة ، والشعب الفرنسى متميع منحل الأخلاق مشغول بشهواته وملذاته ، فأغلب الظن أن عبقريته الحربية كانت ستفقد قيمتها فى الصراع . وكل ما كان يمكن أن يحصل عليه هو هزيمة مشرفة بدل تلك الهزيمة المنكرة التى لوثت وجه فرنسا فى تاريخها الحديث .

كذلك الأمر مع ستالين ، الذى راحوا يحطمون تماثيله ويشوهون سمعته بعد أن مات !

إن دوره فى بناء قوة روسيا دور غير منكور ، دور يرجع إلى شخصيته غير العادية ، وإلى أفكاره الخاصة وطريقة إدارته للأمور . وهم يقولون اليوم إنه خائن لمبادئ ماركس ولنين ، ولعل مزيته فى نظرنا هى هذه « الخيانة » التى عدل بها بعض أسس الشيوعية فأخضعها لمنطق الواقع واقترب بها من التفكير المعقول . ولكن الذى يعنينا هنا أنه لم يكن قمينا أن يقوم بهذه « الخيانة » لولا تفرد شخصيته

وبروزها ، والطاقة الإيجابية التى تشتمل عليها ، والقدرة على القيادة والتوجيه .

وقد يصعب علينا أن نرى دور «المجتمع» مع ستالين . فالذى يظهر للعين هو السلبية الكاملة من الشعب إزاء دكتاتورية ستالين المطلقة .

ومن المضحك أن تصاب النظم الجماعية ، صاحبة الفكرة القائلة بأن المجتمع هو الأصل ، وأن الفرد ليس له كيان مستقل ولا توجيه ، ولا دور فى صناعة التاريخ . . من المضحك أن تصاب هذه المجتمعات «بالزعامة الفردية» ممثلة فى ستالين ، ليهدم نظرياتها من أساسها ، ويكذب فى عالم الواقع ما تقول فى عالم النظريات !

ولكن الدور الذى لعبه المجتمع الروسى موجود على أى حال . فالرغبة الجامحة فى إنشاء روسيا الكبرى وجعلها قوة فعالة فى توجيه الحوادث هى الحافز الإيجابى الذى استند إليه ستالين . . . كل ما هنالك أن شخصيته هى القوة الظاهرة على مسرح الأحداث .

* * *

التفاعل إذن موجود دائما بين الفرد والمجتمع . ولكن الأمثلة التى ذكرناها كانت واضحة الدلالة على الدور البارز الذى قام به أفراد فى صناعة التاريخ .

وليس الأمر واحداً فى جميع الأحوال .

فهناك حركات تاريخية يبرز فيها دور المجتمع بروزاً واضحاً ، كبروز الأفراد فى الأمثلة السابقة .

خذ مثلا الثورة الفرنسية . . . والثورة الشيوعية .

الجماهير هنا هى القوة الفعالة . القوة الدافعة . المركز الذى ينبثق منه النور أو ينتفض منه اللهيب .

وأبرز ما تبرز الجماعة فى الثورة الفرنسية فى عمليات التدمير والتخريب . وفى التقلبات المفاجئة فى الموقف . واندفاع التيار الشعبى إلى اليمين تارة ، ثم إلى اليسار تارة أخرى بنفس الحماسة ونفس القوة .

ذلك طابع الجماهير . وتلك كانت ثورة الجماهير .

وقد كان للثورة زعماء . ماينكر أحد أنهم كانوا ذوى أثر فى توجيه الثورة . ولكنهم فى هذه المرة ليسوا القوة البارزة على المسرح ، إن دورهم أقرب إلى دور عامل الإشارة الذى يوجه القاطرة على الشريط ، ولكن القوة الدافعة ليست فى يد محول الإشارة . وإنما هى فى المرجل المنطلق كالمجنون .

ولعل هذه الثورات هى التى أوحت لعلماء الاجتماع المحدثين بنظريتهم القائلة إن الجوع هى العنصر المحرك . وهى القوة الفعالة فى أحداث التاريخ .

ولكن قياس التاريخ كله على بعض أجزاء منه خطأ علمى . فالواقع يشمل هذه الأمثلة وتلك . والحقيقة المشتركة هى وجود التفاعل الدائم بين الفرد والمجتمع ، مع بروز أحدهما على الآخر هنا أو هناك .

* * *

وهتلر ؟ مامكانه فى هذا الجدل القائم بين الفرد والمجتمع ؟

لعل هتلر من الأمثلة النادرة فى التاريخ ، التى يكاد يتساوى فيها دور الفرد ودور المجتمع فى توجيه الأحداث وتسيير دفة الأمور !

ولاشك أن المعجبين بهتلر سيقولون : كلا ! إن شخصيته الفذة كانت هى محور الأحداث كلها فى تلك الفترة من الزمان .

ولكن أنصار نظرية المجتمع سيقولون من جانب آخر : إن هتلر لم يكن إلا منفذاً للدوافع الكامنة فى المجتمع الألمانى عقب الحرب الأولى ، وعقب الهزيمة الظالمة التى أصابت ألمانيا فى تلك الحرب .

الروح العسكرية المتغلغلة فى الشعب الألمانى . الكبرياء الجريحة فى معاهدة فرساى . المطامح والمطامع التى تملأ مشاعر الشعب ، ويغذيها الإحساس بتفوق الجنس الألمانى فى العلوم والفنون والحرب . . .

كل تلك العوامل هى التى خلقت هتلر فى نظر هذا الفريق من المؤرخين وعلماء الاجتماع

ولكن هؤلاء وأولئك متطرفون .

فلنأخذ كل هذه العوامل الإيجابية فى نفوس الشعب الألمانى ، ولنحذف وجود هتلر ، ولنضع بدلا منه شخصا آخر ، أو لانضع أحداً فى مكانه ، هل تكون النتيجة واحدة ؟

الفرق يساوى شخصية هتلر .

ومن جانب آخر فلنأخذ هتلر بكل عبقريته ومزاياه ولنضعه فى غير ألمانيا أو فى ألمانيا فى غير تلك الفترة وفى غير هذه الظروف . هل تكون النتيجة واحدة ؟

الفرق يساوى الشعب الألمانى فى عهد هتلر .

وهذه القضية تصدق فى كل حالة . هذا حق . ولكن لاتتقارب النسبة فى الحسبتين فى جميع الحالات كما تتقارب فى حالة هتلر . فالميزان يميل أحيانا هنا وأحيانا هناك . ولكنه فى هذه الحالة يكاد يسوى بين الكفتين بعد تأرجح يسيط هنا أو هناك .

* * *

والخلاصة من هذا كله أن المسألة متروكة للمصادفات !

المصادفة هى التى تبرز الزعيم الفذ القادر الموجه . والمصادفة هى التى تجعل الشعوب تثب وتبذ نها الجبارة !

وليس هناك كبير ضمان !

الروح الإسلامية الجبارة تحطمت ـ جزئيا على الأقل ـ على يدبنى أمية ابتداء من عهد عثمان .

والروح الشيوعية « الجماعية » ، القائمة على أسس علمية (١) تحطمت ـ جزئيا على الأقل ـ على يد ستالين .

وليس فى وسع أى شعب أن يقول إنه يستطيع أن يربى زعماءه على مبادئ معينة ، ليضمن قيامهم على تنفيذ هذه المبادئ وعدم الانحراف عنها حين توضع فى أيديهم مقاليد الأمور .

وليس كل يوم يولد عبقرى يترجم الطاقة الكامنة إلى عمل حى، والمشاعر إلى حقائق .

ومع ذلك فليس هناك ما يدعو إلى اليأس من أمر البشرية !

هنالك شيء ولو قليل من الضمان !

إثارة وعى الشعوب يجعل انحراف الزعماء أصعب ، واستجابتهم لدواعى العدالة فى الحكم أقرب إلى التحقيق . وكلما زاد وعى الشعب زاد استقرار حياته وأمن النكسات المدمرة .

وتلك مهمة الدعاة .

وهى مهمة دائمة لا تنتهى ما بقيت الحياة على الأرض .

وخير الدعوات ما يربط القلوب بالله ، أى بالقوة المتحكمة فى قوى الأرض ، القاهرة فوق قوى الأرض .

وواجب الدعاة ألا ييأسوا ، مهما وجدوا أمامهم من صعاب، ومهما تحملوا من تضحيات ومشاق . وليخرجوا من حسابهم أنهم يعملون للناس . وليجعلوا فى حسابهم أنهم يعملون لله !

المرأة والحضارة

من أبرز سمات هذا العصر ما يسمونه « تحرير المرأة » .

فماذا كسبت المرأة وماذا خسرت من هذا التحرير ؟

لا شك أن وضع المرأة فى كثير من أرجاء العالم كان فى حاجة إلى تصحيح . كانت المرأة فى حاجة إلى رد الاعتبار الإنسانى إليها ورفعها عن أن تكون جارية للرجل أو وسيلة من وسائل إمتاعه ، ولكن الطريقة التى صُحح بها وضعها لم تكن فى ذاتها صحيحة . كما أن الظروف التى لابست عملية التحرير فى أوربا قد جرفت المرأة فى تيار عنيف أفسد كثيرا من جوانب طبيعتها ، كما أفسد كثيرا من مفهومات الحياة فى العصر الحديث .

وقد كانت قضية المساواة بين المرأة والرجل من أكبر القضايا التى شغلت هذا الجيل . والذى يشهد النتائج التى وصل إليها الغرب فى هذا الباب على رضا منه أو على كره ، يجد أن المرأة قد اكتسبت كثيرا من رذائل الرجل الفطرية من غير أن تكسب شيئاً يذكر من فضائله الحقيقية ، بينما هى تخلت فى الوقت ذاته عن كثير من فضائلها الفطرية .

فالرجل بفطرته غير مخلص فى علاقاته العاطفية المتصلة بالجنس . والسبب فى ذلك أن ذكور الحيوانات جميعا أقل من الإناث . لأسباب مختلفة ، ليس أقلها اقتتال الذكور فيما بينهم للحصول على أنثى ، وما ينتج عن هذا القتال من فقد عدد من ضعاف الذكور ، ولا يبقى إلا الأقوى (وتلك من حكمة الخالق فى خلقه). فلو لم يكن فى تركيب الذكر استعداد فطرى لأن يلقح أكثر من أنثى واحدة ، لظلت كثير من الإناث معطلات لا يؤدين مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة جيلا بعد جيل . بينما الأنثى لا تحتاج فى فطرتها إلى الالتقاء بأكثر من ذكر واحد ، لأنها تحمل مرة واحدة فى المرة الواحدة ، ومن لقاح واحد فقط ، فيكون

التقاء بالذكور الآخرين عملية لا معنى لها لأنها لا تؤدى وظيفة بيولوجية . ومن ثم لم يركب الخالق فى فطرتها هذا الطبع .

وفى الإنسان بجنسيه امتداد لهذه الفطرة الموجودة فى غيره من الخلق . فالرجال أقل عددا من النساء فى مجموع الجنس البشرى . لأسباب مختلفة ، منها أن الحروب تقتل من الرجال أكثر مما تقتل من النساء . ومنها أن جسم المرأة أكثر احتمالا وأكثر مناعة من جسم الرجل ، ليساعدها ذلك على احتمال آلام الحمل وتبعاته ، ومن ثم يموت فى جميع الأمراض والأوبئة عدد من الرجال أكثر من النساء ، فضلا عن تعرضهم لحوادث العمل والطريق بنسبة أكبر ، حتى لو تساويا فى العدد، لأن المرأة أكثر حرصا ومن ثم فهى أقل تعرضا للإصابة .

والنتيجة لكل ذلك أن عدد الرجال كما قلنا أقل من عدد النساء فى مجموع الأرض . فلو لم يكن فى الرجل ـ كبقية ذكور الحيوانات ـ استعداد فطرى للالتقاء بأكثر من أنثى واحدة ، لظلت كثير من النساء ـ اللواتى فقدن ما يوازيهن من الرجال ـ معطلات عن أداء مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة . بينما لا تحتاج أنثى الإنسان إلى الالتقاء بأكثر من رجل لأن مهمتها تتحقق بلقاء رجل واحد .

وعلى هذا كانت المرأة مخلصة بفطرتها للرجل الذى تلتقى به لتحقيق مهمة الحياة . ولم يكن الرجل مخلصا بفطرته مثل هذا الإخلاص . لأن فى طبيعته استعدادا فطريا للقاء بأكثر من واحدة . ولو ترك على طبيعته لما قنع قط بواحدة . ولكن الدين والأخلاق والتقاليد هى التى تهذب هذا الميل الفطرى فى طبيعته ، وتربطه إلى أسرة منظمة العلاقات ، وإلى امرأة واحدة لا تعدو عيناه إلى غيرها . والدين والأخلاق والتقاليد على أى حال لا تقسره قسرا ضد طبيعته. وإنما هى تعتمد على خيوط أخرى فى نفسه ، تستغلها للصالح البشرى كله ، منها شعور الألفة العميق فى نفس الرجل ، ومنها حب السكن والاستقرار . . .

والإسلام بالذات من بين النظم جميعا لا يقاوم هذا التركيب الفطرى

فى طبيعة الرجل القاء مع أكثر من أنثى ، لأنه يحتاج إليه أحيانا لسد النقص فى عدد الذكور ـ وهى حالة دائمة فى البشرية كما ذكرنا ـ وإنما يهذب هذه الطبيعة فقط ويقيدها لحين الحاجة إليها . ومن ثم فهو يبيح للرجل نظريا أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع ، ليتمشى مع فطرته ولا يكبتها ، بينما يضع القيود الكثيرة فى طريق التنفيذ العملى ، مما يجعل الرجل فى النهاية زوجا لامرأة واحدة لا غير ، إلا فى الحالة الاستثنائية التى ذكرناها من قبل ـ حالة نقص الرجال عن النساء — ولا تتعدى النسبة فى مصر مثلا ٣ ./. من مجموع الزيجات .

هذا الاستطراد نخلص منه بنتيجة بارزة هى أن الرجل بفطرته غير مخلص فى علاقاته العاطفية ، وإنما هو يتعلم الإخلاص بتهذيب الدين والأخلاق والتقاليد لطبيعته . أما المرأة فمخلصة بفطرتها لأن ذلك هو الذى يتناسب مع طبيعتها .

وكذلك سارت الأمور أجيالا طويلة بعد أجيال .

ولكن المرأة فى العصر الحديث قد تغيرت ! فهى تريد أن تتساوى بالرجل . تريد أن تخرج إلى المجتمع . لا تريد أن ترتبط ببيتها ـ على الرغم من أن هذا شعور فطرى لا تقسر عليه المرأة قسرا ، بل هو كامن فى طبيعتها ـ وهى تريد أن تثبت أنها مثل الرجل تماما وقادرة على القيام بكل ما يقوم به من أعمال !

وتعلمت المرأة فى هذه الحى ألا تستقر فى علاقاتها العاطفية تجاه رجل واحد ، وأن « تدور » على الرجال كما يدور الرجل على النساء . بل تعلمت ما هو أسوأ وأخش فصارت تجرب اللقاء الجنسى كله أو بعضه بلا حياء . ولا غضاضة مع عدد كبير من الرجال ـ بحجة اختيار زوج المستقبل ـ ثم تعودت ذلك حتى صار جزءا من حياتها لا تستغنى عنه . وبذلك تخلت عن فضيلتها الفطرية فى هذا الجانب واكتسبت رذيلة الرجل الفطرية التى سعى إلى تهذيبها الدين والأخلاق والتقاليد.

والمسألة هنا ليست مسألة الأخلاق بمفهومها الضيق — وإن كانت تلك من الخطورة بمكان ـ ولكنها أشمل من ذلك وأعمق . إنها مسألة تدمير الكيان

الأنثوى من أساسه، والانحراف به انحرافا خطيرا عن طبيعته، فى سبيل لاشىء .. إلا متعة جسد عابرة لا تدوم طويلا، ولا تترك النفس مع ذلك بلا جراح ! وهذه البيوت المحطمة العديدة التى لا يمسكها فى أوربا إلا القوانين التى تمنع الطلاق، والتى لا يمسكها شىء فى أمريكا حيث يباح الطلاق فيصل إلى نسبة ٤٨ ٪ من مجموع الزيجات وهو أكبر رقم فى العالم وأخطر رقم .. هذه البيوت المحطمة هى نتيجة هذا الانحراف فى فطرة المرأة، والفساد الذى طرأ على كيانها، فأصبح الزوج الواحد مملا فى نظرها، وأصبح التغيير متعة تتلمس له الأسباب. كما أن ذلك قد أتاح للرجل فرصة عظمى يرتد فيها إلى فطرته، ويتخلى عن تهذيب الدين والأخلاق والتقاليد، إذ صارت المرأة سهلة التناول بالنسبة إليه، تذهب بنفسها إلى عتبة داره ولا تحتاج منه إلى جهد فى البحث !

وبعض المخدوعين هنا فى الشرق يفتحون أفواههم فى بلاهة من شدة الإعجاب بحوادث الطلاق الأمريكية التى يطلب غالبيتها النساء. ويقولون لك : انظر إذ المرأة هناك قد تحررت وشعرت بالمساواة. إنها تطلب الطلاق من زوجها لأنه لا يحلق لحيته كل يوم ! أو لأنه لا يشركها فى شئونه .. الخ وهم ينسون فى بهرتهم أن المرأة لا تتلمس هذه الأسباب الواهية إلا لأنها قد ملت، ولأنها ترى صيدا آخر فى الخارج يبدو جميلا لأنه جديد.

* * *

والخمر والتدخين من رذائل الرجل الفطرية.

طبيعة الرجل وعمله الذى يقوم به يساعدان على تراكم قشرة صلدة تحجب إشراق روحه و « تغبش » صفاءها. فهو يعمل فى مجال احتكاك دائم. احتكاك مع ماديات الحياة ومعنوياتها، مع المعادن الصلبة التى يطوعها للإنتاج، ومع غيره من الأحياء فى صراع الحياة الكبير. ومن ثم يلجأ حتما إلى شىء يذيب تلك القشرة الصلدة كلما تراكمت على روحه، وشعر بها تضيق أنفاسه وتحجب

عنه النور . وحين يكون طبعه مستقيما وقلبه مهتديا إلى النبع الأصيل فإن العبادة المخلصة هى التى يجد فيها ضالته ؛ هى التى تمسح أوضار نفسه ، وتزيل غبشها ، فإذا هو مشرق الروح شفيف النظرات . ولكنه حين يكون بعيدا عن النبع ، لا يهتدى بهدى الدين ، يلجأ إلى الخمر وأشباهها(١) يحاول بها أن يستعيد إشراقه ، فتمنحه الإشراق الصناعى لحظة ، وتطمس روحه بعد ذلك لحظات .

على أى حال فالخمر من رذائل الرجل التى تفرد بها أجيالا طويلة فى التاريخ ! ولم تكن المرأة قط فى حاجة إليها ، فطبيعتها المتوفزة المملوءة بالحيوية ، الحاضرة العواطف والانفعالات ، لا تحتاج إلى منبه صناعى كالذى يحتاج الرجل إليه .

ولكن المرأة اليوم تحررت ! وأقبلت تطالب بالمساواة الكاملة مع الرجل . فلم لا تشرب الخمر ؟ هل الرجل أحسن منها ؟ فلتشرب ولتسكر حتى لا ينفرد الرجل دونها بشىء !

والتدخين كذلك .

وسواء صدق فرويد فى تفسير الميل إلى التدخين أم كذب (٢) ، فإن التدخين كان من رذائل الرجل . كان يرضى به غروره ، ويحس بالزهو الفارغ وهو ينفث الدخان حوله ، فيشعر شعورا كاذباً أن كيانه قد كبر وامتد فى الفضاء بقدر ما يمتد ما ينفثه من الدخان ! وكان الرجل المستقر عاطفيا ، الواثق من كيانه ، المطمئن إلى وجوده ، المحقق لذاته ، لا يحتاج إلى التدخين ، أو لا يسرف فيه . أما المرأة فلم تكن تحتاج إلى تحقيق ذاتها عن طريق الدخان المنعقد فى الفضاء ، وهى تملك وسائلها الأخرى ، من حيوية فائضة ، ومن أبناء تحس أن كيانها متحقق فى كيانهم ، وأنها « موجودة » فى الحياة بقدر ما أوجدت من الأحياء .

ولكن المرأة اليوم قد تحررت ! ولم تعد تجد كيانها فى تلبية فطرتها الطبيعية .

---

(١) من البديهي أن الخمر ليست الوسيلة الوحيدة للرجل الذى لا يهتدى إلى الله . فلها أشباه كثيرة من المنسيات عن الوعى . كما أن بعض الرجال يلجأ إلى التهريج والصياح كوسيلة للتنفيس .

(٢) من المعلوم أن فرويد يرد جميع تصرفات الإنسان بلا استثناء إلى أصل جنسى .

ومن ثم أحست بالنقص الذى تكمله تكميلا زائفا بسحائب الدخان فى الهواء !

* * *

والرجل خشن بطبعه وليس شديد الحياء .

وهو منطقى مع كيانه ومهمته التى هو مكلف أداءها . مهمة الصراع الخارجى مع الحياة والأحياء . فلو أنه كان لينا رقيقا ناعما حييا لعجز عن أداء مهمته ، وضعف إنتاجه المادى ، ووقف تبعا لذلك تقدم الحياة .

والدين والأخلاق والتقاليد تهذب هذا الطبع الفطرى فى الرجل ولكنها لا تتعرض له حيث يكون ضرورة لازمة . فالإسلام يطلب من الرجل أن يكون لينا مع إخوانه رقيقا فى معاملتهم ، حييا فى المسائل التى تتصل بالأعراض والبيوت ، فهو يصف المؤمنين بأنهم « رحماء بينهم » « أذلة على المؤمنين » ويقول : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » . ولكنه فيما عدا ذلك يشجعه على القوة والشدة والخشونة ويأبى منه الضعف واللين .

والمرأة ليست فى حاجة إلى الخشونة وقلة الحياء . لأن مهمتها تختلف عن مهمة الرجل ، وطبيعتها غير طبيعته والرقة والليونة سواء فى بناء جسمها أو بناء نفسها هى المنطقية مع وظيفتها الحيوية ، فهى تسهل لها مهمة الحمل والولادة ، كما تسهل لها القيام بالأعباء النفسية للأمومة . وقد كان الحياء طابعا فطريا فيها يتناسب مع كل ذلك . كما كان إحدى الوسائل الفطرية التى تجتذب بها الرجل ، إذ تخطر أمامه ثم تختفى ، وتتركه هو يسعى إليها ، وتسبر غوره فى أثناء الطريق !

ولكن المرأة الحديثة المتحررة ، قد تحررت من الحياء أيضا إذ تحررت من كيانها الأنثوى كله ، وصارت تشارك الرجل فى تجرئه وتوقحه ، ولكن فى غير المجال الذى يلجىء الرجل إلى ذلك ، ويكون منطقيا فيه مع كيانه ووظيفته . فصارت تطلب الرجل بنفسها كما يطلبها ، وصارت لا تستحى من أمور كثيرة قد يتحرج منها بعض الرجال ! فضلا عن خشونتها التى صارت لازمة لها ما دامت تعمل فى

المصنع والمتجر والطريق ، وتتعرض للصادمات والمنازعات .

* * *

وماذا كسبت المرأة حين خسرت كل ذاك ؟

لست أتحدث هنا عن تصحيح وضعها الإنسانى والاجتماعى . . . لنبين :

الأول : أنه لا يملك إنسان له ضمير أن يعارض فى حق المرأة فى أن تكون إنسانة ، وتشعر بكيانها كإنسانة .

والثانى : أن تصحيح وضع المرأة لم يكن يقتضى كل هذا الانحراف الذى حدث فى الغرب . وقد تحدثت فى كتاب « الشبهات » فى فصل « الإسلام والمرأة » عن الطريقة التى رد بها الإسلام إلى المرأة كيانها الإنسانى دون أن تفقد طبيعتها الأنثوية ، ودون أن يضطرها إلى عرض نفسها فى الطريق ، وتحويل الحياة إلى ماخور كبير كما صنع الغرب بعد تحرير المرأة .

ولكنى أتحدث عن جانب واحد من هذه القضية ، هو محاولة المرأة التشبه بالرجل لتحدث المساواة .

لقد شاركت المرأة الرجل - كما رأينا - فى بعض رذائله الفطرية ، وبعض طبائعه التى لا تعد عيبا فيه ولكنها عيب حين توجد فى امرأة ، كالخشونة والغلظ والاقتحام فى غير ضرورة

فهل شاركته مشاركة حقيقية فى فضائله ومزاياه الفطرية ؟

إن للرجل عبقريتين رئيسيتين فى الحياة ، أو هى عبقرية واحدة ذات وجهتين : عبقرية الإنتاج المادى ، وعبقرية السياسة : سياسة المجتمع ووضع نظمه وإدارة شئونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وذلك فى مقابل عبقريتين رئيسيتين للمرأة ، أو هى عبقرية واحدة ذات شعبتين : عبقرية الأمومة - أى الإنتاج البشرى - وعبقرية إدارة البيت وحمل تبعاته الضخام .

وحين تخلت المرأة عن كيانها الأصيل ، وعن عبقريتها الحقيقية أرادت أن

تشارك الرجل فى عبقريته . فلأى شيء وصلت فى هذا السبيل ؟

أما الإنتاج المادى فقد يخيل للناس أن المرأة لم تشارك فقط ، بل برعت وبزت الرجل فى ميدان الإنتاج . لماذا ؟ لأن المرأة تعمل على بعض الآلات الدقيقة أبرع مما يعمل الرجل ، وهى كذلك أصبر فى العمل عليها من الرجل . كما أنها فى روسيا وغيرها من البلاد تعمل فى معظم المصانع مع الرجل جنبا إلى جنب بلا فارق سوى الانقطاع فى فترات الحمل والإرضاع . . .

وهذه الحقيقة الظاهرية لا يجوز أن تخدعنا عن شيئين مهمين :

الأول أن عملية الإنتاج الحديثة قد صارت آلية ومتخصصة إلى حد أنها لم تعد تحتاج إلى « إنسان » يديرها ، بل هى فى حاجة إلى « آلة إنسانية » تراقبها وتزودها بالمادة التى تحولها إلى مصنوعات . وهذه الآلة يستوى أن تكون رجلا أو طفلا أو امرأة ، لأن الإنسان لا يتعامل مع عملية الإنتاج الحديثة بكيانه الشامل كجنس ، أو كإنسان ، بل يتعامل معها ككيان آلى ، يدق مسماراً ، أو يضع قضيبا من الحديد ، أو يهز جزءاً من الآلة على فترات منتظمة . والإنسان الآلى فى طريقه أن يحل محل الإنسان الحى فى كثير من عمليات الإنتاج .

فليس فوزا ضخما للمرأة كما يتوهم الناس أنها استطاعت أن تشارك فى عملية الإنتاج الحديث . بل قد يكون صبرها عليها دليلا سيئاً فى حقها ! فقد تكون دلالته أن المرأة أكثر آلية من الرجل ، وأقدر ـ معاذ الله ـ على تحويل الحياة إلى نشاط آلى منظم رتيب ! لولا أننا نعلم علم اليقين أن فى المرأة من الحيوية الفياضة ما يخالف هذا الظاهر ، ولكن المرأة الحديثة تريد لنفسها هذا المصير .

والأمر الثانى : أن اشتراك المرأة فى عملية الإنتاج الآلية الحديثة لم يشجعها كثيراً على الاشتراك فى العملية الحقيقية التى برع فيها الرجل ، وهى اختراع الآلة التى تنظم الإنتاج . وكليات الهندسة فى العالم مفتوحة للنساء ، وشعور التحدى الذى تملك المرأة موجود بصورة حادة فى كثير من أقطار الأرض وخاصة فى

أمريكا. ومع ذلك فعدد الفتيات اللواتى يقبلن على تعلم الهندسة الميكانيكية والهندسة الكهربائية ضئيل جداً بالنسبة لعدد الفتيان . ولا يقال فى هذا إن المرأة جديدة على الميدان . فقد كانت جديدة على الميادين كلها فى مبدأ الأمر بنسبة واحدة. وهى تعلم - فى أمريكا على الأقل - أن المصانع والشركات ترحب بالمرأة أكثر مما ترحب بالرجل ، لغاية فى نفس يعقوب ! فالتشجيع لا ينقصها ، والباب ليس موصداً أمامها . فعزوفها إذن له دلالة لا سبيل لإنكارها .

أما عبقرية السياسة : سياسة المجتمع ، سياسة الحكم والاقتصاد والسلم والحرب، ووضع النظم والجهاد فى سبيل إقرارها . . فلعل مشاركة المرأة فيها لا تختلف كثيراً عن اشتراكها فى ميدان الإنتاج : أى أنها تشارك فى التنفيذ، ولا تشارك فى الابتداع .

وليس اشتراك بضع نساء فى برلمانات العالم ، أو وظائفه الكبرى ، أو اشتراكهن فى عملية الانتخاب إلا لعبة طريفة يتلهى بها العالم الحديث ! وليس ذلك هو الذى نعنيه .

إن وضع سياسة المجتمع يحتاج إلى طباع خاصة لا تتوفر كثيرا فى المرأة ، لأنها بفطرتها لا تحتاج إليها ، بل إنها - حين توجد فيها أحيانا - ترهق كيانها العصبى وتحمله فوق طاقته ، لأنها ليست من حاجاتها الطبيعية فى مهمتها الأصيلة .

خذ مثلا مسألة الجهاد فى سبيل فكرة عليا تنظم حياة البشر على الأرض ، وتصحح أوضاعهم الفاسدة . .

لست أقول إن المرأة عاجزة أو عازفة عن المشاركة فيها . فهذا يخالف الواقع. ولكن المرأة - فى الغالب - تشارك بقدر ما يصيبها هى من جزئيات هذه الفكرة - هى كفرد ، أو هى كجنس - ولكنها نادرا ما تشارك فى الفكرة ككل شامل يصيبها أو لا يصيبها سواء

ثم إنها إذا شاركت فى الفكرة ككل ، فهى تشارك فيها بطبيعتها التى تجنح إلى

طلب النتيجة المباشرة لأى عمل أو فكرة، ولذلك لا تصبر على الفكرة التى لا تتحقق وصاحبها حى ، لأنها فى حاجة إلى جيل أو أجيال حتى تؤتى ثمارها ؛ وسرعان ما تيأس وتنفض يدها من الصراع .

وثمت حقيقة هنا لابد أن تسجل : هى أن كثيرا من الرجال كذلك ييأسون وينفضون أيديهم من الصراع .

نعم . ولكن البقية القليلة التى تبقى ، أو الفرد الواحد الذى يبقى ، هو الذى ينشىء الحوادث ويكتب التاريخ !

والذى حدث حتى اليوم أن هذا الفرد كان رجلا ولم يكن امرأة .

حتى جان دارك القديسة الثائرة ، قد ثارت لقضية مباشرة هى تحرير شعب . ولكن لم توجد بعد من تؤدى مهمة الرسل والمصلحين ، الذين يبذرون البذرة اليوم لتتحقق غدا وهم فى عالم الخلود .

ولا يقال كذلك إن المرأة جديدة على الميدان ، فإن ذلك لم يمنع العبقريات من الظهور حين وجدت ، كما ظهرت جان دارك على مسرح التاريخ .

وليس معنى ذلك ـ كما قلت ـ أن المرأة لا تشارك فى المسائل العامة .

كيف يقال ذلك وفى تاريخ الإسلام نساء كعائشة وأسماء وسمية . . وشهيدات ومقاتلات ؟

كلا ! وإنما أتحدث عن أمر معين : هو عبقرية وضع المناهج والخطط والأفكار لسياسة البشرية .

* * *

لكل جنس إذن عبقرياته الأصيلة ورذائله الأصيلة . وأنا أحسب كما قلت فى كتاب « الإنسان » أنهما متكافئتان ولكنهما ليسا متشابهين . وقد أرادت المرأة أو أريد لها ـ فى صراعها المجنون مع الرجل فى الغرب ـ أن تنشىء فلسفة جديدة وتثبت « حقائق » جديدة . .

وهذه ـ حتى اليوم ـ هى نتيجة الصراع ! ومع ذلك فأنا على استعداد حين تتغير الحقائق أن أغير الأفكار !

التطور والانتكاس
فى تاريخ البشرية

كنت فى حفل أقامته إحدى مدارس البنات بمناسبة « أعياد الربيع » .. وكان البرنامج كله رقصا . رقصا تقوم به البنات من المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية على المسرح أمام المدعوين من الرجال . أخواتنا وبناتنا يرقصن «رقصا توقيعيا» أمام جمع من الشباب المتعطش الذى يتابع كل حركة بنهم ، ويكملها فى خياله على هواه ، وتتبع عيناه الجائعتان كل حركة وكل ثنية وكل قطعة من اللحم المعروض على المسرح ، ويمد نظراته إلى القليل الذى تستره الملابس ، ينضى عنه غطاءه ويتصوره عريان .

ولكن تحويل المدرسة إلى مرقص لم يرعنى بقدر ما راعنى تعليق رجل من الحاضرين ، إذ قال والحماسة تمزه وتفيض منه : « الحقيقة هذا تطور . تطور عظيم . غير منتظر . من كان يتصور قبل عشر سنوات فقط أن يتم هذا التطور العظيم ؟ حفلة كهذه تمر بسلام لا فى القاهرة أو الاسكندرية بل فى إقليم من أقاليم القطر . وفى الصعيد بالذات . لا . هذا تطور . تطور عظيم . رائع » .

* * *

ما أعظم الخرافة التى يعيش فيها هذا الجيل من البشرية ، وما أفظع الهوة التى ينحدر إليها ..

الخرافة التى تخيل له أن البشرية تسير فى خط تطور دائم .. يرتفع دائما إلى أعلى ، وأن أعلى ما وصلت إليه البشرية هو ما وصلت إليه فى هذا الجيل ، لأنه أحدث الأجيال .

والهوة التى ينحدر إليها وهو يظن أن التطور هو الانسلاخ من قيود الأخلاق

والتقاليد ، باعتبارها قيوداً سخيفة من تراث الماضى العتيق ، ينبغى أن ننبذها و « نتحرر » منها لزيادة الاستمتاع بالحياة .

* * *

هل صحيح أن البشرية تتطور دائما إلى أعلى ؟ بجميع خطوطها واتجاهاتها ؟ من أين نشأت هذه الخرافة ؟ .

لقد نشأت دون شك من تطور البحوث العلمية ، والانتصارات الباهرة التى حققها العلم والاختراع وخاصة فى العصر الحديث .

وهذا الخط من خطوط البشرية ـ خط العلم ـ قد تطور حقاً إلى الأمام بصورة دائمة منذ فجر التاريخ . ولا عجب فى ذلك . فطبيعته ذاتها هى التى تؤدى إلى هذا التطور الدائم إلى الأمام .

هدف البحث العلمى والاختراع هو تيسير الحياة والتغلب على مصاعب البيئة أوما يسمونه الصراع مع الطبيعة .

ومنذ طفولة البشرية حاول الإنسان أن يتفهم أسرار الطبيعة ليسيطر عليها ويسخرها لمصلحته . كان من قبل يظنها آلهة وقوى خفية فراح يسترضيها ويتعبدها لتمنحه سلطانها أو تقيه شرها . وتعلم السحر لنفس الغاية . ثم تعلم الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والطب ، وهو لم يبرأ بعد من السحر ، فزج بينها وبينه ، فكان العلم كهانة وعلما فى ذات الوقت أيام قدماء المصريين . وتلا ذلك البحث عن حجر الفلاسفة على يد العرب لتحويل المواد كلها إلى ذهب .

ثم سار العلم خطوة على يد أوربا فدخل ميدان التجربة العملية .. ومن هناك انفتحت أبواب هائلة كانت مغلقة من قبل ، وكأنها يد السحر عادت من جديد .

كل ذلك كان تطوراً إلى الأمام . وكان طبيعيا لاغرابة فيه .

فلنتصور الرجل العبقرى الذى اخترع المدية الحجرية فى ماقبل التاريخ .. لقد

كانت فتحا هائلا فى عالم الاختراع . آلة يستطيع أن يذبح بها الطير ويسلخ الجلد ويقطع اللحم . ومنذ استخدمها الإنسان فلن يرجع عنها إلى الطريقة البدائية التى كان يستخدمها قبل هذا الفتح العلمى . . لن يرجع إلى الوراء . قط . فليس من المعقول أن يجد الطريقة الميسرة ثم يعود إلى الطريقة المتعبة ذات الإنتاج الأقل . ومن هنا يسير الكشف العلمى دائما إلى الأمام . وتنتشر المخترعات الجديدة ، وتتطور دائما إلى أحسن . وتسير فى خط دائم الصعود . لأن البحث يجرى دائما لتحسينها وزيادة الفائدة منها ، والدافع من ورائها موجود دائما مندفع دائما إلى الأمام .

ولكن هذا التقدم الدائم فى ميدان العلم قد أغرى «العلماء» بخطأين عظيمين

الأول : الاعتقاد بأن جميع الخطوط البشرية تتقدم دائما إلى الأمام شأنها شأن التقدم العلمى ، وأن الواقع البشرى قد حقق هذا التقدم ، جنبا إلى جنب مع التقدم العلمى أو نتيجة له .

والثانى: الاعتقاد بأن التطور قوة قاهرة ، مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته ، تدفعه دائما إلى الأمام رضى أو أبى ، وأنه لا قبل لأحد ، فرد أو جماعة ، بوقف التطور أو الوقوف فى سبيله .

* * *

ونبدأ بالفقرة الأولى من المبدأ الأخير ، أن التطور قوة قاهرة مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته .

أصحاب هذا الرأى هم أصحاب التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ ، ويجاريهم فيه لفيف من علماء الاجتماع «المحايدين» . وأهم ما يعتمدون عليه لتأييد دعواهم هو الحقيقة الظاهرة للعيان ، وهى أن اختراع أى آلة جديدة يحدث تغييرات كبيرة أو صغيرة فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالبيئة (أو بالطبيعة على نطاق واسع) وهذه التغييرات تكيف حياتهم وأفكارهم

ومشاعرهم على نحو جديد لم يكن معروفاً لهم من قبل ، ولا حيلة لهم فيه إلا اتباعه عاجلا أو آجلا ، رضوا أو كرهوا .

العالم قبل اختراع البارود غير العالم بعد اختراعه .

والعالم قبل الآلة البخارية غيره بعد هذه الآلة .

والعالم قبل السينما والراديو والتلفزيون شيء آخر غيره بعد هذه الأشياء . من الناحية الفكرية والخلقية والاقتصادية . الخ .

وإذ كانت الاختراعات تسير بطريقة لا يمكن وقفها ، فالتطور الناشيء منها لا يمكن وقفه ، وهو بالتالى قوة قاهرة خارجة عن إرادة الإنسان .

وحين توضع المسألة بهذه الصورة فهى تبدو منطقية جداً وحقيقية الغاية .

ولكننا نترك مؤقتاً مسألة قهر التطور للناس ودفعهم إلى الأمام ـ حتى نأتى بشواهد من التاريخ ـ ونبحث فى حقيقة هذه القوة التى تسمى التطور ، هل هى مستقلة حقاً عن كيان الناس . أم هى فى الواقع جزء من طبيعتهم .

ونعود إلى حقيقة ذكرناها قبل سطور . . .

ما الذى دفع بالعلم قدماً إلى الأمام؟ من الذى اقتحم به أسراراً بعد أسرار ؟ أليس هو « رغبة » البشر فى كشف المجهول وتسخير قوى الطبيعة ؟

هل كان العلم قميناً أن يوجد أصلا ، أو يتقدم خطوة بعد خطوة لولا هذا الدافع الملح فى النفس البشرية ؟ الرغبة الدائمة فى معرفة الأسرار المجهولة ؟ وعدم الاكتفاء بأى شيء « يُعرف » والسعى دائماً وراء الجديد ؟ أليست هذه الرغبة جزءاً من كيان الإنسان؟ومنها ينتج التطور العلمى الذى ينشيء بدوره ـ فى زعمهم ـ كل التطور الخلقى والفكرى والاجتماعى والاقتصادى؟ فكيف يكون التطور إذن قوة خارجة عن كيان الإنسان وهى كامنة فى أعمق أعماقه ؟

أما أنها خارجة عن إرادته فقول يمكن أن يفهم على معنى واحد : هو أن الرغبة فى معرفة المجهول قوة قاهرة فى داخل الكيان البشرى لا حيلة للإنسان فيها ،

لأنها جزء من خلقته ، كالحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الجنس . ولكن القول مردود حتى على هذا المعنى الواحد ، لأن الإنسان يتحكم بعقله وإرادته فى تلك الحاجات الفطرية التى لا حيلة له فيها ، فينظمها ، ويوجهها الوجهة التى يريدها . وبذلك تتحقق إرادته حتى إزاء « القوى القاهرة » فى داخل كيانه .

على أنهم حين يقولون هذا القول لايقصدون هذا المعنى الذى قبلناه من حيث المبدأ ، ورددنا عليه بما يفسره ، وإنما يقصدون أن التطور قوة مستقلة عن الإنسان أصلا ، ليست خاضعة لوجوده ، وإنما هى كائنة بذاتها ، وهى تؤثر فى الإنسان من خارج نفسه ، فتتطور به على مدى الأجيال ! وهو قول يحتاج إلى قليل من التعقل ليتبين مدى ما فيه من خرافة يؤمن بها كبار السادة العلماء !

* * *

ونعود إلى المبدأ الأول : أن البشرية تتقدم بجميع خطوطها إلى الأمام ، ولا ترجع أبداً إلى الخلف . وأن الواقع البشرى قد حقق هذا التطور الدائم مع التقدم العلمى أو نتيجة له .

الخطأ الأول هنا هو الاعتقاد بأن الكيان النفسى فى مجموعه يسير مع التقدم العقلى ، المتمثل فى العلم والاختراع .

وبمقتضى هذا الاعتقاد يكون البشر قد تقدموا نفسياً باستمرار مع تقدم العقل والعلم .

أى أن المستوى النفسى للبشرية فى القرن العشرين أرقى مما كان فى القرن التاسع عشر ، وهذا بدوره أرقى مما كان عليه فى القرن الثامن عشر ، والسابع عشر . . . والعاشر . . والعاشر قبل الميلاد .

أى أن هذه الأحقاد التى تأكل قلب البشرية فى القرن العشرين ؛ هذا الصراع الجبار المدمر المخرب الرهيب المتمثل فى حربين متتاليتين فى ربع قرن ، والثالثة على الأبواب ؛ هذه الأنانية البغيضة والتفكك العاطفى الذى يجعل كل إنسان جزيرة

وحده ، لا يلتقى بالآخرين إلا حيث تكون المنفعة القريبة أو المتاع الحسى . .
هذا هو أرقى ما وصلت إليه البشرية من الناحية النفسية على مدار التاريخ ! !

فمن يقول هـذا الـكلام وفى نفسه ذرة من التعقل ، أو ذرة من الإخلاص للبحث العلمى الصحيح ؟

ولرب قائل ينتفض متحمسا ويقول : لعلك ستحدثنا عن الأديان ودعواتها ، والفترات التى ارتفع فيها البشر على أيدى الأنبياء والرسل ؟ بربك دع عنك هذه الخيالات ولنعش فى الواقع : البشر هم البشر من لدن آدم إلى اليوم . الصراع هو الصراع . والبغضاء هى البغضاء . والمنفعة هى المنفعة . وما استطاع الرسل والأنبياء أن يصلحوا إلا أفرادا قلائل على مدى الأجيال . والباقون على حالهم يخافون ولا يستحون . تحكمهم بالقوة فيرتدعون ، وتتركهم فيعيشون مفسدين !

ولنقبل هذا القول على علاته !

فأين إذن ذلك التطور المزعوم فى النفس البشرية ؟ أين التقدم الدائم إلى الأمام، الذى يسير جنبا إلى جنب مع التطور العلمى والاختراع ؟

والعجيب أن من بين المؤمنين بالتقدم الدائم أولئك الذين يقسمون حياة البشرية إلى مراحل متميزة : هى الشيوعية الأولى ، والرق ، والإقطاع ، والرأسمالية ثم الشيوعية الثانية . ويقولون إن الشيوعية الأولى ـ قبل تملك أدوات الإنتاج ـ كانت أسعد فترات البشرية وأقربها إلى حياة الملائكة ! لا ضغائن ولا أحقاد ولا صراع . وتعاون وحب وسلام يشمل الجميع ... وأن البشرية انتكست بعد ذلك حين بدأ اختراع أدوات الإنتاج والصراع عليها . فكيف يتفق هـذا الرأى مع الإيمان بالتطور الدائم إلى الأمام ؟

ألا إنها الخرافة الكبرى ، يؤمن بها السادة من كبار العلماء فى العالم الحديث !

* * *

ومن هذه الخرافة تنبع الخرافة الأخرى التى تقول إننا نتطور خلقيا كذلك ،

إلى أحسن ، بصورة دائمة ! وإننا ما دمنا في القرن العشرين « متطورين » أكثر مما كنا في القرن التاسع عشر ، والثامن عشر ، والسابع عشر ، والعاشر قبل الميلاد ، فقد لزم أن تكون أخلاقنا اليوم أرقى مما كنا في الأجيال السابقة . وإذ كانت أخلاقنا اليوم هي التحلل من قيود الأخلاق ، فالتحلل إذن هو التطور ، وهو الرقى وهو التقدم إلى الأمام !

وقد بينا في الفقرة السابقة مدى الزيف الذي تشتمل عليه تلك الخرافة الهائلة التي تزعم أن البشر اليوم أرقى نفسيا مما كانوا في أي وقت مضى ، ورأينا أن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى تعمق في التفكير . وإنما تحتاج فقط إلى أن يفتح الإنسان عينيه على الواقع ليرى أن المشاعر التي يتبادلها هذا الجيل من البشرية ربما كانت أسوأ ما أحس به البشر على مدار التاريخ !

وإذ انهارت خرافة الرقى النفسي التي تنبني عليها خرافة الرقى الخلقي في القرن العشرين ، فقد انهارت هذه الخرافة الأخرى ولم تعد تحتاج إلى تدليل . . من ذا الذي يزعم أن هذه الفوضى الجنسية الضارية أطنابها في الغرب ، وهذه الأسر المنهارة التي تصل نسبتها في أمريكا إلى أكثر من ٤٨ ٪ ، والتفكك الذي أصاب فرنسا حين أغرقت في شهواتها فهوت بها إلى الحضيض . . هو « الرقى » الذي تنشده الإنسانية ، والذي ينبغي أن تسير فيه إلى النهاية ؟ !

على أنني أريد أن أبين حقيقة أخرى تنفى هذه الخرافة الضخمة من جانب آخر : فمن قال إن هذا « التطور » الخلقي الذي يشهده العالم في القرن العشرين شيء جديد في حد ذاته حتى يظن أحد أنه جميل لأنه جديد ، أو أنه راق لأنه جديد ؟!

أهو جديد حقا ؟ أولم تعرفه اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة ؟

هو هو بحذافيره . . . اتخاذ الخليلات والخلان « بحرية » ، ودون انتقاد من المجتمع . وإفراغ الطاقة الجنسية في صداقات « بريئة » (بريئة والله !) لإراحة الأعصاب من تحملها . والاختلاط بين الجنسين . والرقص في الساحات الشعبية

والمواكب والحفلات ، بل فى المعابد أيضا . و . . . و . . . والسعى إلى الاستمتاع بالحياة من كل سبيل .

هل من جديد ؟

فأين إذن خرافة التطور بالتجديد ؛ وهذه هى البشرية قبل ما يقرب من ألفى عام تصل فى رقيها « الخلقى » إلى دعارات القرن العشرين ؟

ألا يراجع الناس التاريخ قبل أن يحشوا أفواههم بالألفاظ ورءوسهم بالأوهام؟!

* * *

الخلاصة إذن أن الكيان البشرى لايتطور كله إلى الأمام . وأن العلم وحده هو الذى يسير للأمام قدما لأن طبيعته تؤدى به إلى هذا الطريق .

أما الكيان النفسى والخلقى فليس حتما أن يتطور مع التقدم العلمى . والبرهان هو وقائع التاريخ . وحين يتحدث الواقع فلا مجال لنظريات يصنعها أصحابها ويتحمسون لها بحسن نية أو بسوء نية . واحترام البحث العلمى — وهو من ألوان التقدم التى وصل إليها البشر فى العصر الحديث — احترام البحث العلمى ذاته هو الذى يدفعنا أن نقر بهذه الحقيقة سواء وافقت ميولنا أم خالفتها .

والحقيقة أن البشر فى الناحية النفسية والخلقية لايسيرون على خط مستقيم من التقدم ، وإنما هى دورات من الصعود والهبوط . من التطور والانتكاس على مدار الأجيال .

وكما أن طبيعة البحث العلمى هى التى أدت به إلى أن يسير فى خط مستقيم من التقدم ، فإن طبيعة الكيان النفسى للبشر هى التى أدت بهم إلى هذه الدورات الدائمة من التطور والانتكاس .

ونبدأ الدورة من أى جزء فيها ثم نكملها . .

فلنفترض أننا نعيش فى مجتمع منحل . مجتمع مفكك العرى ملوث الأخلاق . . فما النتيجة ؟ النتيجة التى تكررت فى التاريخ أن هذه الموجة تنتشر حتى تصل إلى آخر

المدى ... حتى تنهار الأمة بكاملها فى حرب داخلية أو خارجية . كما حدث لفارس القديمة واليونان القديمة وروما القديمة .. وكما حدث لفرنسا فى العصر الحديث.. التكالب الشديد على اللذات يصرف الأمة عن تكاليف الجد فى العمل ، وتكاليف الدفاع عن الكيان فتنهار . . .

ثم تؤثر الهزيمة أو الصدمة العنيفة فى أعصاب الناس فتفيقهم مما هم فيه . ويحسون أن تكالبهم على الشهوات هو الذى أحل بهم الضعف والخزى والهزيمة. فتقوم الدعوة لوقف الفساد ورفع الهمم والترابط والتساند وجمع الصفوف المفككة المنهارة . وتظل هذه الدعوة تعمل عملها رويداً رويداً حتى تؤتى ثمارها بمرور الأيام فينشأ جيل فاضل . ولا نقصد أنه خال من الفساد . فإن وجه الأرض لم يخل قط من الفساد والجريمة . وإنما نقصد أن نسبة الفساد فيه هى الصغرى ونسبة الفضيلة هى الغالبة . ويستمر المجتمع على ذلك جيلا أو أجيالا حتى ينتعش ويربو ، ويحس بالاطمئنان إلى كيانه وقوته . . وعند ذلك يبدأ التحلل . يبدأ به أشد الناس انحلالا ، والمجتمع كله مستنكر . ثم يسرى الانحلال رويداً رويداً ويخف استنكار المجتمع ، ويرضى بالأمر الواقع . ثم يشارك الجميع فى الفساد الذى يصبح هو الدفعة الغالبة . . إلا أقلية بسيطة تظل متزمتة . . وهى التى تبدأ منها الدورة التالية الهادفة إلى التماسك والصعود !

وهكذا تدور البشرية فى دورات متوالية من الارتفاع والهبوط ولا تسير فى خط واحد مستقيم !

* * *

ذلك حين يتركون أنفسهم على سجيتهم . ويتركون « التطور » يتحكم فى إرادتهم ولا يتحكمون هم فيه .

وقد قالت أوربا إن التطور قوة قاهرة خارجة عن إرادة البشر مستقلة عن كيانهم ، لأنها تركت نفسها على سجيتها . فوجدت نفسها تندفع فى تيار فكرى

وخلق معين ، كل خطوة فيه تؤدى إلى الخطوة التالية بلا قصد ولا تدبير !

ولكن هذا كان بعد أن ابتعدوا ـ بإرادتهم ـ عن الارتباط بالله فى صورة دين وعقيدة .

وحين يقطع الإنسان صلته بالله ـ فرداً كان هـــذا الإنسان أو جماعة ـ فلا مصير له إلا هذا المصير : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ » والهوى هو الخضوع للضرورات : هو الهبوط مع الخيط الهابط ، وإهمال القدرة على الصعود .

وليس هنا مجال التفصيل للأسباب التى دعت أوربا إلى التحلل من دينها والكفر بعقيدتها ، فقد تحدثت عنها فى أكثر من موضع فى كتاب « الإنسان » وكتاب « الشبهات » . ولكنى أقول فقط إنه لم يكن حتما على أوربا حين نفرت من دكتاتورية الكنيسة وبشاعة ما تفرضه على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم من أرزاء ، لم يكن حتما عليها أن تنسلخ من دينها كله ومن الارتباط بالله . فقد كانت تملك أن تحطم سلطان الكنيسة لتخلص الدين من قبضتها وترده إلى صفائه وروحانيته واتصاله المباشر بالله..وكانت أوربا تستطيع ـ لو أرادت ـ أن تعتنق الإسلام ، فيخلصها من دكتاتورية الكنيسة ، ويردها فى الوقت ذاته إلى الله ، ويزيل العداوة القائمة فى أفكارهم وأرواحهم بين العلم والعقيدة ، وبين العقل والدين . . . ولكن أوربا لم تصنع شيئاً من ذلك ، وانسلخت من دينها وعقيدتها وأخلدت إلى الأرض . . وسارت فى طريق « التطور » ، وصعدت فى ميدان العلم والاختراع ، ولكنها هبطت هبوطا مزريا فى عالم المشاعر والأخلاق حتى وصلت إلى درجة من الانحطاط ندر مثلها فى التاريخ . فقد كانت نوبات الفساد السابقة لا يسندها شىء إلا حب الناس للشهوات ورغبتهم فى الاستمتاع بالحياة . أما النوبة الحالية فتسندها نظريات علمية وسيكلوجية زائفة تقرر أن هذا الفساد هو الحق الذى ينبغى أن يكون .

وأوربا اليوم فى قمة فسادها . أو على الأصح فى الدرك الأسفل من الهبوط .

وسيفغر أناس أفواههم فى بلاهة ويقولون : وى ! فى عصر الذرة والطائرة الصاروخية والتليفزيون والمخ الإلكترونى . . وفى عصر التنظيم الآلى للإنتاج والتنظيم العلمى للسياسة والاقتصاد وكل شئون الحياة ؟ العصر الذى يكشف كل يوم عجيبة ، ويحاول أن يصل إلى القمر ويتصل بالمريخ ؟ !

ونقول لهم : نعم . إنها الحقيقة الواقعة . إن العلم يسير فى خطه المستقيم صاعداً أبداً نحو القمة . ولكن نفوس البشر تلتوى فى موجات هابطة وصاعدة بصرف النظر عن التقدم العلمى . وهى اليوم فى حضيض الموجة الهابطة كأسوأ ما يكون عليه الإنسان .

ولكنها ستهدف إلى الصعود !

الدورة الطبيعية التى تحكم الحياة البشرية !

وقد بدأت أمارات قليلة من هذا الصعود تظهر على الأفق ... ولكنها ضعيفة ما تزال . فى أمريكا بلد الهوس الجنسى الذى يدعونه الحرية ، والانطلاق المجنون الذى يدعونه التقدم ، تتعالى صيحات علماء التربية وعلماء الاجتماع وعلماء السياسة أن أمريكا مشرفة على الخطر إن لم تضع القيود لهذا الهوس المجنون ، وترتد إلى حظيرة الأخلاق

وروسيا الملحدة تضطر لأى سبب من الأسباب إلى إباحة التدين .

والبقية تأتى . . .

سترتد البشرية إلى صوابها . ستعود إلى الصعود .

وقد لا نعيش نحن حتى نرى فرنسا الداعرة قد ارتدت متدينة محافظة ، ولا أمريكا المجنونة قد صارت إلى التعقل ، ولكن الموجة سائرة فى طريقها المحتوم . والبشرية لا بد أن تصعد فى مستقبلها القريب ، لا بحكم الزمن والتطور ، ولكن بحكم الموجة التى أخذت مداها من الهبوط فعادت إلى الارتفاع .

نهاية الشيوعية

الشيوعية فى نظر أصحابها هى النظام الأخير للبشرية . . أى أنها النظام النهائى الذى ليس له فى ذاته نهاية !

ومع ذلك فإن الفلسفة الشيوعية ذاتها هى التى تحدد نهاية الشيوعية !

الغذاء والمسكن والجنس . تلك هى المطالب الأساسية كما حددها كارل ماركس فى الإعلان الشيوعى .

والغذاء والمسكن والجنس هى الهدف الذى تسعى الحكومات الشيوعية لتحقيقه لمئات الملايين .

وهو هدف ضخم جدا بغير شك. وجدير بأن يشغل الحكومات كلها شيوعية كانت أو غير شيوعية .

ولكن نقطة الخلاف بيننا وبين الشيوعيين ، أن هذه الأهداف وحدها لا يجوز أن تكون هى الشغل الأوحد لحكومة من الآدميين . وإلا فلو قامت بين الحيوانات حكومة، أو لو أن بشرا قام يشرف على تنظيم حياة الحيوان، فما الذى يمكن أن يسعى لتوفيره له إلا الغذاء والمسكن والجنس ؟! فهل يليق بكرامة الآدميين ، وحكومات الآدميين أن تكون مطالبها هى ذاتها مطالب الحيوان ؟ وفيم إذن كان الإنسان إنسانا إذا كنا سنعود به إلى عالم الحيوان ؟

ولا نحب أن نظلمهم ولا أن نتجنى عليهم . فهم لا يرون الحياة البشرية تقف عند هذا الحد فى حقيقة الأمر . ولكنهم مع ذلك يقصرون وظيفة الدولة على ضمان تلك المطالب الرئيسية . ويدعون بقية الأمور تنبت نباتا تلقائيا بعد تنظيم الاقتصاد ، على الأساس الفلسفى الخاطىء الذى يؤمنون به ، وهو أن مجالات الإنسان العليا : من فكر أو فن أو ـ لا قدر الله ! ـ عقيدة ، إنما هى انعكاس

الوضع الاقتصادى القائم ، وليست شيئا قائما بذاته ، ناشئا من جذور إنسانية أصيلة ، شأنها شأن عوامل المادة والاقتصاد .

ولن تفلح الشروح الشيوعية كلها فى زحزحتنا عن عقيدتنا الفاسدة ، التى تجعلنا نؤمن أن العناصر الاقتصادية جانب واحد من جوانب الكيان الإنسانى الواسع ، وأن هناك فى هذا الكيان قيما أخرى ليست اقتصادية فى جوهرها ، ولا يهذبها إلا توجيه العناية إليها مباشرة ، ومدها بغذائها الخاص الخارج عن عالم الاقتصاد ، وأن التوزيع الاقتصادى العادل ـ وحده ـ لا يغذى هذه القيم الأخرى ولا يهذبها ، وإنما كل ما يصنعه هو أن يهيء لها جوا صالحا للتغذية والتهذيب .. فقط ولا يزيد !

لن تفلح الشروح الشيوعية ـ العلمية ! ـ كلها فى زحزحتنا عن هذه العقيدة الساذجة الفاسدة ، الموروثة من عقلية القرون الوسطى ، لأننا نرى فى عالم الواقع لا فى الكتب والنظريات حادثتين ضخمتين فى العالم الشيوعى ، تكذبان هذه الشروح العلمية كلها وتؤيدان ما نذهب إليه من أفكار .

بريا .. وستالين .

اتهم بريا ـ وأعدم من أجل هذا الاتهام ـ بأنه يتآمر مع الرأسمالية سراً لتقويض أركان الشيوعية . من أجل أن يتمتع هو بالسلطان !

والاتهام لا يخرج عن أحد أمرين فهو إما صادق وإما كاذب .

فإذا كان صادقا ، فقد وجد إذن بين الذين تربوا فى ظل النظام الشيوعى ، وانطبعوا بانطباعاته كلها ، وجرت عليهم حتمية التنظيم الاقتصادى التى تقضى بامتناع شهوة السلطان ما دام المجتمع غير طبقى ولا يمارس الملكية الفردية .. وجد بين هؤلاء من يضرب بهذه الحتمية عرض الحائط ، ويبرز أمام الناس مثالا بشعا للخيانة وعدم الإيمان ، لأن هذه الشهوة النفسية ـ شهوة السلطان ـ لم تتهذب بكل التنظيمات الاقتصادية ، ولم تنبت حولها الفضيلة نباتاً تلقائيا يغنيها عن توجيه العناية المباشرة إليها ، بغذاء لا يستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد .

غذاء العقيدة . . غذاء الروح .

أو يكون الاتهام كاذبا . . فالأمر سواء !

لقد وجد إذن فى العالم الشيوعى المنظم تنظيما اقتصاديا — علميا ! — من تسول له نفسه الكذب ، واتهام الأبرياء وإعدامهم ، رغبة فى التخلص منهم ، والتفرد دونهم بالسلطان !

ذلك بعض ما نخلص إليه من الحادث الأول الخطير .

أما ستالين فشأنه أخطر . فقد كتبت عنه الصحف الروسية — لا صحف أعدائه — أنه كان مجرما فظا يحكم البلاد بالدكتاتورية والحديد والنار والتجسس ، وأنه كان يعبد شخصه ويسعى لفرض عبادة شخصه على الجماهير !

يا للهول ! وماذا بقى إذن للإسلام مثلا ؟ !

معقول أن تقوم هذه الجرائم كلها فى ظل نظام فاسد كالإسلام ، لا يقوم على أسس علمية ، ويبيح الملكية الفردية ، ويبيح نظام الطبقات ، ولا يقيم وزنا للبروليتاريا . ويبلغ به التأخر أن يكون قائما على عقيدة ، وأن يكون منزلا من عند الله . . .

معقول أن يكون فى نظام الله كل هذه المفاسد والانحرافات(١) .. أما أن تتوفر كلها ، وبهذه الشناعة فى نظام — علمى ! — فهذا كثير والحق يقال . . . إنه يدعونا إلى مراجعة هذه الدعوى العريضة من أساسها ، دعوى التنظيم الاقتصادى فى تهذيب النفوس ونزع شهواتها الكافرة ، وتحويل الناس إلى ملائكة مطهرين !

إن تأثير الاقتصاد فى المشاعر والأفكار حقيقة أزلية خالدة لا ينكرها عاقل . ولم يكن ماركس وإنجلز وعلماء القرن التاسع عشر والعشرين هم الذين اكتشفوها وحدهم على مدار الأجيال . فإن رجلا متأخرا جداً كعمر بن الخطاب ، جاهلا ، لم يدرس فى الجامعة ، ولم يتخصص فى علم الاقتصاد أو علم الاجتماع ، بل هو أشد تأخراً من ذلك لأنه يسير حافياً فى الصحراء ، وأسوأ من ذلك أنه يؤمن بالله

---

(١) رددنا على هذه المزاعم كلها فى كتاب « شبهات حول الإسلام » .

وبالعقيدة . . رجل بهذا التأخر هو الذى قال لعماله ولاة الأقاليم وهو يشرح لهم أساليب الحكم وحدود معاملة الناس « . . ولا تجيعوهم فتكفروهم » !

أدرك هذا الرجل المتأخر أن العقيدة لا تنبت فى المعدة الخاوية . وأنه لا بد من إعطاء الناس مطالبهم الأساسية من الغذاء والمسكن والجنس لكى تقوم العقيدة فى نفوسهم على استواء .

ولكنه لم يكن مثقفا ثقافة علمية ، فنجا من الهوة الكبرى التى تنحدر إليها الأفكار المثقفة فى القرن العشرين . ولم يعتقد أن ضمان المطالب الأساسية وحده — وبطريقة تلقائية — يهذب الطباع ويرفع النفوس ويغنى عن العقيدة . فكان يرسل للناس — وقد أمَّنهم على مطالب الجسد — من يهذب أرواحهم ويمنحها غذاءها الحق من نورُ الله .

ذلك موضع الخلاف الأكبر بيننا نحن المتأخرين وبين الشيوعيين التقدميين . هم يؤمنون بأن الاقتصاد حقيقة طردية وعكسية . ونحن نؤمن بأنها حقيقة عكسية فحسب . أى أنها حين لا توجد يختل البناء كله من أساسه وينهار (ولا تجيعوهم فتكفروهم) ولكنها حين توجد لا تؤدى بذاتها إلى الرفعة الروحية والخلقية والفكرية والإنسانية ، مالم يصحبها تهذيب مباشر غير مستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد ، بل مستمد من العقيدة وارتباط القلوب بالله (١) .

* * *

ولكننا نتجاوز مؤقتا عن هذا الخلاف الرئيسى بيننا وبين الشيوعيين ، لنتابعهم فى عالمهم المثقف الرفيع .

الغذاء والمسكن والجنس هى المطالب الرئيسية ، وهى همّ الحكومة الشيوعية .

ومضى الزمن قدما . . وتحقق الحلم الشيوعى الأكبر : لكل بحسب حاجته ، ومن كل بحسب مقدرته .

---

(١) انظر فصل « العلم والعقيدة » فى أول الكتاب .

تقدمت وسائل الإنتاج مع تقدم العلم ، وصار فى مكنة البشر أن يعملوا ساعات قليلة من النهار ، بأقل جهد ممكن ، ويحصلوا على قدر كبير من الإنتاج ، يكفى كلا بحسب حاجته .

ثم . . . ؟!

إن الشيوعيين لن يؤخذوا بهذا السؤال على غرة . فهم قوم مثقفون على أسس علمية . ولم يفتهم أن يبحثوا هذا الأمر . إن الشيوعية لن تنتهى حينئذ كما يظن المتأخرون قصار النظر فاسدو العقيدة .

إن هناك امتدادا للحلم الشيوعى الأكبر . . .

عندئذ تقوم حكومة عالمية فى كل الأرض لتمنع الحرب ، وتمنع التسابق إلى التغلب والتسلح ، ما دام الإنتاج صار من الجميع بواسطة الجميع .

ثم . . . ؟!

ومرة أخرى لن يؤخذوا بالسؤال على غرة . فالمادية الجدلية ترقب تاريخ العالم فى المستقبل البعيد ، كما يرقب الفلكى بمنظاره أبعاد الكون البعيد . . .

عندئذ تنتهى مهمة الحكومة كسلطة آمرة ناهية مدبرة . وتصبح مجرد تنظيم مدنى لتوزيع الخدمات على الملايين .

ويعيش الناس فى عالم جميل بطل فيه الصراع وحلت محله المحبة والوفاء إلى أن يأذن العالم بانقضاء . . .

* * *

ولن تبلغ بنا الجرأة أن نبسط ألسنتنا بسوء الأدب فى حق هذا « العلم » الذى « يبحث » و « يقرر » ، وهو كالغائب فى الملكوت ، أو « المبسوط » من دخان الحشيش والأفيون ! ولن نقول إن الشيوعية الأولى الضاربة فى أطناب التاريخ قبل اكتشاف الزراعة والملكية الفردية لوسائل الإنتاج لم تكن ذلك الحلم الذهبى الساحر الذى تسعى الشيوعية الثانية إلى إعادته ، ولم تكن تخلو من صراع وحشى

جشع على شهوات أخرى غير شهوة السيطرة على وسائل الإنتاج المادى . فقد كان الصراع يقوم بين الرجال أحياناً من أجل امتلاك امرأة — رغم وجود الشيوعية الجنسية — أو يقوم تارة أخرى من أجل رئاسة القبيلة والتفرد بالسلطان ! ولن نقول كذلك إن تجربة الشيوعية فى مهدها الأصيل — روسيا — قد تكشفت عن نصرين هائلين فى بريا وستالين !

كلا ! لن تبلغ بنا الجرأة وسوء الأدب أن نقول شيئاً من هذه الأكاذيب ، وسنصدق ذلك الحلم الساحر الذى « يسرح » فى عقول الشيوعيين ؟

فعلى أى أساس هو ؟

على أساس الغذاء والمسكن والإشباع الجنسى ؟

على أساس مادية الإنسان وحيوانيته ؟

أم على أساس آخر من النظر إلى الإنسان والحياة ؟ !

فأما إن كان على أساس أن الإشباع الاقتصادى سيؤدى حتما — بطريقة ذاتية أو غير ذاتية — إلى ارتقاء الناس وارتفاعهم ، وتحليقهم فى الآفاق الإنسانية العليا التى أساسها المودة والإخاء والتهذيب الخلقى ، والارتفاع عن عالم الضرورة وقيود الأرض . . فقد التقينا إذن على كل ما بيننا من خلاف . التقينا على تحديد الغاية العليا للإنسانية . والتقينا على القول بأن هذه الشيوعية — المادية — التى تحدد المطالب الرئيسية بالغذاء والمسكن والجنس — ليست فكرة أبدية ، ولا نظاما طويل الأمد ، وإن هى إلا فترة انتقال ، تنتهى — كفكرة وفلسفة ونظام — يوم يجد الناس مطالبهم الدنيا ، أى حين يتوفر القدر اللازم من الإنتاج. وتكون نهاية الشيوعية رهينة بتلك اللحظة التى يستطيع فيها العلم تحقيق هذه الغاية التى أصبحت اليوم قريبا من قريب !

أما إن كان على الأساس الحالى نفسه ، الذى ينظر إلى الإنسان نظرته إلى الحيوان سواء ، فهنا سوف تفاجأ الشيوعية بالحقيقة الكبرى ، يوم تحقق حلمها

الأكبر من زيادة الإنتاج وتوزيعه على الناس بالعدل والقسطاس !

سوف تفاجأ بجوعة الروح بعد أن تشبع الأجسام .

تلك سنة « الطبيعة » التي نسميها نحن المتأخرين سنة الله ، لأننا لا نفهم سبباً منطقيا للعدول عن فكرة الله والقول بفكرة الطبيعة .

سنة الله في خلقه أن جوعة الروح تبدأ بعد اكتفاء الجسد ، إن لم تبدأ قبل ذلك .

العصفور حين تمتلىء بطنه بالحب يرفرف بجناحه ويصفر بفمه . . يريد الانطلاق . حتى في غير موسم الجنس والإكثار .

والإنسان كذلك . حين تكتفي مطالب جسده بدرجة معقولة يحس بحنين آخر .. حنين إلى الانطلاق الانطلاق إلى عوالم أخرى غير عالم الأرض المحدود .

ولن تفلح كل وسائل الوعظ الإلحادي في القضاء على هذه النزعة البشرية ، لأنها لا تخص البشر وحدهم ، بل هي فطرة الحياة كلها في جميع الأحياء !

ومعقول جدا أن تغرق الروح في ركام المادة حين تجوع الأجساد أو تتحرق شوقا إلى الضرورات . « ولا تجيعوهم فتكفروهم » ولكنه ليس من المعقول أن تظل غريقة في ركام المادة حين تشبع الضرورات وتهدأ الحرقات .

وسترتد الإنسانية حتما إلى العقيدة . .

سترتد إليها في اللحظة التي يتحقق فيها الحلم الشيوعي الأكبر ، إن لم يكن قبل ذلك بكثير .

سيفيق الإنسان إلى ذاته .. إلى عظمته التي طمرت في تراب المادة وأوحال الاقتصاد . سيفيق إلى أنه طاقة كبرى أوسع بكثير جدا مما أرادت له الشيوعية المادية التي حددت مطالبه الرئيسية بالغذاء والمسكن والإشباع الجنسي . طاقة تشمل جسمه وعقله وروحه كلها في كيان .

وعندئذ ستنتهي الشيوعية . ستنتهي لأنها أدت مهمتها . أوصلت الناس إلى الغاية التي رسمتها لنفسها وحددت بها مطالبها .

أو تتحول إلى نظام آخر . .

نظام يشمل مطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح .

نظام يؤمن بالمادة ولكنه لا يغلق بصيرته عما وراء الكون المادى من أنوار وطاقات .

نظام يؤمن بما تدركه الحواس ، ولكنه لا يغفل ما لا تدركه الحواس .

نظام يجمع الروح والمادة ، ويصل بين الدنيا والآخرة والأرض والسماء .

وذلك هو الإسلام !

وذلك هو النظام الخالد لأنه يتمشى مع كيان الإنسان الخالد . يعرف أنه جسد وعقل وروح ، فيمده بمطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح .

إنه يتعامل مع الإنسان كله . مع الجوهر الدائم الذى لا يتغير فى حقيقته الجوهرية مهما تغير الإطار الخارجى من نظام للحكم أو نظام للمجتمع أو نظام للاقتصاد.

ويعرف حين يتعامل معه أن فيه عنصراً دائماً ثابتاً مقيما على الأجيال ، وجوانب متغيرة متجددة متطورة على الدوام .

فيعطى الجانب الأول العقيدة . . .

ويعطى الجوانب الأخرى نظاما مرنا فى الحكم والاجتماع والاقتصاد ، يضع الأسس العريضة ويترك للعقل البشرى أن يجتهد فى حدودها بحسب درجته من التطور والارتقاء .

ومن ثم لا ينتهى . .

وكيف ينتهى وهو لا يضع نظاما لفترة معينة أو جيل من الناس . وإنما يتعامل مع « الإنسان » إلى أن ينتهى الإنسان ؟

ومن أجل ذلك لا نؤمن بالشيوعية ونؤمن بالإسلام !

صناعة البشرية

كنا نتناول الطعام مرة ، وجاءت صحفة من « السلاطة » ، مكونة من خضر طازجة لا توابل عليها ولا إضافات ، فقال أحد الحاضرين : أنا لا آكل من هذه الصحفة لأنها خضر خامة لم « تصنع » بعد !

عندئذ خطر فى نفسى هذا الخاطر : إن الناس يرفضون أن يأخذوا شيئاً خاماً بلا صناعة . وأيما خامة وجدوها لم يتركوها على حالها . ولم يألوا جهدا فى أن يصنعوا منها أشياء جديدة مختلفة الأشكال والألوان . ويحسون بالزهو الغامر كلما استطاعوا أن يبعدوا بها عن خامتها الأولى ، وكلما استعصى على الناظر أن يكشف أصلها الأول عُدَّ ذلك إتقانا للصنعة وشهادة لها بالتفوق والافتنان .

وقد قضى الإنسان آمادا متطاولة وهو منطلق مع نفسه فى هذا الاتجاه . فلم يكتف بصناعة المادة ، والابتعاد بها عن أصلها الأول ، وابتداع أشكال متعددة من الخامات الواحدة ، بل مضى على النهج ذاته فى صناعة النفوس ! فلم يترك نفسه على خاماتها الأصلية الفطيرة ، بل راح يهذبها ويصقلها ، ويخرج من ركامها وترابها ألوانا بديعة من الصور الرائعة . راح يخرج من شهواتها النافرة ودوافعها الناشزة نماذج رائقة من المشاعر والأفكار متعددة تعدد أنماط البشرية .

وما من شك أن الخطى فى صناعة المادة كانت أسرع من الخطى فى صناعة النفوس . لأنها أطوع وأسهل ، وأكثر خضوعا للتشكيل والتنويع . بينما النفوس — لحيويتها — لا تثبت على الوضع المطلوب لها بغير مشقة ، وبغير رعاية دائمة فى الليل والنهار .

وما من شك كذلك أن الخطى فى صناعة المادة كانت تسير قدما ولا ترجع ، لأن العنصر المسيطر عليها — وهو العلم — يسير فى خط صاعد أبدا ، يضيف كل يوم

جديداً فى عالم المادة دون أن يضيع منه القديم ، بينما كانت الخطى فى صناعة النفوس تتعثر وتضطرب ، وتصعد وتهبط ، لأن « مادة النفوس » لا تثبت على قرار واحد ، ولاتنى ترتد كل هنيهة أو تشرد عن الطريق .

.. ولكنها كانت تسير على أى حال ! وكانت حين تتعثر وتضطرب تجد من يدعوها إلى العودة إلى الطريق السوى ، وتجد من يندد بانحرافها عن سواء السبيل .

ولكن الإنسان فى القرن العشرين يرتد فى نكسة كبرى ، فينفى منطق وجوده وينفى اتجاهات كيانه ، ويروح يسمى هذا التهذيب النفسى والخلق نفاقا ! ويروح يندد بصناعة النفوس، ويقول : لماذا لا نرتد إلى الفطرة . لماذا لا نترك نفوسنا على « حقيقتها » . لماذا نقيم الحواجز المصطنعة . لماذا لا نعترف بالحقائق البيولوجية ؟ !

وى ! هل النفوس وحدها هى التى ينبغى أن تترك على فطرتها الخامة بلا تصنيع؟!

بل إنهم لا يقولون ذلك بشأن الكيان النفسى فى مجموعه .

فتناول الطعام فطرة البشر ، كما هو فطرة جميع الأحياء . . . فكيف يقول لك الأوربى المهذب المتمدين إذا رآك تغرس أصابعك فى اللحم فيسيل دهنه على يدك و « تتلمظ » به شفاهك !

Savage ! متوحش !

وإنه ليزجرك ويندد بك . ويقول لك إن الإنسان صنع السكين والشوكة والملعقة « ليهذب » تناول الطعام . ليهذب الفطرة . ليبعد بها عن خامتها الأولى إلى ألوان جديدة رائعة زاهية ، تخفى أصلها الأول وتبدو كأنها خلق جديد .

واللباس فطرة . . أو كأنه فطرة . فكيف يقول لك هذا الغربى المهذب المتمدن لو رآك تلبس قطعة من الخيش ، أو ثوبا غير مخيط ؟ متأخر ! لا تفهم الحضارة . لا تفهم أن الإنسان قد تفنن فى صناعة الملابس ، لينشىء « جمالا » زائداً عن مجرد الضرورة ، وليمنح الحياة ثروة واتساعا بتنويع النماذج وتعديد الأنماط .

وكذلك فى معظم شئون الفطرة ، ومعظم شئون الحياة

. . . إلا الجنس ! تلك مشكلة القرن العشرين !

فى مسألة الجنس ينسى هذا الغربى المهذب المتمدين نفسه . ينسى قصة الصقل والتهذيب ، ينسى قصة الجمال الزائد عن الضرورة . ينسى أنه لا يترك شيئاً فى الوجود كله على حالته الأصلية الفطيرة . ينسى أنه يتناول الخامات كلها بالتحوير والصناعة. ينسى الملعقة والشوكة والسكين . ينسى أنواع الملابس المختلفة . ويقول لك فى تبجح: الجنس مسألة بيولوجية فلماذا نخلطها بالأخلاق ؟ لماذا لا نترك نفوسنا على سجيتها ؟ لماذا لا نعود إلى الفطرة ؟ !

وى !

ولماذا يكون الإنسان وحشا إذا غرس يده فى اللحم ؟ وقذرا متأخرا إذا مخط فى يده أو قضى حاجته فى الطريق ؟.

ولماذا تنفرون منه وتتقزز نفوسكم ؟ أليس على الفطرة ؟ أليس على سجيته بلا تصنع ولا صناعة ؟ !

كان المنطق يقضى أن نعود بكياننا النفسى كله إلى الغاب أو إلى ظلمة الكهوف. هناك نكون منطقيين مع أنفسنا حين نعتبر الجنس مسألة بيولوجية لا ينبغى خلطها بالأخلاق ، ولا يفرض عليها التهذيب . ونتعرى كذلك من لباسنا ، ونغرس أيدينا فى اللحم ، ونقضى حاجتنا بلا تحرز ولا ستار .

ونترك كل صناعة البشرية . سواء فى عالم المادة أو عالم النفوس .

أما أن نتشبث بالحضارة والمدنية ، ونتنفج فى لباسنا وطعامنا ومسكننا وحديثنا وتفكيرنا وتفلسفنا . . ونسير على ذلك فى كل أمورنا ، ثم نقف فجأة بلا مقدمات ولا منطق ، ونلقى عن أنفسنا كل ذلك ، ونقف عرايا لا يستر نفوسنا شىء ، نقتحم عالم الجنس نقول : فلنكن على الفطرة . . ذلك خبل لا يقدم عليه إنسان فى رأسه عقل !

ومع ذلك يقدم عليه سادة « علماء ! » محترمون !

علماء فى النفس وعلماء فى الاجتماع وعلماء فيما لا أدرى من ألوان الشرور !
علماء يتحدثون عن الكبت ، وعلماء يتحدثون عن التطور ، وعلماء يتحدثون عن رجعية الأخلاق والأديان !

وكلهم يدعون الناس أن يعرّوا مشاعرهم الجنسية ويرتدّوا بها إلى فطرتها . .

ويسمونه التقدم . . !

والصقل والتهذيب ، والابتعاد عن الخامة النافرة الناشزة ، والجمال الزائد عن الضرورة . . اسمه الرجعية !

حين نحاول تنظيف الجنس من أن يكون كله متاع الجسد الملهوف . حين نستخلص من طاقته الضخمة أفكارا ومشاعر ترتفع عن عالم الضرورة وقيودها القاهرة ، لكى تصبح فنونا طليقة ، وعواطف حب ، ورباط أسرة ، ومشاعر أبوة وأمومة . . حينذاك نكون رجعيين متأخرين غير متطورين .

وحين نقتحم عالم الجنس عرايا النفوس ، وأحيانا عرايا الأجساد ، على الشواطىء المعرّم عليها اللحم ، وفى السينمات الداعرة والصحافة العارية والصور المكشوفة ، ومقابلات الشبان والفتيات بإذن المجتمع أو بغير إذنه . نكون متحضرين متحررين من القيود .

ولا يرى الإنسان بذلك أنه ناقض كيانه ، وانحرف عن منطق وجوده .

ولا يرى أنه منافق مخادع وهو يزعم لنفسه المدنية والتحضر .

بل يزيد تبجحه فيقول إن «العلم» هو الذى يأمر بهذه الهمجية الضالة المرتدة إلى وحشية الغابة وظلمة الكهوف .

ويزعم الإنسان كذلك أنه تحرر إلى الأبد من وصاية الله عليه . لأنه شب عن الطوق . وتسلم زمام نفسه ، وصار يكتب بنفسه لنفسه المصير .

لا جرم إذن يكون مصيره المحتوم هو الهاوية فى آخر الطريق !

القيد والحرية

لماذا لا ننطلق من القيود ؟ !

لماذا نعيش فى الأغلال ، ونفسد على أنفسنا الاستمتاع بالحياة ؟

الفضيلة ؟ القيم العليا ؟ التسامى عن دفعة الغريزة ؟ ؟

ماذا يساوى ذلك كله ؟ ماذا يساوى إذا وضعنا فى الكفة الأخرى تلك القيمة الكبرى التى لا يعدلها شىء ولا توزن بشىء . . . الحرية . . !

حرية السلوك .. حرية التصرف .. حرية التفكير .. حرية الحياة .. الحرية !!

هل يمكن أن يوجد فى الحياة شىء أثمن من الحرية ؟ ألم يكن جهاد الإنسان منذ فجر التاريخ إلى اليوم فى سبيل التحرر والانطلاق ؟ ولقد حطم القيود واحداً أثر واحد ، فى عالم المادة وعالم الفكر ، فى عالم الاقتصاد وعالم السياسة ، ولم يبق إلا تلك التقاليد البالية التى يسمونها الفضيلة أو يسمونها الأخلاق . وهى قيد من القيود العتيقة التى تحطمت تباعا إزاء عناد الإنسان وإصراره على تحقيق ذاتيته .. وستتحطم تلك البقية البالية دون شك ما دام الإنسان مصراً على المضى فى جهاده النبيل نحو التحرر . . نحو الاكتمال . . نحو السيطرة على الوجود كله . . نحو التربع على عرش الكون . . ليصبح كما ينبغى له : القوة الفعالة فى هذا الوجود !

* * *

تلك عقيدة القرن العشرين . . عقيدة أوربا والعالم الذى غلبت أوربا عليه . يستوى فى ذلك الشرق والغرب والشمال والجنوب . وهى عقيدة منطقية مع أوربا ، ومع ظروفها التاريخية وخاصة فى القرون الثلاثة الأخيرة .

ولكنها ليست عقيدة الحياة ، ولا العقيدة التى تتمشى مع الكيان الحقيقى للإنسان .

وهذا المنطق المغرى .. منطق التحرر من القيود كلها لتحقيق أسمى ما فى الكيان الإنسانى من عناصر . . هذا المنطق ليس منطق الحقيقة !

والغرب اليوم فى انطلاقه المجنون لا يتلبث ليرى الحقيقة .

إن الذى تلسعه النار ، يجرى . . يجرى كالمجنون لا يهمه إلا أن يبتعد عن مصدر الحريق ، ولا يتلبث خشية أن يقع فى الهاوية وهو يجرى كالمجنون !

أما السليم الذى يندفع كالملسوع . . ويرى الهاوية ثم يقع فيها . . فهذا هو المجنون حقا دون مبرر الجنون .

والشرق الإسلامى اليوم هو المجنون الذى يندفع للهاوية . . بينما الغرب ذاته قد أخذ يحاول أن يمسك اللجام !

* * *

ينطلق الإنسان وراء رغباته الجامحة ، كلما دبت رغبة أطلق لها العنان .

. . ويظن أنه متحرر من القيود ! متحرر لأنه لا يطيع خلقا ولا دينا ولا عقيدة ولا قيداً واحداً من القيود المفروضة على السلوك .

ولا أريد هنا أن أناقش خرافة « الحرية » فى القرن العشرين ، وهو القرن الذى شهد فى أوربا خاصة أفظع دكتاتوريات التاريخ فى السياسة والاقتصاد، والذى يستعبد الفرد «للدولة» باسم التحرر من الجوع والصراع الطبقى ! ولا خرافة التحرر من الخوف ، والعالم يعيش فى أسوأ فترة من الفزع والاضطراب مرت به منذ فجر التاريخ . ولا خرافة السيطرة على قوى الكون ، والإنسان فى سبيل أن يدمر حياته بنفسه ، بالصواريخ الموجهة والقنابل الذرية ، قبل أن تتم له السيطرة على قوى الكوكب الضئيل الذى يعيش فيه ، فضلا عن الكون الواسع العريض !

لن أناقش هنا هذه الخرافة . .

ولكنى فقط أناقش الخرافة الأخرى .. خرافة الشعور بالحرية حين ينفلت الإنسان من قيود الأخلاق .

انظر إلى هذا الفتى المملوء بالقوة والحيوية . . وهذه الفتاة المتوفزة التى ينطلق من جوارحها نداء الحياة .

لقد أحس بالرغبة فيها . . رغبة طبيعية . . رغبة الحياة! وأحست كذلك بالرغبة فيه .

وانطلقت رغبتان متجاوبتان فأطاعتا هاتف الجنس ، وحققت كل منهما كيانها متحررتين من القيود !

وهذا شخص آخر لا يشاركهما فيما ينطلقان إليه من « تحرر » . .

لا يشاركهما عن عقيدة . أو لا يشاركهما لأنه لا يجد « الآن » رغبة فى هذا اللون من المتاع . أو لا يشاركهما لأنه لا يجد السبيل !

لا يعنيني ! المهم أنه متفرج يسجل ما يرى أمامه من الأحداث .. فما الذى يراه ؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها الفتى ولا الفتاة !

إنه يرى الحبل الممدود الذى ينجر منه الفتى وتنجر منه الفتاة ! حبل الشهوة . حبل الرغبة الجامحة التى انقاد لها كل منهما بلا وعى . حبل غليظ لا يملك كل منهما الفكاك منه ، لأن قوتهما ضئيلة بالقياس إليه ، أو لأنهما لا يقاومان !

هذا الحبل لا يراه الفتى لأنه بالنسبة إليه كالمغناطيسية قوة غير منظورة ، يندفع إليها طائعاً مختاراً لأنه هو الذى يريد ! ويراه الشخص المتفرج غليظاً مجسماً ، لأنه بعيد ـ أو مبتَعد ـ عن مجاله ، فهو غير متأثر به ، ولذلك يراه !

أى الوجهين هو الحقيقة ؟

ثم نقلب الصورة . . .

هذا فتى يواجه الإغراء بقلب رابط وقوة ضابطة . يراه وينصرف عنه . ويوجه طاقته الفائرة فى مجال جديد . ويحس أنه « متحرر » ! متحرر من ضغط الشهوة . متحرر من الانقياد لهذا الحبل الذى يخزم الأنوف فتنقاد ، متحرر من إطاعة هذا الهاتف . متحرر يتوجه بطاقته حيث يريد !

وهذا شخص آخر يتفرج من بعيد دون أن يشارك هذا الفتى عقيدته . . . فما الذى يراه ؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها هذا الفتى « المتحرر » . .

إنه يرى القيد مجسماً غليظاً . يرى الحبل الذى يكتف هذا الفتى فيمنعه من الحركة ويزجره عن الانطلاق . هذا الحبل الذى لا يراه الفتى ، لأنه يحس أنه

قيّد نفسه باختياره . . هو الذى يريد ذلك . ليس الحبل هو الذى يمنعه من إجابة الهاتف ، ولكنه هو يتجه بعيداً عنه لأنه لا يريده .

أى الوجهين هو الحقيقة؟ لا أريد أن أحير القارىء بين الوجهين المتناقضين . سأريحه . . سأقول له : إن كلا الوجهين هو الحقيقة !

القيد والحرية . . حقيقتان متجاورتان . بل حقيقة واحدة ذات صورتين ! هذا الفتى الجامح الذى أطاع هاتف الجنس قد تحرر . . تحرر من قيود الأخلاق والدين والمجتمع ، وفك كل ضوابط الإنسانية . . وهو فى الوقت ذاته قد انقاد للشهوة الجامحة بهذا الحبل المخزوم فى أنفه ، لأنه ـ بالتجربة العملية ـ لا يستطيع أن يقاوم إغراءها . . وليجرب إذا أراد !

وهذا الفتى الرابط مقيد بقيد غليظ : هو الميثاق الغليظ الذى أخذه على نفسه مع الله ، فهو لا يريد الفكاك منه ، وكلما توغلت فى نفسه العقيدة أصبح لا يملك الفكاك . وهو فى الوقت ذاته متحرر من قيود الضرورة ، يحس بحرية حقيقية إزاء الدوافع الملحة ، وينطلق بطاقته إلى آفاق وضيئة من النور .

حرية إزاءها قيد . . وقيد إزاءه حرية . هذه هى الحقيقة البشرية .

ليس القيد فى كفة وفى الكفة الأخرى الحرية.. وإنما كل حرية لها قيودها ، وكل قيد له حرياته . وفى كل من الكفتين حريات وقيود .

والمفاضلة فى واقعها ليست كما تضعها أوربا والعالم الذى غلبت أوربا عليه ، ليست مفاضلة بين القيد والحرية. وإنما هى مفاضلة بين قيد وقيد، وحرية وحرية. وهى فى حقيقتها المفاضلة بين حرية الإنسان وحرية الحيوان ، مقابل التقيد بقيود الإنسان أو التقيد بقيود الحيوان . . .

وقيود الإنسان اسمها الفضيلة أو اسمها العقيدة .

وقيود الحيوان اسمها الغريزة أو اسمها الشهوة . . أو اسمها المتاع الغليظ .

والإنسان حر بعدُ فى أن يظل إنساناً أو يعود إلى حظيرة الحيوان !

الحقيقة ؟!

أيهما الحقيقة ؟

نظرت مرة من مبنى المجمع العالى فرأيت «الكوبرى» . كوبرى قصر النيل. خطر لى هذا الخاطر : أهذا هو الكوبرى الضخم الذى أمر عليه وأشاهد طوله واتساعه وحركة المرور الدائبة التى تمر عليه ؟ أهذا هو ذلك الشريط الضيق المعلق فى الفضاء فوق النيل على دعائمه الصغيرة المتواضعة ؟

أيهما حقيقة الكوبرى ؟ أهى التى أراها الآن ، إذ أراه كله وحدة متكاملة وأرى على جوانبه رقعة من الفضاء ، ولكنى أراه بالنسبة للرقعة الواسعة شيئاً صغيراً محدود الآماد ؟ أم حقيقته هى تلك التى أراها وأنا عنده إذ أراه ضخما ممتد الأبعاد ، لا أكاد أرى شيئاً غيره ، بل لا أراه هو إلا أجزاء تلو أجزاء ؟

تقول إن النظرة الثانية هى الحق لأنها ترى الواقع كما هو من قريب ؟

نعم . ولكنها نظرة جزئية لا تدرك الكل ، ولا ترى النسبة بين الأبعاد على حقيقتها . والأولى هى التى تمكننى من رؤية حقيقة الكوبرى بالنسبة للماء والشاطئين وبقية الفراغ !

أيهما أصدق ؟ النظرة الجزئية التى تكبر الأجزاء وترى كل تفصيلاتها ، أم النظرة الكلية الشاملة التى تحدد أبعاد الأشياء كلها بالنسبة بعضها لبعض ، ولكنها تهمل الجزئيات أو تضغطها فلا تكاد تبين ؟

أى النظرتين ترى الحقيقة ؟ أم إنها لا هذه ولا تلك ، وإنما هى نسب مختلفة تبدو لى بحسب موقعى من المكان ؟

* * *

أيهما الحقيقة ؟

هذه الفتاة الفاتنة التي تسلب اللب . ولا يملك الفتى إزاءها نفسه ، يراها فلا يكاد يشبع من النظر إليها . كل شيء فيها فتنة . وجهها الساحر . عيناها المشرقتان . شفتاها الممتلئتان بالحيوية والنداء . حركاتها . لفتاتها . ضحكاتها . بسماتها . تعبيرات وجهها المتباينة المتلاحقة . النور الذي يشع من كيانها كله ، والنار المتأججة من حولها . .

هل هذه هي حقيقتها؟ أم هي تلك الفتاة العادية التي يراها الفتى ذاته حين تهدأ الرغبة ويستقر الشواظ ؟ فتاة ككل النساء . يا لها من متصنعة . ما هذه الحركات التي لا مبرر لها ولا ضرورة . ما هذا الثقل الظاهر في روحها إذ تحاول أن تلفت نظره إليها وهو لا يريد ؟

تقول إن الصورة الثانية هي الحقيقة لأنه يراها بلا هوى ولا تحيز ، ولكن الأولى كاذبة لأنه يراها بعين الرغبة المجنونة ؟

نعم . ولكن هذه الرغبة ذاتها : أليست حقيقة ؟

تريد أن تتأكد ؟ انظر إلى صورتها في نفسه مرة أخرى حين تعود الرغبة ذاتها من جديد ! حينئذ تختفي « الحقيقة » التي رآها بعينه الباردة مرة ، وتظهر « الحقيقة » الأخرى التي يراها بعين الرغبة والاشتعال .

أي الصورتين هي الحقيقة ؟ أم إنها لا هذه ولا تلك ، وإنما هي انعكاسات مختلفة بحسب مشاعره من الصورة ؟

* * *

أيهما الحقيقة ؟

هذا الرجل الذي تراه لأول وهلة فتستثقل ظله ، وترى عيوبه بارزة نافرة منفرة ؟

أم هو حين تألفه وتأنس إليه ، وترى لطف روحه ومزاياه التى لم ترها لحظة النفور ؟

تقول إن الثانية هى الحقيقة ، لأنك لم تأنس إليه إلا حين اكتشفت ـ فى مهل وروية ـ أنك مخطىء فى تقديرك الأول ، وأن هناك مزايا كانت خافية فى النظرة الأولى ؟

نعم . ولكن انتظر حتى تبرد موجة هذا الحب ، وتنصرف عنه لأمر من الأمور !

* * *

أيهما الحقيقة ؟

هذا المنظر الذى تبصره العين لأول مرة ويتفتح له الوجدان ، فإذا كل شيء فيه سحر ، وكل معنى فيه جميل . يخفق له القلب كما تخفق العين ، وترف حوله الخواطر ، ويضطرب الوجدان نشتى الأحاسيس ، وتهتز أوتار النفس كلها فى امتزاج كامل بهذه التجربة الحية . . .

أم ذلك المنظر ذاته حين تألفه العين وتألفه النفس ، فيفقد حرارته ، ويمر عليه الإنسان دون اكتراث ؟

تقول إن النظرة الثانية هى الحقيقة ، لأنها بريئة من بهرة السحر واضطراب الوجدان ، فهى لذلك ترى الحقيقة بلا زيادة ؟

نعم ولكنها تفقد كل جمالها وكل تأثيرها . تراها العين وحدها ولكن لا تبصرها النفس ، والقلب لا يتفتح لها ، والوجدان لا يستجيب . . فكأنها غير موجودة بالنسبة إليه . .

أيهما إذن هى الحقيقة ؟ أم إنها لا هذه وتلك ، وإنما هى استجابات شتى وتأثرات مختلفة ؟

* * *

أيهما الحقيقة ؟

هذه الفكرة التى تملأ نفسى وتملك علىّ مشاعرى ، وأرى أنها الحق كل الحق ، والخير كل الخير ، وأن مصيرى كله معلق بتنفيذها ، ولا حياة لى سواها . .

أم الفكرة الجديدة التى نبتت فى نفسى بعد عشر سنوات ، فاستهجنت بها الفكرة الأولى ، وسخرت من نفسى إذ كنت أتعلق بالضلالات والأوهام ، وأعتقد أنها حقيقة ؟

تقول إنها الثانية ، لأن عشرة أعوام من التجارب قد زودتنى بالقدرة على الحكم وحسن التقدير ؟

نعم قد يكون ذلك ولكن كيف الحال وقد تعود إلى ـ لأسباب خارجة عن حسابى ـ وفزة حارة من وفزات الشباب ، فأستهجن أفكارى الحكيمة المتئدة ، وأستصوب من جديد ما كنت أستصوبه قبل عشر سنوات ؟

أيهما إذن هو الحقيقة ؟ وكيف الحكم وأنا ذاتى أمتلىء بالفكرة إلى حد التشبع ، ثم أعود فأراها غير ذات موضوع ؟

* * *

ومع ذلك يركب الإنسان رأسه ، ويتشبث بما يعتقد أنه « الحقيقة » !

ويزعم لنفسه بصرا بالأشياء لا يخطىء ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

ما الحقيقة الواحدة التى ثبتت عندها الإنسانية ؟ ذلك تاريخها كله : تخبط من اليمين إلى الشمال ، ومن الشمال إلى اليمين ، وإيمان جازم فى كلتا الحالتين أنها ترى الحق وتصنع الصواب !

حتى حقائق العلم ، المفروض فيها أن تثبت لأنها لا تتأثر بعواطف البشر

وانفعالاتهم ، حتى هذه الحقائق تتغير ، وتتغير معها نظرة العلماء إلى الكون والحياة والأشياء !

• • •

هناك حقيقة كبرى وصل إينشتين إلى طرف منها ، ولكن روحه الجاحدة أبت أن تمضى معها إلى نهايتها .

كل الأشياء في هذا الكون نسبية : الزمان نسبي والمكان نسبي والحقائق نسبية.

تلك قضية لا تنطبق على الكون المادى وحده ، ولكنها تشمل كذلك حياة البشر وأفكارهم ومشاعرهم . .

وثمت حقيقة واحدة مطلقة فى هذا الكون العريض . هى الله .

الله وحده هو الحقيقة المطلقة ، لأن الحقائق النسبية كلها تنتهى إليه .

تنتهى إليه انتهاء مطلقا لأنه هو خالقها ، بينما لا ينتهى بعضها إلى بعض إلا « بالنسبة » التى قدرها الخالق بين بعضها وبعض .

والله وحده هو الذى ينبغى أن يعبد ويطاع ، لأنه الحقيقة الوحيدة الثابتة فى هذا الكون .

وكلمة الله هى العليا . . .

وحين يشرع لنا الله فى الأرض ، فهو وحده الذى يرى الأشياء على إطلاقها ، ويقدرها بالنسبة لنا . بينما نحن لا نرى من الأشياء إلا زوايا مختلفة ، تختلف حين يتغير الموقف أو الشعور !

ولكن الإنسان يركب رأسه ، ويرفض أن يطيع الله ، ويزعم أن بصره بالأشياء أصدق من بصر خالقه ، لأنه شب عن الطوق ، وتكشفت له حقائق « الأشياء » !

فمتى يثوب إلى رشده ، ويرى الحقيقة الواحدة المطلقة ، التى تحدد له موقفه الحق من الأشياء ؟

الطريق إلى الله

هل أحسست مرة وأنت تقدم مساعدة لشخص لا تعرفه ، فتقيله من عثرة ، أو ترفع له حملا لا يقوى على رفعه ، أو تناوله شيئاً لا تناله يده ، أو تدله على حل لإحدى مشكلاته ، أو تقوم له بعمل هو فى حاجة إليه . . هل أحسست بالخفة تملأ نفسك ، فتكاد تحمل جسمك حملا فى الهواء ؟ هل أحسست روحك ترفرف عالية مستبشرة ، ونشوة خفية تملأ جناحيك ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل استأت مرة من صديق ، لأنه يقوم بعمل يؤذيك أو يتسبب فى مضايقتك؟ هل هممت أن تقاطعه فلا تكلمه بعد ذلك أبداً ؟ هل جمعت أمرك أن تلقيها فى وجهه كلمة قاطعة : لست صاحبي ولا أعرفك منذ اليوم ؟

ثم رددت نفسك فى اللحظة الأخيرة وقلت : إنه بشر ، وكل البشر يخطئون . وأنا أيضاً أخطىء أحياناً بغير قصد ، ثم تبين لى ما أخطأت ؟ . . وهل أقبلت على صديقك تكلمه كأنه لم يسىء إليك ، بل تكلمه مقبلا عليه وقد أعطيته نفسك وقلبك . . حقاً لا رياء . . حقاً ينبع من أعماق نفسك ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست نحو إنسان أنك تحبه ؟ تحبه ولست فى حاجة إليه ولا تنتظر نفعا على يديه ؟ تحبه بلا ضغينة له فى نفسك ولا غيرة ولا حقد ؟ تحبه فلا تقيس نفسك — سراً — إليه وتقول : ألم أكن أنا أولى منه بما هو فيه ؟ تحبه فلا تحسده على مزاياه ومواهبه بل تحبها كأنها هى ملكك ، وتتمنى له المزيد ؟ تحبه فتنجذب

إليه كما ينجذب المغنطيس ، وتسرى روحك على موجات الجاذبية خفيفة مرفرفة نشوانة كالفراشة التى ترفرف للنور ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل فتنتك هذه الفتاة المشوقة الساحرة النظرات ؟ هل أحسست رعشة فى كيانك وهزة فى فؤادك ؟ هل اضطربت نفسك كلها كما تتحرك الرواسب الخامدة فى الماء الراتق فإذا كله قد اضطرب وماج ؛ تيارات صاعدة هابطة ، وذرات تذهب وتجىء . والماء الراتق صار مختلط اللون قد امتلأ « بالعكار » ؟

ثم هل تذكرت أنها ليست لك ؟ وأنه ليس لك أن تتبعها بخطواتك أو بنظراتك أو بمشاعرك ؟ هل أحسست ـ رغم الرغبة الجامحة التى تكاد تنتزعك من إطارك وتفلت بك من نفسك ـ أنك متنازل عنها . . عن الشهوة والفتاة ، وأنك تسترد أنفاسك اللاهثة وخفقاتك المضطربة . . وتهدأ وتطمئن ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل صفت نفسك فى نور القمر ؟ هل سرحت طرفك فى هذا الكون الحالم الغارق فى الضياء ؟ هل نسيت نفسك . وأحسست بالحواجز بينك وبين الكون تتذاوب وتختفى رويداً رويداً حتى إذا أنت جزء من العالم الواسع الفسيح ، وهو خاطرة تملأ فؤادك ؟ هل نسيت أحقادك وضغائنك وما بينك وبين الناس من صراع وتضارب ، وأحسست أنك والناس جميعاً ذرات خفيفة هائمة فى الملكوت ، لا ينبغى أن تتصادم ـ فالكون فسيح ـ بل ينبغى أن يخلى بعضها الطريق لبعض ، وأن تتجاذب لتسبح معا منسابة فى النور ؟ هل أحسست أنك طليق كهذا الشعاع السارب فى الفضاء ينقل بسمة القمر الحالم إلى وجه الأرض ؟

طليق من السلاسل التى تقيدك بالأرض، طليق من شهواتك الجامحة ورغباتك المجنونة، ونوازع الشر الخبيثة ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست بتلك القروش التى فى جيبك كأنها ليست لك ؟ هل انقطعت السلسلة المتينة التى تشدك إليها وتشدها إليك؟ هل بطل الجذب العنيف الذى يربط كلا منكما بالآخر ؟ هل أحسست بدلا من ذلك أن يدك تعبث بها لتخرجها من مكمنها ، نشوانة بما تفعل ، طليقة من الشح ، نشيطة إلى العطاء ؟ هل دسستها بعد ذلك فى يد فلان من الناس وانطلقت نشيط الخطوات خفيف الروح ، كأنك تخلصت من ثقلة كانت تشدك إلى الأرض ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست بالألم يعتصر فؤادك ؟ ألم من كل نوع . . آلام شتى . كلها مؤلم وكلها شديد . . هل أحسست أنك تتهاوى تحت وطأتها وأنك لا تستطيع احتمالها ؟ هل أحسست وخزها يدفعك إلى الصياح . . إلى التأوه . . إلى الانفطار . . إلى انهيار الأعصاب وانهيار السلطان على النفس ؟

ثم هل تمالكت نفسك رغم هذا ، وقلت تؤسى نفسك وتجمع شتاتها تصبرها . . فليكن ذلك فى سبيل الله ؟

إنها الطريق إلى الله ؟

* * *

هل أحسست برغبة تدفعك إلى العبادة ؟ رغبة ملحة تقيمك وتقعدك ، ولا تجد راحتها إلا ابتهالا إلى الله ، واستسلاما لله ؟ وهل خشعت نفسك وأنت تلبى هذا

الهاتف الذي يدفعك إلى الله ، واهتز وجدانك وشعرت بالقشعريرة تسرى فى كيانك ؟ هل أحسست أنك لست فى عالم الأرض . لست فى تلك البقعة التى يحددها الزمان والمكان المعلوم . وأنك لست أنت هذه الوشائج والعضلات والعظام . وإنما أنت أمام الله ومع الله . وأنت كيان لا حدود له ولا رسم ، لأنك روح تقبس من روح الله ؟

إنها الطريق إلى الله

* * *

هل أحنقك الشر يمرح فى الأرض ؟ هل أحسست بهزة الغضب وأنت ترى الظلم يقع عليك وعلى غيرك من بنى البشر ؟ هل رأيت أنه لا يجوز لك أن تسكت وأنه ينبغى أن تتحرك وتثور ؟ وأنك أنت . . أنت قبل غيرك ، ينبغى أن تقول لهذا الشر مكانك ، فقد جاوزت حدك . وهل علمت أنك لا شك متعرض للأذى حين لا تسكت على الظلم ، وحين تأخذ على عاتقك أن تقاومه وتعترض سبيله ؟ وهل علمت أن الأذى قد يشتد عليك حتى ليسلبك الراحة والأمن ورغد العيش . . وقد يسلبك الحياة . . ثم ظلت نفسك على غضبها ، وعلى عزيمتها فى الوقوف للظلم وصد العدوان ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل ضاقت نفسك بالحياة فما عدت تطيق آلامها وقسوتها ؟ هل تملكك الضجر واليأس ، وأحسست بالحاجة إلى الشكوى ؟ هل تلفت حولك فلم تجد من تشكو إليه ؟ لم تجد الصفى الذى يخلص لك حتى لتفتح له نفسك دون تحرج وتطلعه على كل خفاياك ؟ أو لم تجد راحة فى شكواك إلى الناس ؟

ثم هل تطلعت إلى السماء وانفجرت بالشكوى ؟ هل وجدت الله وشكوت له

بثك ونجواك ؟ هل أحسست أن هذا الحم الذى تطوى ضلوعك عليه قد تدفق وتدفق ، وسال كلمات على لسانك وعبرات فى عينيك ، وأنك أرسلتها كلها إلى القوة الكبرى القاهرة التى تملك كل شىء وتقدر على كل شىء؟وأحسست بالراحة والبرد والسلام إذ انطلقت تلك الشحنة الحبيسة ووصلت إلى غايتها ؟ وهدأت نفسك أنك أودعتها حيث ينبغى أن تودع وحيث لا تضيع ؟

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل ألممت بذنب ؟ هل جمحت نفسك فانطلقت من عقالها ، وأنت تغالبها فتغلبك ، أو تسكت عنها منذ البدء فتنطلق إلى حيث يغويها الشيطان ؟ هل وقعت الواقعة وانتهى الأمر ولم يعد إلى مرد من سبيل؟

وهل أفقت من غفوتك على لذعات ضميرك ؟ هل نكست رأسك خجلا من نفسك أن ضعفت وتلاشيت أمام الإغراء؟ هل أحسست أنك لا شىء؟أنك تافه لا تستحق التقدير والاحترام ؟

هل انقلبت خطيئتك سجناً يحيط بك من كل جانب ، لا مهرب منه إلا إليه . وحيثما توجهت سد عليك الأفق وحجبه بالظلمات ؟

وهل ضاقت نفسك بالحياة ؟ . . .

ثم . . .

هل انفتحت كوة من عالم الغيب ودخل منها بصيص من النور ؟

هل استروحت نسمات تدخل إليك من عالم سحيق ؟

هل أحسست بسمة حانية تطل عليك من ملكوت الله ؟

هل أحسست يداً رفيقة تأخذ بك من كبوتك ؟

هل أحسست صوتاً يهتف بك : « والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا

الله ـ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

وصوتا آخر يهتف بك : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

وهل غمرتك غمرة من نور ؟

وهل إندفعت قائماً تذكر الله وتستغفر الله ، وتتوب إليه ، وتمسح الخطيئة من ضميرك ، وتعزم عزمة الواثق أن لن ترجع إليها . .

وهل أحسست أنك مندفع إلى الله أكثر حماسة مما كنت من قبل ، وأشد تعلقا به مما كنت من قبل ، وأكثر إقبالا على نوره مما كنت من قبل . .

إنها الطريق إلى الله . .

* * *

هل أحسست ـ وقد فرغت من عملك ومن جهاد يومك ـ أنك لا تملك من أمر نفسك شيئاً ؟ وأنك مهما عَنَّيتها بشئون الحياة فليس من وراء ذلك إلا تعب الخاطر ومشغلة الفكر ؟ وأن عليك أن تسعى ولكنك لا تملك نتيجة السعى ولا تعلم أيان مرساه ؟

هل شعرت أن القوة الكبرى هى التى تدبر كل شىء وتمنح كل شىء ؟

هل شعرت أنك أديت واجبك كما ينبغى ، وفى حدود طاقتك ، وأنه ليس فى وسعك بعد ذلك إلا أن تنتظر أمر الله ؟

وهل حداك هذا إلى أن تكل أمرك إلى الله وتضع فى رعايته الحمل الذى يثقل ظهرك والمشغلة التى تأكل فؤادك ؟ وهل أحسست أنك آمن على هذا الحمل حقاً وهو فى رعاية الله ؟ وأنه هناك كأنك أنت الساهر على حراسته ؟ وهل ملأت قلبك الطمأنينة إليه ؟ ونمت وفى خاطرك أنه يرعاك وأنت نائم ، ويدبر لك أمرك وأنت غاف عن الإدراك ؟

إنها الطريق الى الله .

فهرس

كتب للمؤلف

الإنسان بين المادية والإسلام	(طبعة ثالثة)	دار إحياء الكتب العربية
شبهات حول الإسلام	(« رابعة)	مكتبة وهبة
فى النفس والمجتمع	(« ثانية)	« «
معركة التقاليد	(« «)	« «
قبسات من الرسول	(« «)	« «
منهج التربية الإسلامية		دار القلم
هل نحن مسلمون ؟		مكتبة وهبة
منهج الفن الإسلامى		دار القلم

كتب تالية

دراسات فى النفس الإنسانية .

الثبات والتطور فى حياة البشرية .

هذا الكتاب

- « ما هذه الحروب المدمرة التى تهدد العالم بالفناء . . .

« يقولون إنه (الصراع) . . . .

نعم . . ولكنه هو (الضلال) الذى يؤدى إلى الصراع » !

- ولكن . . هل بقى ثمة ضلال ، بعد نور (العلم) و (الحضارة) ؟

« كان الناس والعلماء قد استقروا حين حسبوا أنفسهم وصلوا إلى حقيقة الكون ، أو حقيقة المادة . . .

فما (الحقيقة) اليوم فى العصر الذرى الجديد ؟؟ »

- إن الكتاب يخلص إلى أن « العقيدة هى الرباط لكيان الإنسان . . . لا يغنى غناءها العلم ، ولا الدولة ، ولا التنظيم الاجتماعى ، ولا تنظيم الاقتصاد » ! ! !

- ويسر « مكتبة وهبة » أن تقدم الطبعة الثانية لهذه الدراسة الواعية ، من كاتب متخصص فى الدراسات النفسية بجانب كونه باحثا إسلاميا ... وقد جاء كتابه « فى النفس والمجتمع » تماما لكتابه الفذ « الإنسان بين المادية والإسلام »

مكتبة وهبة

الثمن ١٥ ص


Bibliotheca Alexandrina
0546483